إتحاف البررة

بتفسير

الجزء الثاني

٢-٦

تأليف

د. محمد بن رزق بن طرهوني

١٤٢٦هـ

هذا الكتاب عبارة عن المحاضرات التي سجلها

الدكتور محمد طرهوني

لطلاب جامعة المدينة العالمية بكلية القرآن الكريم

والتي كانت بمعدل ستين محاضرة لكل فصل وأتم في ذلك

فصلين كاملين وذلك عام ١٤٢٦هـ

المحاضرة الحادية والعشرون

***

عنوان المحاضرة: تفسير الآيتيْن رقم (٣٥) و(٣٦)، من سورة) البقرة.(
التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ .}

القراءات:

قرأ حمزة{ :فأزالهما }مِن :الإزالة، وهي التنحية، والصرف عما كانا فيه من النعيم والكرامة، ويكون الضمير في{ :عَنْهَا }للجنّة.

وقرأ الباقون{ :فَأَزَلَّهُمَا }مِن: الزّلل، وهو: الخطأ، أي: أوقعهما في الزّلّة، ويكون الضمير في{:عَنْهَا }للشجرة، أي: فحملهما الشيطان على الزّلّة بسببها. "وعن" هذه، مثلها في قوله تعالى{ :وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}، وقوله { :وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}؛ ويحتمل أن تكون مِن: زلّ عن المكان، إذا تنحّى عنه؛ فيتّحد المعنى مع القراءة الأولى. ويكون الضمير للجنّة، والمعنى: فأزلهما عن الجنة .بمعنى: أذهبهما عنها وأبعدَهما، كما تقول: زلّ عن مرتبته، وزلّ عني ذاك إذا ذهب عنك.

المناسبة :

لا زلنا في قصة آدم –عليه السلام.–

لغويّات.

السُّكْنى :مِن: السكون، لأنها نوع مِن اللّبث والاستقرار .

و{أَنْتَ :}تأكيد للضمير المستكنّ في{ :اسْكُنْ}، ليصحّ العطف عليه .

و{رَغَداً :}وصْف للمصدر، أي: أَكْلاً رغداً واسعاً رافهاً .

والإباء :الامتناع مع الألفة والتّمكّن من الفعل.

والاستكبار :التّكبّر، وهو ممّا جاء فيه "اسْتَفْعَلَ" بمعنى: "تَفَعَّل". وقيل: التّكبّر: أن يرى الشخص نفسَه أكبر من غيره، وهو مذموم، وإن كان أكبر في الواقع. والاستكبار :طلب ذلك بالتّشبّع .

والرَّغَد- :بفتح الغين، وقرأ النخعي: بسكونها-: الهَنِيء الذي لا عناء فيه، أو الواسع.

يقال:رَغِد عيش القوم، ورَغُد -بكسر الغين وضمّها :-كانوا في رزق واسع كثير. وأَرْغَد القوم: أخصبوا وصاروا في رغد من العيش .

والمتاع :البُلغة، مأخوذ مِن: مَتَع النهار إذا ارتفع، ويُطلق على الانتفاع الممتدّ وقته، ولا يختص بالحقير .

والحِين :مقدار مِن الزمان، قصيراً أو طويلاً والمراد هنا :إلى وقت الموت، وهو: القيامة الصغرى. وقيل: إلى يوم القيامة الكبرى؛ وعليه تُجعل السكنى في القبر تمتّعاً في الأرض .

و{حَيْثُ :}للمكان المبهَم، أي: أَيّ مكان مِن الجنّة شئتُما.

الآثار.

قوله تعالى{ :وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ.}

أخرج أحمد، والبخاري في "تاريخه"، والبزار، والبيهقي في" الشُّعب"، عن أبي ذر، قال :

))قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أوّل؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله ونبيّ كان؟ قال: نعم نبيٌّ مكلَّم. قلت: كم كان المرسلون يا رسول الله؟ قال: ثلثمائة وخمسة عشر جماًّ غفيراً)).

وأخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والطبراني، وأبو الشيخ في "العظمة"، وابن مردويه، وغيرهم، عن أبي ذر نحوه.

وأخرج أحمد، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، عن أبي أمامة: أنّ أبا ذر قال)) :يا نبيّ الله، أيّ الأنبياء كان أوّل؟ قال: آدم. قال: أو نبيّ كان آدم؟ قال: نعم. نبي مُكلَّم، خلَقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، ثم قال له: يا آدم قِبَلاً -يعني: عياناً- سمعه بلا واسطة. فقال : {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .}قال: قلت: يا رسول الله، كم وفّى عدّة الأنبياء؟ قال :مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً؛ الرّسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً.((

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصحّحه، والبيهقي في "الأسماء والصفات"، عن أبي أمامة الباهلي: أنّ رجلا قال: ... فذكر نحوه.

وهذا الحديث لا يثبت بطوله، ولا يصحّ منه إلاّ الشاهد معنا ها هنا، وأمّا باقيه فلا. وقد فصلت القول فيه في موسوعة: "فضائل سُوَر وآيات القرآن". والتفرقة بين الرسول والنبيّ لا تُسلَّم، ولا مجال هنا للتفصيل في هذه المسألة؛ وقد تعرضت لها في كتاب: "الإسلام ونبي الإسلام"؛ فليراجعْه من شاء.

وروى السدي بأسانيده، قال)) :أُخرج إبليس من الجنّة، وأُسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً، ليس له زوج يسكن إليه. فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها :ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولِمَ خُلقتِ؟ قالت: تسكن إليّ .قالت له الملائكة -ينظرون ما بلغ مِن علمه-: ما اسمها يا آدم؟ قال: حوّاء. قالوا: ولِمَ حواء؟ قال: إنها خُلقت من شيء حي. قال الله{ :يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .((}

وعن مجاهد قال: "نام آدم فخُلقت حواء من قصيراه، فاستيقظ، فرآها فقال: مَن أنت؟ فقالت: أنا أسا -يعني :امرأة بالسريانية ."-

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم :-

))استوصُوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خُلقت مِن ضلع، وإن أعوج شيء من الضلع: رأسه. وإن ذهبت تقيمه كسرتَه، وإن تركتَه تركتَه وفيه عوَج؛ فاستوصوا بالنساء خيراً .((

وعن ابن عباس قال: "إنما سُمِّيت: "حواء"، لأنها أمّ كلِّ حيّ ."

وعن ابن عباس قال: "إنما سُمِّيت المرأة: "مرأة" لأنها خُلقت من المرء، وسُمِّيت: "حواء" لأنها أمّ كلِّ حيّ ."

وعن عطاء، قال: "لما سجدت الملائكة لآدم، نفر إبليس نفرة، ثم ولّى هارباً وهو يلتفت أحياناً ينظر هل عصى ربَّه أحدٌ غيره؛ فعصمهم الله. ثم قال الله لآدم: قمْ يا آدم، فسلِّم عليهم! فقام فسلّم عليهم وردوا عليه. ثم عرض الأسماء على الملائكة، فقال الله لملائكته: زعمتم أنكم أعلَمُ منه؟{ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } قَالُوا سُبْحَانَكَ }إنّ العلْم منك ولك، و{لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا .}فلما أقرّوا بذلك،{ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}، فقال آدم :هذه ناقة، جمَل، بقرة، نعجة، شاة، فرس، وهو من خلْق ربي، فكلّ شيء سمّى آدم فهو اسمه إلى يوم القيامة. وجعل يدعو كل شيء باسمه حين يمرّ بين يديه، حتى بقي الحمار وهو آخر شيء مرّ عليه؛ فجاء الحمار من وراء ظهره فدعا آدم: أقبل يا حمار! فعلمت الملائكة أنه أكرم على الله وأعلم منهم .ثم قال له ربه: يا آدم ادخل الجنة تحيا وتكرم. فدخل الجنة. فنهاه عن الشجرة قبل أن يخلق حواء، فكان آدم لا يستأنس إلى خلْق في الجنة ولا يسكن إليه، ولم يكن في الجنة شيء يُشبهه. فألقى الله عليه النوم وهو أوّل نوم كان، فانتزعت من ضلعه الصغرى من جانبه الأيسر، فخلقت حواء منه. فلما استيقظ آدم جلس فنظر إلى حواء تشبهه مِن أحسن البشر، ولكلّ امرأة فضل على الرّجل بضلع. وكان الله علّم آدمَ اسم كلِّ شيء، فجاءته الملائكة فهنّوه وسلّموا عليه، فقالوا: يا آدم ما هذه؟ قال: هذه امرأة. قيل له: فما اسمها؟ قال: حواء. فقيل له: لِمَ سمّيتَها حواء؟ قال :لأنها خُلقت من حي. فنُفخ بينهما من روح الله فما كان من شيء يتراحم الناس به، فهو مِن فضل رحمتها ."

و عن أشعث، قال: "كانت حواء من نساء الجنة، وكان الولد يُرى في بطنها إذا حملت: ذكر أم أنثى من صفاتها."

وعن إبراهيم النخعي، قال: "لما خلق الله آدم وخلق له زوجته، بعث إليه ملَكاً وأمره بالجماع، ففعل. فلما فرغ، قالت له حواء: يا آدم، هذا طيّب، زدنا منه ."!

أمّا قوله تعالى{ :وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً.}

عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال: "الرّغد: الهني ."

و عن ابن عباس قال: "الرغد: سعة العيشة ."

و عن مجاهد في قوله{ :وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا}، قال: "لا حساب عليكم ."

عن ابن عباس: "الشجرة التي نُهي عنها آدم –عليه السلام –هي: الكرْم."

و عن ابن مسعود: مثله .

وكذا قال سعيد بن جبير، والسدي، والشعبي، ومحمد بن قيس .

و عن جعدة بن هبيرة قال: "الشجرة التي افتُتن بها آدم :الكرْم. وجعلت فتنة لولده من بعده، والتي أكل منها آدم :العنب ."

وقال السدي بأسانيده{ :وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، "هي: الكرم .وتزعم يهود أنها: الحنطة ."

عن ابن عباس قال: "الشجرة التي نهى الله عنها آدم :السنبلة –وفي لفظ:– البُر "

وعن أبي مالك الغفاري، في قوله{ :وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، قال: "هي السنبلة ."

وعن رجل من بني تميم: أنّ ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها آدم. فكتب إليه أبو الجلد: "سألتني عن الشجرة التي نُهي عنها آدم، وهي: السنبلة. وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم، وهي: الزيتونة ."

وكذلك فسّره الحسن البصري، ووهب بن منبه، وعطية العوفي، وأبو مالك، ومحارب بن دثار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

وعن وهب بن منبه: أنه كان يقول: "هي: البُر، ولكن الحبة منها في الجنةك ككُلَى البقر، ألين من الزبد، وأحلى من العسل."

وعن أبي مالك،{ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، قال: "النّخلة ."

وعن مجاهد،{ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، قال: "تينَة ."

وبه قال قتادة وابن جريج .

و عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: "هي: الأترج ."

و عن شعيب الجبائي، قال: "كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته شبه البُر، تُسمَّى: "الرعة". وكان لباسهم النور."

و عن أبي العالية قال: "كانت الشجرة مَن أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث."

وعن وهب بن منبه قال: "لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن أكْل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعِّب بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخُلدهم، وهي الثمرة

التي نهى الله عنها آدم وزوجته."

و عن قتادة في قوله{ :وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، قال: "ابتلى الله آدم كما ابتلى الملائكة قبْله، وكلّ شيء خُلق مبتلًى، ولم يدَع الله شيئاً مِن خلْقه إلاّ ابتلاه بالطاعة؛ فما زال البلاء بآدم حتى وقع فيما نُهي عنه ."

و عن قتادة قال: "ابتلى الله آدم فأسكنَه الجنة يأكل منها رغداً حيث شاء، ونهاه عن شجرة واحدة أن يأكل منها، وقدّم إليه فيها؛ فما زال به البلاء حتى وقع بما نُهي عنه، فبدت له سوءته عند ذلك وكان لا يراها، فأُهبط من الجنة ."

عن ابن عباس في قوله{ :فَأَزَلَّهُمَا}، قال: "فأغواهما ."

وعن عاصم بن بهدلة{" :فَأَزَلَّهُمَا :}فنحّاهما ."

وعن الأعمش قال: "في قراءتنا في (البقرة)، مكان{ فَأَزَلَّهُمَا }فوسوس ."

قوله تعالى{ :فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ }...الآية.

وروى السدي بأسانيده، قال: "لما قال الله لآدم{ :اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}، أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة، فأتى الحيّة، -هي: دابة لها أربع قوائم، كأنها البعير، وهي كأحسن الدواب-، فكلّمها أن تدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم. فأدخلته في فمها، فمرّت الحيّة على الخزنة فدخلت ولا يعلمون، لما أراد الله من الأمر. فكلّمه من فمها، فلم يبال بكلامه. فخرج إليه فقال{ :يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى}، وحلف لهما بالله{ :إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .}فأبى آدم أن يأكل منها، فقعدت حواء فأكلت، ثم قالت يا آدم: كُلْ، فإني قد أكلتُ فلم يضرّ بي. فلما أكل،{ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ."}

و عن ابن عباس، قال: "إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب الأرض أنها تحمله حتى يدخل الجنة معها، ويكلّم آدم .فكل الدواب أبى ذلك عليه، حتى كلّم الحية فقال لها: أمنعك من ابن آدم، فإنك في ذمتي إن أدخلتِني الجنة. فحملته بين نابين حتى دخلت به، فكلّمه من فيها، وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم، فأعراها الله، وجعلها تمشي على بطنها ."يقول ابن عباس: "فاقتلوها حيث وجدتموها، اخفروا ذمّة عدوّ الله فيها ."

وعن ابن عباس قال: قال الله لآدم: يا آدم ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتُك

عنها؟ قال يا رب، زيّنته لي حواء. قال: فإني عاقبْتها بأن لا تحمل إلاّ كرهاً ولا تضع إلاّ كرهاً، ودميْتُها في كل شهر مرتيْن. قال: فرنّت حواء عند ذلك، فقيل لها: عليك الرّنّة وعلى بناتك ."

وأخرج الدارقطني في "الأفراد"، وابن عساكر، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قال)) :إنّ الله بعث جبريل إلى حواء حين دمِيتْ، فنادت ربها: جاء منّي دم لا أعرفه. فناداها لأدمينّك وذرّيّتك، ولأجعلنّه لكِ كفّارة وطهوراً .((

وأخرج البخاري والحاكم، عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال)) :لولا بنو إسرائيل لم يَخْنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها .((

وعن عبد الرحمن بن زيد: "أن آدم ذكَر محمداً رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: إن أفضل ما فضل به عليّ ابني صاحب البعير: أنّ زوجته كانت عوناً له على دِينه، وكانت زوجتي عوناً لي على الخطيئة ."

وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن أبي حاتم، والآجري في "الشريعة"، والبيهقي في "الأسماء والصفات"، عن أبي هريرة: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :تَحاجَّ آدم وموسى، فحج آدم موسى. فقال موسى: أنتَ آدم الذي أغويتَ الناس وأخرجْتَهم مِن الجنة. فقال له آدم: أنت موسى الذي أعطاه الله كلّ شيء واصطفاه برسالته؟ قال :نعم. قال: فتلومني على أمْر قدّر عليّ قبل أن أُخلق؟ .((

وللحديث روايات أخرى لا نطيل بذِكْرها.

وروى ابن أبي حاتم، عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم)) :–إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأوّل ما بدا منه :عورته. فلما نظر إلى عورته، جعل يشتدّ في الجنة، فأخذت شعره شجرة، فنازعها. فناداه الرحمن: يا آدم مني تفرّ؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا ربّ، لا. ولكن استحياء .((

ورواه أيضاً، بلفظ)) : لما ذاق آدم من الشجرة، مرّ هارباً، فتعلّقت شجرة بشعره، فنودي :يا آدم أفراراً مني؟ قال: بل حياءً منك. قال: يا آدم اخرج مِن جواري، فبعزّتي لا يساكنني فيها من عصاني. ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلْقاً ، ثم عصوني، لأسكنتُهم دار العاصين .((

قال ابن كثير: هذا حديث غريب، وفيه انقطاع، بل إعضال بين قتادة وأبيّ بن كعب –رضي الله عنه .–

وروى الحاكم عن ابن عباس، قال: "ما أُسكن آدم الجنة إلاّ ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس". ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وعن ابن عباس قال: "خلق الله آدم من أديم الأرض يوم الجمعة بعد العصر، فسماه: "آدم". ثم عهد إليه فنسي، فسمّاه" :الإنسان". قال ابن عباس: "فتاللهِ، ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أُهبط مِن الجنّة إلى الأرض ."

وعن سعيد بن جبير، قال: "ما كان آدم –عليه السلام– في الجنة إلاّ مقدار ما بين الظهر والعصر ."

وعن موسى بن عقبة، قال: "مكث آدم في الجنة ربع النهار، وذلك ساعتان ونصف، وذلك مائتا سنة وخمسون سنة؛ فبكى على الجنة مائة سنة ."

وعن الحسن قال: "لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا ."

وعن الربيع بن أنس: "فأُخرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة، وهو الإكليل من ورق الجنة."

وعن أبي العالية، قال:"خلق الله آدم يوم الجمعة، وأدخله الجنة يوم الجمعة، فجعله في جنات الفردوس."

أما قوله تعالى{ :وَقُلْنَا اهْبِطُوا }...الآية .

عن ابن عباس في قوله{ :وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، قال: "آدم، وحواء، وإبليس، والحيّة{ ."وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ}، قال" :القبور"،{ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}، قال: "الحياة ."

وعن مجاهد في قوله{ :اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، قال: "آدم، والحيّة، والشيطان ."

و عن أبي صالح، قال{ :اهْبِطُوا}، قال: "آدم، وحواء، والحيّة ."

وعن قتادة قال{ :اهْبِطُوا}، يعني: "آدم، وحواء، وإبليس ."

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس، قال: ((سئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن قتل

الحيّات فقال)) :خُلقت هي والإنسان كلّ واحد منهما عدوّ لصاحبه، إن رآها أفزعتْه، وإن لدغتْه أوجعتْه؛ فاقتُلْها حيث وجدْتَها .((!

و عن ابن مسعود، في قوله{ :وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ" :}فوق الأرض، ومستقر تحت الأرض ."

قال{ :وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}،" حتى يصير إلى الجنة أو إلى النار."

وأخرج ابن عدي، وابن عساكر في "التاريخ"، بسند ضعيف عن سلمان، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) –إنّ آدم أهبِط إلى الأرض ومعه السّندان والكلبتان والمطرقة. وأُهبطت حواء بجدّة.((

وقال السدي: "قال الله{ :اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً}، فهبطوا. فنزل آدم بالهند، –وأنزل معه بالحجر الأسود، وبقبضة من ورق الجنة، فبثّه بالهند–)، فنبتت شجرة الطّيب. فإنما أصل ما يُجاء به من الهند مِن الطِّيب، من قبضة الورق التي هبط بها آدم. وإنما قبضها آدم حين أخرج مِن الجنة، أسفاً على الجنّة حين أُخرج منها ."

وعن ابن عباس قال: "أُهبط آدم (من الجنة) بدحناء: أرض بالهند ."

وعن ابن عباس قال: "أُهبط آدم –عليه السلام– إلى أرض يقال لها:دحناء، بين مكّة والطائف ."

و عن ابن عباس قال: قال علي بن أبي طالب: "أطيب ريح الأرض: الهند. أهبط بها آدم فعلق ريحها من شجَر الجنة ."

و عن ابن عباس، قال:"أهبط آدم بالهند، وحواء بجدّة، فجاء في طلبها حتى أتى جمْعاً فازدلفت إليه حواء؛ فلذلك سُمِّيت" :المزدلفة". واجتمعا بجمْع، فلذلك سُمِّيت: "جمعاً ."

وعن ابن عمر قال: "أهبط آدم بالصّفا، وحواء بالمروءة."

و عن جابر بن عبد الله، قال: "إن آدم لما أهبط إلى الأرض هبط بالهند، وإن رأسه كان ينال السماء، وإنّ الأرض شكت إلى ربها ثقَل آدم، فوضع الجبار تعالى يده على رأسه فانحطّ إلى سبعين ذراعاً. وهبط معه بالعجوة والأترنج والموز. فلما أُهبط، قال: ربّ، هذا العبد الذي جعلت بيني وبينه عداوة، إن لم تُعِنّي عليه لا أقوى عليه. قال: لا يُولد لك ولد إلاّ وكلت به ملَكاً. قال: ربّ زدني. قال :أُجازي السيئة بالسيئة وبالحسنة عشرة أمثالها إلى ما أزيد. قال:

ربّ زدني. قال: باب التوبة له مفتوح ما دام الروح في الجسد. قال إبليس: يا رب هذا العبد الذي أكرمته إن لم تُعنّي عليه لا أقوى عليه. قال: لا يُولد له ولد إلا وُلد لك ولد. قال: يا ربّ زدني. قال: تجري منه مجرى الدم، وتتّخذ في صدروهم بيوتاً. قال: ربّ زدني .قال : {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ."}

و عن عبد الله بن عمر، قال:"لما أَهبط الله آدم، أهبطه بأرض الهند ومعه غرس من شجر الجنة فغرسه بها، وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، وكان يسمع كلام الملائكة، فكان ذلك يهوّن عليه وحْدته. فغُمز غمزة فتطأطأ إلى سبعين ذراعاً. فأنزل الله أني منزل عليك بيتاً يُطاف حوله كما تطوف الملائكة حول عرشي، ويُصلّى عنده كما تصلِّي الملائكة حول عرشي. فأقبل نحو البيت، فكان موضع كل قدَم قرية، وما بين قدميْه مفازة، حتى قدم مكة. فدخل من باب الصفا، وطاف بالبيت وصلّى عنده، ثم خرج إلى الشام، فمات بها ."

وعن الحسن البصري، قال: "أُهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان من البصرة على أميال، وأُهبطت الحية بأصبهان ."

و عن عطاء بن أبي رياح، قال:"هبط آدم بأرض الهند ومعه أعواد أربعة من أعواد الجنة، وهي هذه التي تتطيّب بها الناس، وإنه حج هذا البيت على بقرة ."

وقال رجاء بن أبي سلمة:"أهبط آدم –عليه السلام– يداه على ركبتيه، مطأطئاً رأسه. وأهبط إبليس مشتبكاً بين أصابعه، رافعاً رأسه إلى السماء ."

وعن أبي موسى، قال:"إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، علّمه صنعة كلّ شيء، وزوّده من ثمار الجنة؛ فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أنّ هذه تتغيّر، وتلك لا تتغيّر ."

وروى مسلم في "صحيحه"، وغيره، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–خير يوم طلعت فيه الشمس :يوم الجمعة؛ فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها .((

و عن الحسن، قال: "قال موسى: يا رب، كيف يستطيع آدم أن يؤدِّيَ شُكر ما صنعتَ إليه؟ خلقْته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنّتك، وأمرتَ الملائكة فسجدوا له. فقال: يا موسى علِم أنّ ذلك مني، فحمدني عليه؛ فكان ذلك شكراً لِما صنعت إليه ."

وفي نزول آدم، وصورته، وبكائه، وما تعلّمه من الصناعات، وما كان معه من ثمار وآلات،

وما زرع، وفي حجّه البيت، وما حصل له بعد نزوله، روايات كثيرة أكثرها ضعيف أو من الإسرائيليات لا نطيل بذكْرها. وسوف نعرض لبعض منها إذا مررنا على آيات أخرى تتعلق بالقصة، تكون أكثر التصاقاً بها- والله الموفِّق.-

أقوال المفسّرين.

يقول الله تعالى، إخباراً عمّا أكرم به آدم، بعد أن أمَرَ الملائكة بالسجود له{ :فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ :}إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء رغداً، أي: هنيئاً واسعاً طيّباً .

وسياق الآية يقتضي: أنّ حواء خُلقت قبل دخول آدم إلى الجنة؛ وقد صرح بذلك: محمد بن إسحاق، حيث قال: "لما فرغ الله من معاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد علّمه الأسماء كلها، فقال{ :يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ }إلى قوله{ :إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .}قال: ثم أُلقيت السِّنة على آدم- فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره-. ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقِّه الأيسر، ولأَمَ مكانه لحماً -وآدم نائم لم يهبّ من نومه- حتى خلَق الله مِن ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كشف عنه السِّنة وهبّ من نومه، رآها إلى جنبه فقال -فيما يزعمون -والله أعلم-: لحمي ودمي وزوجتي، فسكن إليها. فلما زوّجه الله، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قِبلا{ :يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ."}

ويُقال: إنّ خلْق حواء كان بعد دخوله الجنة، كما قال السدي في خبره.

وأمّا قوله تعالى{ :وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، فهو اختبار من الله تعالى، وامتحان لآدم. وقد اختُلف في هذه الشجرة ما هي؟ على أقوال ستة، وقد تزيد.

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-: "والصواب في ذلك أن يُقال: إن الله- عز وجل ثناؤه- نهى آدمَ وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلا منها. ولا علْم عندنا بأيّ شجرة كانت على التّعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السُّنّة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البُر،

وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التّين، وجائز أن تكون واحدة منها. وذلك علْم إذا عُلم لم ينفع العالِم به علْمه، وإن جهله جاهل لم يضرّه جهله به –والله أعلم ."–
)وكذلك رجّح الإبهام: فخر الدين الرازي في تفسيره، وغيره؛ وهو الصّواب .(
وقوله تعالى{ :فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا }يصحّ أن يكون الضمير في قوله{ :عَنْهَا }عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام –كما قال عاصم بن بهدلة، وهو: ابن أبي النجود{ :–فَأَزَلَّهُمَا}، أي: فنحّاهما .ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو: الشجرة؛ فيكون معنى الكلام– كما قال الحسن وقتادة{ :–فَأَزَلَّهُمَا}، أي:من قِبل الزلل؛ فعلى هذا يكون تقدير الكلام{ :فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا}، أي: بسببها. كما قال{ :يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ}، أي: يُصرف بسببه من هو مأفوك .ولهذا قال تعالى{ :فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}، أي: من اللباس، والمنزل الرحب، والرزق الهنيء، والراحة.
فإن قلت:كيف توصّل إبليس إلى إزلالهما ووسوسته لهما بعدما قيل له{ :قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .}
قلت: يجوز أن يُمنع دخولها على جهة التقريب والتّكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة، ابتلاء لآدم وحواء.
وقيل: كان يدنو من السماء فيكلّمهما. وقيل: قام عند الباب فنادى .
وروي: أنه أراد الدخول فمنعتْه الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به، وهم لا يشعرون.
{وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ}،)أي :(قرار، وأرزاق، وآجال{ إِلَى حِينٍ}، أي: إلى وقت مؤقّت ومقدار معيّن، ثم تقوم القيامة .
وقد ذكر المفسِّرون من السلف، كالسدي بأسانيده، وأبي العالية، ووهب بن منبه، وغيرهم ها هنا، أخباراً إسرائيلية عن قصة الحيّة وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس (إلى) الجنة، ووسوسته، وسنبسط ذلك –إن شاء الله –في سورة (الأعراف)؛ فهناك القصة أبسط منها ها هنا –والله الموفِّق.–
قلت: ليس في الآية ذكر للحيّة حتى تكون مرادة في قوله{ :بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}؛ فالضمير راجع لمن ذُكر قبْل، وهم: آدم وزوجه وإبليس. وأمّا الحيّة فليست بالعدوّ الأوحد من الدواب لابن آدم، بل هناك ما هو أخطر منها، مع العلم بأن هناك حيّات يحصل التعايش

معها من بعض بني آدم، وبعضها غير سامّ لا يضر.

قال ابن كثير: "وقد أورد القرطبي ها هنا أحاديث في الحيّات وقتلهنّ، وبيان حُكم ذلك، فأجاد وأفاد."

قال فخر الدين الرازي: "اعلم: أن في هذه الآية تهديداً عظيماً عن كلّ المعاصي مِن وجوه : الأول:إنّ من تصوّر ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزّلّة الصغيرة، كان على وجَل شديد من المعاصي ."

قال الشاعر :

يا ناظراً يرنو بعينيْ راقدِ	ومُشاهِداً للأمِر غير مُشاهدِ
تصِل الذنوبَ إلى الذنوبِ وتَرتجي	درج الجنان ونُزل فوز العابدِ
أنسيتَ ربَك حين أخرج آدماً	منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ

قال ابن القاسم: "ولكنّنا سبْي العدو، فهل تُرى نعود إلى أوطاننا ونسلم؟ ."

قال الرازي عن فتح الموصلي: أنه قال: "كنا قوماً من أهل الجنة، فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلاّ الهم والحزن، حتى نُردّ إلى الدار التي أخرجنا منها ."

قال الآلوسي:"وكم أرّقتْ هذه القصة جفوناً، وأراقت من العيون عيوناً! فإن إبليس كان مدّة في دلال طاعته يختال في رداء مرافقته، ثم صار إلى ما ترى، وجرى ما به القلم جرى ."

وكنا وليلى في صعود من الهوى	فلما توافينا ثبتُّ وزلَّتِ

المعنى الإجمالي.

ذكر سبحانه أنه امتنّ على آدم بإحلاله له ولزوجه حواء التي خلَقها منه، وله سكنى الجنة؛ وكانت مواصفاتها مختلفة عن جنات النعيم التي أعدّها الله جزاء في الآخرة، وأن يُأكلا منها أكلاً رغداً هنيئاً، لا تعَب فيه ولا مشقة، من حيث شاءا، إلاّ من شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها ابتلاءً واختباراً؛ وأخبرهما إنْ أكلا منها كانا ظالميْن مفرطين قد عصيَا ربَّهما.

فتحايل الشيطان لعنه الله حتى تمكّن من الوسوسة لهما، وأوقعهما في الخطإ والزلل بإغرائهما بالأكل من هذه الشجرة؛ فكان ذلك سببا في خروجهما من الجنة وما كانا فيه من النعيم.

وقضى الله تعالى عليهما وعلى إبليس بالهبوط إلى الأرض، يستقرون فيها وينتفعون بمتاعها، مع بقاء العداء بينهم إلى أن يأذن الله بالقيامة في وقت علْمُه عنده سبحانه.

من مسائل الآية.

اختُلف في الجنّة التي أسكنها آدم: أهي في السماء أم في الأرض؟ فالأكثرون على الأوّل، (وحكى القرطبي عن المعتزلة والقدَرية القول بأنها في الأرض.(

فإن قيل :فإذا كانت جنة آدم التي أُسكنها في السماء- كما يقوله الجمهور من العلماء-، فكيف تمكّن إبليس من دخول الجنة، وقد طُرِد من هنالك طرداً قدرياً، والقدريّ لا يخالَف ولا يُمانَع؟

فالجواب :إنّ هذا بعينه استدلّ به مَن يقول: إنّ الجنة التي كان فيها آدم في الأرض، لا في السماء.

وأجاب الجمهور بأجوبة :

أحدها: أنه مُنع من دخول الجنة مكرَّماً، فأمّا على وجه السرقة والإهانة، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم، كما جاء في التوراة: إنه دخل في فم الحية إلى الجنة. وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما، وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما في الأرض، وهما في السماء؛ ذكرها الزمخشري وغيره.

والجنة في المشهور: دار الثواب للمؤمنين يوم القيامة، لأنها المتبادرة عند الإطلاق، ولسبق ذكرها في السورة، وفي ظواهر الآثار ما يدل عليه، ومنها ما في الصحيح مِن محاجّة آدم وموسى -عليهما السلام-؛ فهي إذاً في السماء، حيث شاء الله تعالى منها .

وقال المخالِفون :لا نزاع في أنه تعالى خلّق آدم في الأرض، ولم يذكر في القصة أنه نقَلَه إلى السماء، ولو كان نقله إليها لكان أوْلى بالذِّكر، ولأنه سبحانه قال في شأن تلك الجنّة وأهلها{:لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً } إلا قِيلاً سَلاماً سَلاماً}، و{لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ}،{ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ}، وقد لغا إبليس فيها وكذب، وأخرج منها آدم وحواء مع إدخالهما فيها على وجه السكنى لا كإدخال النبي-صلى الله تعالى عليه وسلم- ليلة المعراج، ولأن جنّة الخلد دار للنعيم وراحة وليست بدار تكليف، وقد كلّف آدم أن لا يأكل من

الشجرة، ولأن إبليس كان من الكافرين وقد دخلها للوسوسة؛ ولو كانت دار الخلد ما دخلها ولا كاد، ولأنها محل تطهير، فكيف يحسن أن يقع فيها العصيان والمخالفة ويحلّ بها غير المطهَّرين؟

قلت: وهناك استشكالات أخرى كثيرة، منها :وصفها في موضع الامتنان بأمر ضيئل، وهو قوله تعالى{ :إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى .}

ومنها: أنّ النصوص ذكرت أن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأن فيها قصوراً وأنهاراً وحوراً عيناً، وغير ذلك...

قال الآلوسي: "والتزام الجواب عن ذلك كلِّه لا يخلو عن تكلّف والتزام ما لا يلزم. وقيل: كانت في السماء وليست دار الثواب، بل هي جنة الخلد. وقيل: كانت غيرهما. ويردّ ذلك : أنه لم يصحّ أن في السماء بساتين غير بساتين الجنة المعروفة. واحتمال أنها خلقت إذ ذاك، ثم اضمحلت، ممّا لا يُقدم عليه منصف. وقيل: الكل مُمكن، والله تعالى على ما يشاء قدير. والأدلة متعارضة؛ فالأحوط والأسلم هو: الكف عن تعيينها والقطع به."

قلت: لا يُمتنع أن تكون أصل الجنة، ثم أنشأ الله فيها ما أنشأ، وغيّر فيها ما غيّر، وزيّنها لعباده المؤمنين؛ وذلك كلّه بعد خروج آدم منها، فتلتئم النصوص جميعها –وبالله التوفيق.– وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأسئلة :

١. قرأ حمزة فأزالهما من الإزالة وهي التنحية والصرف عما كانا فيه من النعيم والكرامة ويكون الضمير في عنها للجنة (صح) .

٢. قراءة الجمهور (فأزلهما) من الزلل وهو الخطأ أي أوقعهما في الزلة ويكون الضمير في عنها للشجرة أي فحملهما الشيطان على الزلة بسببها (صح) .

٣. قراءة الجمهور (فأزلهما) من زل عن المكان إذا تنحى عنه فيتحد المعنى ويكون الضمير للجنة والمعنى فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما (صح) .

٤. (اسكن) من السكون وهو ضد الحركة (صح) .

٥. (أنت) ضمير منفصل للتأكيد حتى يصح العطف عليه (صح) .

٦. (رغداً) اسم لطعام الجنة ومتاعها (خطأ) .

٧. الإباء هو عدم القدرة على فعل الشيء (خطأ) .

٨. التكبر أن يرى الشخص نفسه أكبر من غيره فيمتنع عن طاعته (صح) .

٩. المتاع : المتاع الحقير اليسير المنقطع (خطأ) .

١٠. الحين مقدار من الزمان قصيرا أو طويلا والمراد هنا إلى وقت الموت وهو القيامة الصغرى ولا يصح أن يكون إلى قوت القيامة الكبرى لأن الحياة في القبر ليس من هذا التمتع (خطأ)

١١. ثبتت الأحاديث في أن آدم عليه السلام كان نبياً ولم يكن رسولاً (صح) .

١٢. ورد في حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن عدد الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وأن عدد الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر (صح) .

١٣. خلقت حواء من ضلع آدم وسميت بذلك لأنها أم كل حي (صح) .

١٤. اختلف في نوع الشجرة التي نهي عنها آدم وليس هناك شيء يصح عن النبي ﷺ وليس هو من مسائل العلم المهمة بل هو من العلم الذي لا ينفع صاحبه ولا يضر جهله (صح) .

١٥. الصحيح أن الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها هي شجرة السدر (خطأ) .

١٦. ثبت الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال : « استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء من الضلع رأسه » .(صح) .

١٧. دخل إبليس الجنة بعد خروجه منها في فم الحية وكانت مثل الجمل فمسخها الله تعالى (صح) .

١٨. كانت عورة آدم مستورة لا تظهر فلما أكل من الشجرة ظهرت (صح) .

١٩. المقصود بقوله (اهبطوا) آدم وحواء فقط بدليل قوله في آية طه (اهبطا) فعبر هنا بلفظ الجمع عن الاثنين وهو أقل الجمع (خطأ) .

٢٠. الصحيح أن آدم أهبط إلى الأرض يوم الجمعة (صح) .

٢١. الظاهر أن حوار خلقت دخول آدم الجنة (صح) .

٢٢. أكثر ما ورد في نزول آدم وصورته وبكائه وما تعلمه من الصناعات وما كان معه من ثمار وآلات وما زرع وما حصل له بعد نزوله ضعيف أو من الإسرائيليات (صح) .

٢٣. الضمير في كلمة (عنها) في قوله (فأزلهما الشيطان عنها) أي : عن الجنة ، ولا يجوز أن يكون عن الشجرة (خطأ) .

٢٤. الأرجح عدم الخوض في كيفية إزلال إبليس لهما بعد خروجه من الجنة ، بل نسلم لما ذكر الله ونؤمن به (صح) .

٢٥. هذه الآيات فيها تهديد وتخويف لأهل المعاصي وأن العبد لا يمكن أن يأمن على نفسه مهما وصل إليه من مرتبة وإيمان بل يسأل الله دائماً الثبات (صح) .

٢٦. الجنة التي أسكن الله آدم فيها لها مواصفات مختلفة عن جنات النعيم التي أعدها الله لأهل الإيمان في الآخرة (صح) .

٢٧. النهي عن الأكل من الشجرة مع أنه في الجنة من باب الاختبار والامتحان والله يفعل ما يشاء فلو أراد أن يمتحن أهل الجنة بشيء لفعل (صح) .

٢٨. الآيات فيها التحذير من عداوة إبليس لبني آدم وأن يحذروا من استدراجه وإغوائه (صح)

٢٩. اختلف العلماء في الجنة التي سكنها آدم هل هي جنة الخلد أم هي جنة في الأرض وأدلة القولين قوية متعارضة ، والأسلم الكف عن الخوض في هذا (صح) .

٣٠. الصحيح أن الجنة الذي أسكنها آدم كانت غير جنة الخلد (خطأ) .

المحاضرة الثانية والعشرون

***

تفسير الآيات من (٣٧) إلى (٣٩) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .}

القراءات :

قرأ الجمهور{ :فَتَلَقَّى آدَمُ- }بالرفع{ -مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ- }بالنصب-، والمراد بتلقي الكلمات: استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها؛ فهو مستعار مِن: استقبال الناس بعض الأحبة إذا قدم بعد طول الغيبة، لأنهم لا يدَعون شيئاً من الإكرام إلاّ فعلوه. وإكرام الكلمات الواردة من الله: الأخذُ، والقبول، والعمل بها. وفي التعبير بالتلقي :إيماء إلى أنّ آدم -عليه السلام- كان في ذلك الوقت في مقام البُعد.

وقرأ ابن كثير بنصب{ آدَمَ }ورفع{ كَلِمَاتٌ}، على معنى :استقبلتْه هي، فكأنها مُكرِمة له لكونها سبب العفو عنه، أو بمعنى: بلغتْه واتّصلت به.

وهناك قراءات أخرى لا تتعلّق بالمعنى.

المناسبة :

مازلنا في قصة آدم -عليه السلام.-

لغويّات.

الآية في الأصل :العلامة الظاهرة، بالقياس إلى ذي العلامة، ومنه: آية القرآن، لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي بعْدها والذي قبْلها، أو لأنها علامة على معناها وأحكامها. وقيل:

سُمِّيت: "آية"، لأن الآية تُطلق على الجماعة أيضاً، كما قال أبو عمرو: "يقال: خرج القوم بآيتهم، أي :بجماعتهم. وهي جماعة من القرآن وطائفة من الحروف". وذكر بعضهم: أنها سُمِّيت بذلك، لأنها عجب يُتعجَّب مِن إعجازه، كما يقال: فلان آية من الآيات.

وفي أصلها ووزنها أقوال .

{أَصْحَابُ :}جمْع: صاحب ، وجمع" فاعل" على "أَفْعَال" شاذّ. ومعنى الصحبة: الاقتران بالشيء، والغالب في العُرف أن تطلق على الملازمة.

الآثار.

أخرج ابن أبي حاتم، عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم)) :–قال آدم– عليه السلام–: أرأيت يا ربّ إن تبْتُ ورجعتُ، أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ.((}

قال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع .

وأخرج الطبراني في "المعجم الصغير"، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي في "الدلائل"، وابن عساكر، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–لما أذنب آدم بالذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسألك بحقِّ محمد إلاّ غفرتَ لي. فأوحى الله إليه: ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك، لما خلقْتَني رفعتُ رأسي إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب: "لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله"، فعلمتُ أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممّن جعلت اسمه مع اسمك. فأوحى الله إليه: يا آدم إنه آخِر النّبيّين مِن ذُرّيتك، ولولا هو ما خلقْتك .((

وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن عساكر –قال السيوطي :بسند ضعيف–، عن عائشة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال)) :لما أُهبط الله آدم إلى الأرض، قام وجاء الكعبة فصلّى ركعتيْن، فألهمه الله هذا الدعاء: "اللهم إنك تعلم سرِّي وعلانيتي، فاقبل معذرتي .وتعلم حاجتي، فأعطني سؤلي. وتعلم ما في نفسي، فاغفر لي ذنبي. اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً، حتى أعلم أنه لا يصيبني إلاّ ما كتبتَ لي، وأرضني بما قسمتَ لي". فأوحى الله إليه: يا آدم، قد قبلتُ توبتَك، وغفرت ذنبك. ولن يدْعوَني أحد بهذا الدعاء إلاّ غفرتُ

له ذنبه، وكفيتُه المهمّ مِن أمْره، وزجرت عنه الشيطان، واتّجرتُ له من وراء كل تاجر، وأقبلتْ إليه الدنيا راغمة وإن لمْ يُردْها.((

وروي موقوفاً.

وأخرج الأزرقي في "تاريخ مكة"، والطبراني في "الأوسط"، والبيهقي في "الدعوات"، وابن عساكر –قال السيوطي: بسند لا بأس به–، عن بريدة، مرفوعاً نحوه.

قلت: بل إسناده ضعيف جداً، هو وما سبقه وما يأتي، ولا يثبت شيء من ذلك؛ بل بعضها موضوع. وإنما نذكرها هنا للتحذير منها وعدم الاغترار بها.

وأخرج الديلمي في "مسند الفردوس– "قال السيوطي: بسند واه–، عن علي، قال: سألت النبي –صلى الله عليه وسلم– عن قول الله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}، فقال)) :إنّ الله أهبط آدم بالهند، وحوّاء بجدّة، وإبليس ببيسان، والحيّة بأصبهان. وكان للحية قوائم كقوائم البعير. ومكث آدم بالهند مائة سنة باكياً على خطيئته، حتى بعث الله إليه جبريل، وقال: يا آدم ألم أخلُقك بيدي؟ ألم أنفخ فيك من روحي؟ ألم أُسجد لك ملائكتي؟ ألم أزوِّجك حواء أمَتي؟ قال: بلى. قال: فما هذا البكاء؟ قال: وما يمنعني من البكاء، وقد أُخرجت من جوار الرحمن؟ قال: فعليك بهؤلاء الكلمات، فإن الله قابلٌ توبتك وغافر ذنبك. قل" :اللهم إني أسألك بحقّ محمد وآل محمد، سبحانك لا إله إلا أنت. عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم. اللهم إني أسألك بحقّ محمد وآل محمد، سبحانك لا إله إلا أنت. عملت سوءاً وظلمت نفسي، فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم". فهؤلاء الكلمات التي تلقّى آدم .((

وأخرج ابن النجار، عن ابن عباس، قال: سألت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، قال)) :سأل بحقّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، إلاّ تُبتَ عليّ؛ فتاب عليه.((

وأخرج الخطيب في "أماليه"، وابن عساكر –قال السيوطي: بسند فيه مجاهيل–، عن ابن مسعود، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال)) :إنّ آدم لما أكل مِن الشجرة، أوحى الله إليه: اهبطْ مِن جواري. وعزّتي! لا يجاورني مَن عصاني. فهبط إلى الأرض مسوداً، فبكت الأرض وضجّت. فأوحى الله: يا آدم صم لي اليوم: يوم ثلاثة عشر .فصامه، فأصبح ثلثه

أبيض. ثم أوحى الله إليه: صم لي هذا اليوم: يوم أربعة عشر. فصامه، فأصبح ثلثاه أبيض. ثم أوحى الله إليه: صم لي هذا اليوم: يوم خمسة عشر. فصامه، فأصبح كله أبيض. فسُمِّيتْ أيام البيض .((

وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان"، وابن عساكر، عن أنس، في قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال)) :سبحانك اللهم وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين. لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك .عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين .لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك. عملت سوءاً وظلمت نفسي، فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم .((وذكر أنه عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولكن شكّ فيه .

انتهت الروايات المرفوعة، ولا يصحّ منها شيء.

و عن ابن عباس، في قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال قوله{" :رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ."}

وعن محمد بن كعب القرظي، في قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: "هو قوله : {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا}، ولو سكت الله عنها، لتفحّص رجال حتى يعلموا ما هي ."

و عن مجاهد، في قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال:"هو قوله{ :رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ."}

وعن أبي العالية، في قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: "إنّ آدم لما أصاب الخطيئة، قال: يا رب! أرأيت إن تبتُ وأصلحتُ؟ قال الله: إذاً أُرجعك إلى الجنة؛ فهي مِن الكلمات. ومن الكلمات أيضاً{ :رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ."}

و عن قتادة، في قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: "ذكر لنا: أنه قال: يا رب! أرأيت إن تبتُ وأصلحتُ؟ قال: فإني إذاً أُرجعك إلى الجنة{ .قالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .}فاستغفر آدم ربه وتاب إليه، فتاب عليه. وأمّا عدو الله إبليس، فوالله ما تنصّل من ذنبه، ولا سأل التوبة حين وقع بما وقع به، ولكنه سأل النَظِرة إلى يوم الدِّين، فأعطى الله كلّ واحد منهما ما سأل."

روي مثله عن سعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبد

الرحمن بن زيد بن أسلم، و الحسن، والضحاك.

وعن ابن عباس،{ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: "قال آدم –عليه السلام–: يا رب! ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى. ونفختَ فيَّ من روحك؟ قيل له: بلى. وعطستُ فقلتَ: يرحمك الله، وسبقتْ رحمتُك غضبَك؟ قيل: بلى. وكتبتَ عليّ أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفرأيتَ إن تبتُ! هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم ."

وكذا رواه غير واحد، عن ابن عباس بنحوه .

وهكذا فسّره السّدّي، وعطية العوفي .

وعن عبيد بن عمير: أنه قال: "قال آدم: يا ربّ خطيئتي التي أخطأتُ شيء كتبتَه عليّ قبل أن تخلقني؟ أو شيء ابتدعتُه من قِبَل نفسي؟ قال: بل كتبتُه عليك قبل أن أخلقك. قال : فكما كتبتَه عليَّ فاغفرْه لي. قال: فذلك قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْه ."}

وعن مجاهد: أنه كان يقول في قول الله تعالى{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: "الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك. رب إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنك خير الغافرين. اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك. رب إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك. رب إني ظلمتُ نفسي، فتبْ عليّ، إنك أنت التواب الرحيم ."

وعن ابن إسحق التميمي، قال: قلت لابن عباس: ما الكلمات التي تلقّى آدمُ من ربِّه؟ قال: عُلِّم شأن الحجّ؛ فهي الكلمات ."

و عن عبد الله بن زيد، في قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: "لا إله إلاّ أنت، سبحانك وبحمدك. ربِّ عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك أنت خير الغافرين. لا إله إلاّ أنت، سبحانك وبحمدك. ربّ عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فارحمني، إنك أنت أرحم الراحمين. لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك .ربّ عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فتب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم ."

وعن سعيد بن جبير، قال: "لما أصاب آدم الخطيئة، فزع إلى كلمة الإخلاص، فقال: لا إله إلاّ أنت، سبحانك وبحمدك. ربّ عملت سوءاً وظلمت نفسي، فتب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم ."

و عن ابن عباس: "إن آدم –عليه السلام– طلب التوبة مائتيْ سَنة، حتى آتاه الله الكلمات ولقّنه إياها. قال :بينا آدم –عليه السلام– جالس يبكي، واضع راحته على جبينه، إذ أتاه جبريل فسلّم عليه. فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه. فقال له: يا آدم ما هذه البليّة التي أَجْحف بك بلاؤها وشقاؤها؟ وما هذا البكاء؟ قال: يا جبريل، وكيف لا أبكي وقد حوّلني ربي من ملكوت السموات إلى هوان الأرض؟ ومن دار المقام إلى دار الظعن والزوال؟ ومن دار النعمة إلى دار البؤس والشقاء؟ ومن دار الخلد إلى دار الفناء؟ كيف أحصي يا جبريل هذه المصيبة؟ فانطلق جبريل إلى ربه فأخبره بمقالة آدم. فقال الله –عز وجل–: انطلق يا جبريل إلى آدم، فقل: يا آدم ألم أخلقْك بيدي؟ قال :بلى يا رب. قال: ألم أنفخ فيك من روحي؟ قال بلى يا رب. قال: ألم أُسجِد لك ملائكتي؟ قال: بلى يا رب. قال ألم أسكنك جنّتي؟ قال بلى يا رب. قال ألم آمرك فعصيتَني؟ قال بلى يا رب. قال: وعزّتي وجلالي، وارتفاعي في علوّ مكاني، لو أنّ ملء الأرض رجالاً مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، غير أنه يا آدم قد سبقت رحمتي غضبي، قد سمعت صوتك وتضرّعك، ورحمتُ بكاءك، وأقلتُ عثرتك. فقل: لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً وظلمتُ نفسي، فارحمني إنك أنت خير الراحمين. لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك. عملتُ سوءاً وظلمت نفسي، فتُب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم. فذلك قوله{ :فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ }... الآية ."

وعن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب، قال: "لما أصاب آدم الخطيئة، عظُم كرْبه واشتدّ ندمه، فجاءه جبريل، فقال: يا آدم، هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى يا جبريل .قال: قمْ في مقامك الذي تناجي فيه ربك، فمجِّده وامدحه، فليس شيء أحبّ إلى الله من المدح. قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير كلّه، وهو على كل شيء قدير .

ثم تبوء بخطيئتك، فتقول: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلاّ أنت. رب إني ظلمت نفسي وعملت السوء، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت الله. إني أسألك بجاه محمد عبدك، وكرامته عليك، أن تغفر لي خطيئتي. قال: ففعل آدم، فقال الله: يا آدم مَن علّمك هذا؟

فقال: يا رب، إنك لما نفخت فيّ الروح فقمت بشراً سوياً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر، رأيتُ على ساق عرشك مكتوباً: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله. فلما لم أر إثْر اسمك اسمَ ملَك مقرّب ولا نبيّ مرسَل غير اسمه، علمتُ أنه أكرم خلْقك عليك. قال: صدقْت. وقد تبتُ عليك وغفرت لك خطيئتك. قال: فحمد آدمُ ربّه وشكره، وانصرف بأعظم سرور، لم ينصرف به عبد من عند ربه. وكان لباس آدم النور. قال الله{ :يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا}، أي: ثياب النور، قال: فجاءته الملائكة أفواجاً تُهنّئه، يقولون: لتهْنِك توبة الله، يا أبا محمد ."

وعن أبي برزة الأسلمي، قال: "إنّ آدم لما طُوطِئ منع كلام الملائكة –وكان يستأنس بكلامهم .–بكى على الجنة مائة سنة، فقال الله –عز وجل– له: يا آدم ما يحزنك؟ قال: كيف لا أحزن، وقد أهبطتَني من الجنة ولا أدري أعود إليها أم لا؟ فقال الله تعالى: يا آدم، قل :اللهم لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، سبحانك وبحمدك .رب إني عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك أنت خير الغافرين. والثانية: اللهم لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، سبحانك وبحمدك. رب إني عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك أنت أرحم الراحمين. والثالثة: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، لا شريك لك. رب عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك أنت التواب الرحيم. فهي الكلمات التي أنزل الله على محمد –صلى الله عليه وسلم { :–فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، قال: وهي لِولَده مِن بعْده. وقال آدم لابن له، يقال له: "هبة الله"، ويسميه أهل التوراة وأهل الإنجيل: "شيث": تعبّد لربك وأسأله أيردّني إلى الجنة أم لا؟ فتعبّد الله وسأل. فأوحى الله إليه: إني رادّه إلى الجنة، فقال: أي رب! إني لست آمن إنْ أبي سيسألني العلامة. فألقى الله سواراً من أسورة الحُور .فلمّا أتاه، قال: ما وراءك؟ قال: أبشرْ. قال: أخبرَني أنه رادّك إلى الجنّه، قال: فلما سألته العلامة، فأخرج السوار. فرآه فعرفه، فخرّ ساجداً، فبكى حتى سال من عينيه نهر من دموع، وآثاره تعرف بالهند. وذكر أنّ كنز الذهب بالهند ممّا ينبت من ذلك السِّوار. ثم قال: استطعِم لي ربك من ثمر الجنة. فلما خرج من عنده، مات آدم. فجاءه جبريل، فقال: إلى أين؟ قال: إنّ أبي أرسلني أن أطلب إلى ربي أن يطعمه من ثمر الجنة. قال: فإن ربّه قضى أن لا يأكل منها شيئاً حتى يعود إليها، وإنه قد مات. فارجعْ

فواره. فأخذه جبريل –عليه السلام–، فغسّله وكفّنه وحنّطه وصلّى عليه. ثم قال جبريل: هكذا فاصنعوا بموتاكم."

وعن ابن عباس، قال: "كان لآدم بنون: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. فكان أكبرهم يغوث، فقال له: يا بنيّ، انطلق! فإن لقيت أحداً من الملائكة فأْمره يجيئني بطعام من الجنة وشراب من شرابها. فانطلق، فلقي جبريل بالكعبة، فسأله عن ذلك .قال: ارجع، فإن أباك يموت. فرجعا فوجداه يجود بنفسه .فوليه جبريل، فجاءه بكفن وحنوط وسدر، ثم قال: يا بني آدم أترون ما أصنع بأبيكم، فاصنعوه بموتاكم. فغسّلوه وكفّنوه وحنّطوه، ثم حملوه إلى الكعبة، فكبّر عليه أربعاً، ووضعوه ممّا يلي القبلة عند القبور، ودفنوه في مسجد الخيف."

وأخرج ابن سعد، والحاكم، وابن مردويه، عن أبيّ بن كعب، مرفوعاً، نحوه مع زيادات.

وأخرجه ابن أبي شيبة، عن أبيّ، موقوفاً .

وعن عبد الله بن أبي فراس، قال: "قُبر آدم في مغارة، فيما بين بيت المقدس ومسجد إبراهيم، ورجلاه عند الصخرة، ورأسه عند مسجد إبراهيم، وبينهما ثمانية عشر ميلاً."

و عن الزهري، والشعبي، قالا: "لما هبط آدم من الجنة، وانتشر ولده، أرّخ بنوه من هبوط آدم؛ فكان ذلك التاريخ حتى بعث الله نوحاً. فأرّخوا ببعث نوح حتى كان الغرق، فكان التاريخ من الطوفان إلى نار إبراهيم. فأرّخ بنو اسحق من نار إبراهيم إلى بعث يوسف، ومن بعث يوسف إلى مبعث موسى، ومن مبعث موسى إلى ملك سليمان، ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى، ومن مبعث عيسى إلى مبعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. وأرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم إلى بناء البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل؛ فكان التاريخ من بناء البيت حتى تفرّقت معد. فكان كلّما خرج قوم من تهامة أرّخوا مخرجهم، حتى مات كعب بن لؤي .فأرّخوا من موته إلى الفيل، فكان التاريخ من الفيل حتى أرّخ عمر بن الخطاب من الهجرة، وذلك سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة."

وهناك آثار كثيرة تتعلّق بآدم –عليه السلام– بعد هبوطه، فيها بعض الأذكار التي علّمه الله إيّاها وبعض الحِكم، وأنه كان يشرب من السحاب. وهو أوّل مَن ضرب الدينار والدرهم، وفي وفاته ودفنه وغير ذلك... تُراجع في محلها.

قوله تعالى{ :قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ }...الآية.

عن أبي العالية في قوله{ :قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ}، قال: "الهدى الأنبياء والرسل والبيان ."

وقال مقاتل بن حيان: "الهدى: محمد –صلى الله عليه وسلم –."

وقال الحسن: "الهدى: القرآن."

قال ابن كثير: "وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعمّ ."

و عن قتادة، في قوله{ :فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ }...الآية، قال: "ما زال لله في الأرض أولياء، منذ هبط آدم؛ ما أخلى الأرض لإبليس إلاّ وفيها أولياء له يعملون لله بطاعته ."

وأخرج ابن الأنباري في "المصاحف"، عن أبي الطفيل، قال" :قرأ رسول الله –صلى الله عليه وسلم{ :–فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ }بتثقيل الياء وفتحها ."

و عن سعيد بن جبير في قوله{ :فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، يعني: في الآخرة،{ وَلا هُمْ يَحْزَنُون}، يعني: لا يحزنون للموت ."

وعن قتادة، قال: "لما هبط إبليس، قال: أي ربّ! قد لعنته، فما علمه؟ قال: السِّحر. قال فما قراءته؟ قال: الشِّعر .قال: فما كتابه؟ قال: الوشم. قال: فما طعامه؟ قال: كل ميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. قال: فما شرابه؟ قال :كلّ مُسكر. قال: فأين مسكنه؟ قال: الحمام. قال: فأين مجلسه؟ قال: الأسواق. قال: فما صوته؟ قال: المزمار .قال: فما مصائده؟ قال النساء ."

وأخرج أبو نعيم في "الحلية"، عن ابن عباس، قال: قال رسول –صلى الله عليه وسلم :–))قال: إبليس لربه تعالى: يا رب !قد أهبط آدم، وقد علمت أنه سيكون كتاب ورسل، فما كتابهم ورسلهم؟ قال: رسلهم: الملائكة والنبيون، وكتبهم :التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان. قال: فما كتابي؟ قال: كتابك: الوشم، وقراءتك: الشعر، ورسلك :الكهنة، وطعامك:ما لم يُذكر اسم الله عليه، وشرابك:كلّ مُسكر، وصدقك: الكذب، وبيتك: الحمام، ومصائدك: النساء، ومؤذِّنك: المزمار، ومسجدك: الأسواق.((

أقوال المفسّرين.

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.}

قيل: إنّ هذه الكلمات مفسَّرة بقوله تعالى{ :قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.}

وقيل غير ذلك، حسب ما ورد في الآثار.

وقوله تعالى{ :إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله : {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}، وقوله{ :وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً}، وقوله{ :وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً}، وغير ذلك من الآيات الدّالّة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على مَن يتوب؛ وهذا مِن لطْفه بخلْقه، ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم .

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً }...الآية.

يقول تعالى، مُخبِراً عمّا أنذر به آدم وزوجتَه وإبليس، حين أهبطهم من الجنة –والمراد: الذّرّيّة– : أنه سيُنزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل.

{فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ }أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل،{ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، أي: فيما يستقبلون مِن أمْر الآخرة،{ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه{ :قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى}، قال ابن عباس: "فلا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة{ ."وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}، كما قال ها هنا{ :وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، أي: مُخلَّدون فيها، لا محيد لهم عنها ولا محيص ."

وقد أورد ابن جرير –رحمه الله–، ها هنا حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–أمّا أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيَوْن، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم، فأماتتْهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً، أذِن في الشفاعة .((وقد رواه مسلم.

قال الآلوسي:"الخوف: الفزع في المستقبل، والحزن: ضدّ السرور، مأخوذ من: الحَزن، وهو ما غلظ من الأرض، فكأنه ما غلظ من الهمّ، ولا يكون إلاّ في الأمر الماضي على المشهور."

وقيل: "إنه والخوف كلاهما في المستقبل، لكن الخوف :استشعارهم لفقْد مطلوب، والحزن: استشعار غمّ لفوْت محبوب .وجُعل هنا نفي الخوف كناية عن نفي العقاب، ونفي الحزن كناية عن نفي الثواب؛ وهي أبلغ من الصريح وآكد، لأنها كدعوى الشيء ببيّنة. والمعنى: لا خوف عليه مفضلاً عن أن يحلّ بهم مكروه، ولا همّ يُفوّت عنهم محبوباً فيحزنوا عليه؛ فالمنفيّ عن الأولياء: خوف حلول المكروه والحزن في الآخرة. وفيه إشارة إلى أنه يُدخلهم الجنة التي هي دار السرور والأمن لا خوف فيها ولا حزن، وحينئذ يظهر التقابل بين الصِّنفيْن في الآيتيْن."

قال: "والمتبادر مِن الكفر: الكفر بالله تعالى؛ ويحتمل أن يكون كفرُوا وكذّبُوا متوجّهيْن إلى الجار والمجرور؛ فيراد بالكفر بالآيات: إنكارها بالقلب، وبالتكذيب: إنكارها باللسان."

"وذكر هذا الإهباط الثاني، لِما تعلق به بعْده من المعنى المغاير للأوّل. وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كمّا يقول: قم! قم! وقال آخرون: بل الإهباط الأوّل من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض. والصحيح: الأول -والله أعلم."-

وقال الآلوسي: "كُرّر للتأكيد أو كُرّر ليتعلّق عليه معنى آخر غير الأوّل؛ إذ ذكر إهباطهم أولاً للتعادي وعدم الخلود، والأمر فيه تكوينيّ، وثانياً: ليهتدي من يهتدي، ويضلّ من يضلّ، والأمر فيه تكليفيّ؛ ويُسمى هذا الأسلوب في البديع: الترديد."

ويحتمل على بعد، أن تكون فائدة التكرار: التنبيه على أنه تعالى هو الذي أراد ذلك، ولولا إرادته لما كان ما كان، ولذلك أَسند الإهباط إلى نفسه مجرّداً عن التعليق بالسبب، بعد إسناد إخراجهما إلى الشيطان؛ فهو قريب من قوله -عز شأنه{ :-وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى.}

المعنى الإجمالي.

يذكر سبحانه إنعامه على آدم، حيث علّمه كلمات أوحاها إليه، يستغفر بها من ذنبه، ويتوب بها إلى ربّه، ومن ذلك قوله{ :رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

الْخَاسِرِينَ .}فقال هذه الكلمات، فتاب الله عليه وتجاوز عنه، فغفر له زلّته. ثم أمَره بالهبوط إلى الأرض، مؤكِّداً لأمره السابق الذي لم ترفعه التوبة، لأنه أراد ذلك قدَراً، وأعلَمه بأنه سبحانه سوف يُرسل رسلاً ويُنزل كتباً فيها هداية منه تعالى؛ فمن اتّبعها يكون من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم في هذه الدار أن يفارقوها، ولا يعتريهم الحزن على ما تركوا من الدنيا. وأمّا الذين كفروا بالله وكذّبوا رسله وما جاؤوا به، فمأواهم النار لا يفارقونها أبداً ولا يخرجون منها.

مسائل الآيات.

الأولى :

التوبة :أصلها الرّجوع، وإذا أُسندت إلى العبد كانت عبارة عن مجموع أمور ثلاثة :

علْم: وهو: معرفة ضرر الذنب، وكونه حجاباً عن كل محبوب.

وحال :يُثمره ذلك العلْم، وهو: تألّم القلب بسبب فوات المحبوب، ونسمِّيه: ندماً.

وعمل :يُثمره الحال، وهو :التّرك والتّدارك، والعزم على عدم العود .

وكثيراً ما تُطلق على النّدم وحْده، لكونه لازماً للعلْم، مُستلزِماً للعمل؛ وفي الحديث)) :الندم توبة .((

وطريق تحصيلها: تكميل الإيمان بأحوال الآخرة، وضرر المعاصي فيها .

وأمّا إذا أُسنِدت إليه سبحانه، كانت عبارة عن: قبول التوبة، والعفو عن الذنب، ونحوه... أو التوفيق لها، والتيسير لأسبابها بما يُظهر للتائبين من آياته، ويُطلعهم عليه مِن تخويفاته، حتى يستشعروا الخوف فيرجعوا إليه.

وترجع في الآخرة إلى معنى التفضّل والعطف، ولهذا عُدّيت بـ"على."

ولم يقُل –جل شأنه–: "فتاب عليهما"، لأن النساء تبَع، يغني عنهنّ ذكر المتبوع، ولذا طوى ذكْرهن في كثير من الكتاب والسُّنّة.

الثانية:

قيل في ذكْر{ الرَّحِيم }بعد قوله{ :التواب :}إشارة إلى أنّ قبول التوبة ليس على سبيل الوجوب –كما زعمت المعتزلة–، بل على سبيل التّرحّم والتّفضّل، وأنّه الذي سبقت رحمته

غضبه.

الثالثة:

إن قلتَ: لِمَ جيء بكلمة الشّكّ في قوله{ :فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً}، وإتيان الهدى كائن لا محالة لوجوبه؟

قلتُ: للإيذان بأنّ الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثه الرسل وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً، كان الإيمان به وتوحيده واجباً، لِما رَكَّب فيهم من العقول، ونصَب لهم من الأدلّة، ومكَّنهم مِن النّظر والاستدلال.

الرابعة:

إن قلتَ: الخطيئة التي أهبط بها آدم: إن كانت كبيرة، فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلِمَ جرى عليه ما جرى بسببها من نزْع اللباس، والإخراج من الجنة، والإهباط من السماء، كما فعل بإبليس ونسبته إلى الغيّ، والعصيان، ونسيان العهد، وعدم العزيمة، والحاجة إلى التوبة؟

قلتُ: ما كانت إلاّ صغيرة مغمورة بأعمال قلبه مِن الإخلاص، والأفكار الصالحة التي هي أجلّ الأعمال، وأعظم الطاعات، وإنّما جرى عليه ما جرى، تعظيماً للخطيئة، وتفظيعاً لشأنها وتهويلاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذُرّيّته في اجتناب الخطايا، واتّقاء المآثم، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة، فكيف يدخلها ذو خطايا جمّة؟

هكذا أجاب الزمخشري. ويمكن أن يُقال: هذا التفصيل بين الصغيرة والكبيرة تفصيل حادث، ولم يكن في ذلك الحين، والله –عز وجل– عندما نهى آدم حذّره من عاقبة هذه المعصية بعيْنها ولم يكن ثَمّ تكليف بغير ذلك؛ فكان الجزاء كما أخبر الله –عز وجل–. وكذلك ينازع في قضية العصمة لآدم في تلك الحال، لأنه لم يرسل بعْد لأحد.

الأسئلة :

١. قرأ الجمهور فتلقى آدم . بالرفع . من ربه كلمات . بالنصب . وهي قراءة متواترة (صح) .

٢. قرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع كلمات ، وهي قراءة شاذة تقبل في التفسير فقط ولا يقرأ بها (خطأ) .

٣. المراد بتلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها فهو مستعار من استقبال الناس بعض الأحبة إذا قدم بعد طول الغيبة لأنهم لا يدعون شيئا من الإكرام إلا فعلوه (صح) .

٤. معنى قراءة ابن كثير أنها استقبلته هي فكأنها مكرمة له لكونها سبب العفو عنه أو بمعنى بلغته واتصلت به (صح) .

٥. التعبير (بالتلقي) إيماء إلى أن آدم عليه السلام كان في ذلك الوقت في مقام القرب من الله بعد التوبة (خطأ) .

٦. الآية من العلامة ، وسميت بذلك لأنها علامة على انتهاء كلام وبداية غيره أو لأنها علامة تدل على الطريق الذي يوصل إلى الله وطاعته (صح) .

٧. ثبت أن آدم لما أهبط إلى الأرض سأل الله بحق محمد أن يغفر له ، فقال له ربه : ومن محمد ؟ قال : رأيت على العرش لا إله إلا الله محمد رسول فعلمت أنه أفضل المخلوقات ، فغفر له ، فهي الكلمات التي تلقاها آدم (خطأ) .

٨. كل ما ورد في تحديد الكلمات التي تلقاها آدم موضوع (خطأ) .

٩. الأرجح أن الكلمات التي تلقاها آدم هي الاستغفار والتوبة (صح) .

١٠. دخول ضمير الفصل (هو) بين المبتدأ والخبر لتأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ للدلالة على الحصر (صح) .

١١. التواب والرحيم اسمان على أوزان المبالغة للدلالة على أن الله كثير التوبة عظيم الرحمة بعباده (صح) .

١٢. الفرق بين التواب والرحيم أن الرحمة بها يغفر الله الذنب والتوبة فضل من الله يدخل به العبد الجنة (خطأ) .

١٣. الهدى هو ما أرسله الله من الأنبياء والكتب (صح) .

١٤. لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أي : لا خوف عليهم عند الموت ولا هم يحزنون عند الحساب (خطأ) .

١٥. الخوف لا يكون إلا من الأمر المستقبل ، والحزن لا يكون إلا على الأمر الماضي في الغالب (صح) .

١٦. الخوف والحزن المنفيان يكونان عند دخول الجنة (صح) .

١٧. المراد بالكفر الكفر بالقلب وبالتكذيب التكذيب باللسان (صح) .

١٨. الصحيح أن ذكر الهبوط مرتين إشارة إلى الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا أولاً ثم الهبوط إلى الأرض ثانياً (خطأ) .

١٩. كرر ذكر الهبوط لما تعلق به بعده من المعنى المغاير للأول (صح) .

٢٠. فائدة التكرار التنبيه على أنه تعالى هو الذي أراد ذلك ولولا إرادته لما كان ما كان ولذلك أسند الإهباط إلى نفسه مجردا عن التعليق بالسبب بعد إسناد إخراجهما إلى الشيطان (صح) .

٢١. التوبة أصلها الرجوع وإذا أسندت إلى العبد كانت عبارة عن مجموع أمور ثلاثة : علم وحال وعمل (صح) .

٢٢. كلما استشعر الإنسان الخوف من الله وضرر المعاصي في الآخرة عظمت توبته (صح)

٢٣. التوبة من الله تعني توفيق العبد لها وتيسير أسبابها (صح) .

٢٤. قال تعالى (فتاب عليه) ولم يقل (عليهما) لأن الذي أغواه إبليس ودفعه إلى الأكل هو آدم وليس حواء فلم تذكر هنا (خطأ) .

٢٥. ذكر الرحيم بعد ذكر التواب فيه دلالة على أن من تاب توبة صادقة لا بد من قبول توبته عند الله (خطأ) .

٢٦. قوله (فإما يأتينكم) بالشك للإيذان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثه الرسل وإنزال الكتب (صح) .

٢٧. المعصية التي فعلها آدم كانت من الكبائر بدليل ما ترتب عليها من العقوبة والتوبة (خطأ) .

٢٨. المعصية التي فعلها آدم كانت من الصغائر لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكبائر بل معصومون عنها كما هو معلوم (خطأ) .

٢٩. ذكر الزمخشري أن معصية آدم كانت صغيرة وأن العقوبة التي ترتبت عليها كانت تفظيعاً لشأن المعصية والخطيئة (صح) .

٣٠. لا يصح الكلام في معصية آدم هي هل هي صغيرة أم كبيرة لأن هذا الاصطلاح حادث ، والأصل أن يتبع العبد أمر الله في الطلب والنهي (صح) .

المحاضرة الثالثة والعشرون

***

تفسير الآيات من (٤٠) إلى (٤٣) من سورة) البقرة.(

التلاوة، و القراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ.}

القراءات:

لا توجد وجوه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

خطاب لطائفة خاصّة مِن الكفرة المعاصرين للنبي –صلى الله تعالى عليه وسلم– بعد الخطاب العام، وإقامة دلائل التوحيد والنبوّة والمعاد، والتذكير بصنوف الإنعام، وجعله سبحانه بعد قصة آدم لأنهم مِن بنيه الذين أتاهم الهدى من الله فلم يتّبعوه وكفروا وكذّبوا.

لغويّات.

{بَنِي :}جمع: ابن، شبيهٌ بجمْع التكسير لتغيّر مفرده؛ ولذا أُلحِق في فعله تاء التأنيث، كقولك: قالت بنو عامر.

وهو مختص بالأولاد الذكور، وإذا أُضيف عمّ في العُرف الذكورَ والإناث، فيكون بمعنى: الأولاد، وهو المراد هنا .

وهو محذوف اللام، وفي كونها ياء أو واو خلاف .

وجعله بعضهم من: البناء، لأن الابن فرع الأب ومبني عليه؛ ولهذا يُنسب المصنوع إلى

صانعه، فيُقال للقصيدة مثلاً: بنت الفكر. وقد أُطلق في شريعة مَن قبلنا على بعض المخلوقين: "أبناء الله تعالى" بهذا المعنى، لكن لما تصور من هذا الجهلةُ الأغبياءُ معنى الولادة، حُظر ذلك حتى صار التّفوّه به كفراً .

و{إِسْرائيل :}اسم أعجمي، وقد ذكروا أنه مركّب مِن: "إيل": اسم من أسمائه تعالى، و"إِسْرا" وهو: العبد، أو الصفوة، أو الإنسان، أو المهاجر. وهو لقب: يعقوب –عليه السلام .–وللعرب فيه تصرّفات .

{ اذْكُرُوا :}أمْر مِن الذِّكر– بكسر الذال وضمّها –بمعنى واحد، ويكونان باللسان والجَنان، وقال الكسائي: هو بالكسر للِّسان، وبالضم للقلب، ضد الأول: الصمت، وضد الثاني :النسيان .

{ وَأَوْفُوا :}يُقال: أَوْفَى، ووَفَى –مخفّفاً ومشدّداً بمعنى–. وقال ابن قتيبة: "يُقال: أَوْفَيْتُ بالعهد وَوَفَّيْتُ به، وأَوْفَيْتُ الكيل لا غير. وجاء أوفى بمعنى :ارتفع."

{فَارْهَبُون :}الرَّهْبَة: الخوف مُطْلقاً، وقيل: مع تحرّز، وبه فارق "الاتقاء"، لأنه مع حزم؛ ولهذا كان الأول للعامّة، والثاني للأئمة. والأشبه بمواقع الاستعمال أنّ الاتقاء: التحفظ عن المخُوف، وأن يجعل نفسه في وقاية منه، والرهبة: نفس الخوف.

و{أَوَّل :}في المشهور: "أَفْعَل"، لقولهم: "هذا أوّل منك"، ولا فعل له لأن فاءه وعيْنه واو، وقد دلّ الاستقراء على انتفاء الفعل لما هو كذلك، وإن وُجد فنادر.

وفي اشتقاقه كلام كثير.

واللَّبس– :بفتح اللام–: الخلط، ويكون بمعنى: الاشتباه، إما بالاشتراك، أو الحقيقة والمجاز .

و{الزَّكَاة :}في الأصل :النماء والطهارة، ونُقلت شرعاً لإخراج معروف، فإن نقلت من الأوّل فلأنها تزيد بركة المال وتُفيد النفس فضيلة الكرم، أو لأنها تكون في المال النامي. وإن نُقلت من الثاني فلأنها تطهّر المال من الخبث والنفس من البخل.

والركوع :الخضوع والانقياد لما يلزمهم مِن الشّرع. قال الأضبط السعدي:

لا تُذِلّ الفقير عَلَّكَ أن	تَرْكَعُ يوْمًا والدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

ولعل الأمر به حينئذ بعد الأمر بالزكاة لأنها مظنّة تَرَّفُع، فأُمروا بالخضوع لينتهوا عن ذلك.

الآثار.

أخرج أبو داود الطيالسي، وأحمد، وابن سعد، وابن أبي حاتم، وغيرهم، بإسناد لا بأس به، عن ابن عباس قال)) :حضرتْ عصابة من اليهود نبيّ الله —صلى الله عليه وسلم-، فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب. قالوا: اللهم نعم. فقال النبي —صلى الله عليه وسلم-: اللهم اشهد .((!

عن ابن عباس، قال: "إسرائيل يعقوب ."

وعن ابن مسعود، قال: "إسرائيل هو: يعقوب ."

و عن أبي مجلز، قال: "كان يعقوب رجلاً بطيشاً، فلقي ملَكاً فعالجه، فصرعه الملَك، فضربه على فخذيه. فلما رأى يعقوب ما صُنع به بطش به، فقال: ما أنا بتاركك حتى تسمِّيَني اسماً، فسمّاه: "إسرائيل". قال أبو مجلز: ألا ترى أنه من أسماء الملائكة: إسرائيل، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل؟ ."

و عن ابن عباس، قال: "كانت الأنبياء من بني إسرائيل، إلاّ عشرة: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ومحمد –عليه السلام-. وما من الأنبياء من له اسمان إلاّ إسرائيل وعيسى، فإسرائيل: يعقوب، وعيسى: المسيح ."

و عن ابن عباس: "إن إسرائيل، وميكائيل، وجبريل، وإسرافيل، كقولك: عبد الله ."

و عن عبد الله بن الحارث البصري، قال: "إيل: الله بالعبرانية."

و عن ابن عباس في قوله{ :يَا بَنِي إِسْرائيلَ" :}قال للأحبار من اليهود{ :اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}، أي: آلائي عندكم وعند آبائكم، لما كان نجّاهم به من فرعون وقومه{ .وَأَوْفُوا بِعَهْدِي }الذي أخذتُ بأعناقكم للنبي –صلى الله عليه وسلم- إذ جاءكم{ .أُوفِ بِعَهْدِكُمْ :}أُنجز لكم ما وعدتُكم عليه بتصديقكم معه واتّباعه، بوضع ما كان عليهم من الإصر والأغلال{ .وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }أن أُنزل بكم ما أنزلتُ بمن كان قبلكم مِن آبائكم مِن النّقمات{ .وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ }وعندكم به من العلم ما ليس عند غيركم{ .وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، أي: لا

تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم ."

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَأَوْفُوا بِعَهْدِي" :}يقول: ما أمرتُكم به من طاعتي، ونهيتُكم عنه من معصيتي في النبي –صلى الله عليه وسلم– وغيره{ .أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، يقول: أرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة ."

و عن ابن مسعود، مثله .

وعن ابن عباس، في قوله{ :اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}،" أي: بلائي عندكم، وعند آبائكم، لِمَا كان نجّاهم به من فرعون وقومه{ .وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، قال: بعهدي الذي أخذتُ في أعناقكم للنبي محمد –صلى الله عليه وسلم –إذا جاءكم، أُنجِز لكم ما وعدتُكم عليه بتصديقه واتّباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم ."

وقال مجاهد: "نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سُمّيَ وفيما سوى ذلك: فجّر لهم الحجَر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون ."

وقال أبو العالية: "نعمته: أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب."

وقال الحسن البصري:هو قوله{ :وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ }... الآية .

وعن مجاهد، في قوله{ :وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، قال: "هو الميثاق الذي أخذ عليهم في سورة (المائدة){ :وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ "}...الآية .

وعن قتادة، في قوله{ :وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، قال: "العهد الذي أخذ الله عليهم وأعطاهم: الآية التي في سورة (المائدة){ :وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ }إلى قوله : {وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ."}

وقال أبو العالية{ :وَأَوْفُوا بِعَهْدِي}، قال: "عهده إلى عباده: دينه الإسلام، أن يتّبعوه ."

وعن ابن عباس{ :أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، قال: "أرضى عنكم، وأدخلكم الجنة ."

وكذا قال السدي، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس .

و عن الحسن، في قوله{ :وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، قال: "أوفوا بما افترضتُ عليكم، أوف لكم بما رأيت الوعد لكم به على نفسي ."

و عن الضحاك، في قوله{ :وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، قال: "أوفوا بطاعتي أوفِ لكم بالجنة ."

وقوله{ :وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}، "أي: فاخشون"؛ قاله: أبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة .

وقال ابن عباس، في قوله{ :وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}، "أي: (أنْ) أُنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم، مِن النّقمات التي قد عرفتم مِن المسْخ وغيره."...

قال أبو العالية –رحمه الله–، في قوله{ :وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ" :}يقول) :يا معشر أهل الكتاب، آمنوا بما أنزلت مصدقاً لِمَا معكم، يقول:) لأنهم يجدون محمداً – صلى الله عليه وسلم –مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ."

ورُوي عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، نحو ذلك .

و عن ابن جريج في قوله{ :وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}، قال: "بالقرآن ."

قال ابن عباس، في قوله{ :وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ" :}وعندكم فيه مِن العلْم ما ليس عند غيركم ."

وقال أبو العالية: "يقول: ولا تكونوا أوّل مَن كفَر بمحمد– صلى الله عليه وسلم–، يعني: من جنسكم أهل الكتاب، بعد سماعكم بمبعثه ."

وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس .

عن هارون بن يزيد قال: "سئل الحسن– يعني: البصري– عن قوله تعالى{ :ثَمَناً قَلِيلاً}، قال: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها ."

وعن سعيد بن جبير في قوله{ :وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً" :}إن آياته: كتابه الذي أنزله إليه، وإنّ الثمن القليل :الدنيا وشهواتها ."

وقال السدي،في قوله{ :وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً" :}يقول :لا تأخذوا (طمعاً) قليلاً، وتكتموا اسم الله، فذلك الطمع هو: الثمن ."

وعن أبي العالية، في قوله{ :وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً" :}يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. لا تأخذ على ما علمت أجراً، فإنما أجْر العلماء والحكماء على الله. قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم علِّم مجاناً، كما عُلِّمتَ مجاناً ."

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ" :}تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب."

وقال أبو العالية{ :وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}، يقول: "ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدّوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد –صلى الله عليه وسلم."–

و عن سعيد بن جبير، والربيع بن أنس نحوه.

وقال قتادة{ :وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ :}قال: "لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام. إنّ دين الله: الإسلام، واليهودية والنصرانية: بدعة ليست من الله ."

وروي عن الحسن البصري نحو ذلك.

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" :}أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي، وبما جاء به، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم."

وعنه قال: "لا تكتموا الحق وأنتم قد علمتم أنّ محمداً رسول الله."

وروي عن أبي العالية نحو ذلك.

وعن قتادة{ :وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، قال: "كتموا محمداً وهم يعلمون أنه رسول الله{ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ."}

و عن أبي زيد، في قوله{ :وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}، قال: "الحق :التوراة التي أنزل الله. والباطل: الذي كتبوه بأيديهم ."

وعن مجاهد، في قوله{ :وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ}، قال: "هو محمد– صلى الله عليه وسلم ."–

وقال السدي، والربيع بن أنس، في قوله{ :وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ" :}يعني: محمداً –صلى الله عليه وسلم."–

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَآتُوا الزَّكَاةَ" :}يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص ."

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "ما يوجب الزكاة. قال: مائتان فصاعداً."

وعن الحسن، في قوله تعالى{ :وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلاّ به وبالصلاة ."

وعن الحارث العكلي، في قوله{ :وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "صدقة الفطر."

و عن مجاهد، في قوله{ :وَارْكَعُوا}، قال: "صلّوا."

و عن مقاتل، في قوله{ :وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، قال: "أمَرهم أن يركعوا مع أمّة محمد. يقول: كونوا منهم ومعهم ."

أقوال المفسّرين.

يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد –عليه من الله أفضل الصلاة والسلام–، ومهيجاً لهم بذِكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب– عليه السلام–، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: "يا ابن الكريم، افعل كذا!"، "يا ابن الشجاع، بارز الأبطال"!،" يا ابن العالِم، اطلب العلم!"، ونحو ذلك ... ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى{ :ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً .}فإسرائيل هو: يعقوب –عليه السلام .–

وقوله تعالى{ :اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.}

كقول موسى –عليه السلام– لهم{ :يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ}، يعني: في زمانهم .

وقال آخرون في "العهد": هو الذي أخذه الله عليهم في التوراة :أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً، يُطيعه جميع الشعوب، والمراد به محمد –صلى الله عليه وسلم–، فمن اتّبعه غفر الله له ذنبه، وأدخله الجنة، وجعل له أجرين .

وقد أورد فخر الدين الرازي ها هنا بشارات كثيرة عن الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– بمحمد –صلى الله عليه وسلم .–

والعهد :يضاف إلى كلّ ممّن يتولى أحد طرفيْه؛ والظاهر هنا :أن الأول مضاف إلى الفاعل، والثاني إلى المفعول. فإنه تعالى أمرهم بالإيمان والعمل، وعهِد إليهم بما نصب من الحجج العقلية والنقلية الآمرة بذلك، ووعدهم بحسن الثواب على حسناتهم. والمعنى: أوفوا بعهدي بالإيمان والطاعة، أوفِ بعهدكم بحسن الإثابة؛ ولتوسّط الأمر صحّ طلب الوفاء منهم.

وذكْرهم النعمة أن لا يُخلّوا بشكْرها ويعتدّوا بها ويستعظموها ويطيعوا مانحَها .

وأراد بها ما أنعم به على آبائهم ممّا عدّد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه ومِن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل والتوبة عليهم، وغير ذلك... وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد –صلى الله عليه وسلم –المبشَّر به في التوراة والإنجيل.

قوله{ :وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ :}هذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتّباع الرسول، والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره؛ والله الهادي لمن يشاء إلى صراط مستقيم، ولهذا قال{ :وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ.}

وقوله{ :مُصَدِّقاً :}منصوب على الحال مِن" ما"، أي :بالذي أنزلت مصدّقاً، أو من الضمير المحذوف مِن قوله" :بما أنزلتُه مصدّقاً" . ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، وهو قوله : {بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً}، يعني به: القرآن الذي أنزله على محمد —صلى الله عليه وسلم–، النبي الأمي العربي، بشيرا ونذيراً، وسراجاً منيراً، مشتملاً على الحق من الله تعالى، مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

وظاهره: أنه أَمْر لبني إسرائيل. وقيل نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه علماء اليهود ورؤسائهم، فهو أمر لهم .

ومعنى تصديقه لها: أنه نازل حسبما نعت فيها، أو مطابق لها في أصل الدِّين والملّة، أو لِما لم يُنسخ كالقصص والمواعظ وبعض المحرّمات، كالكذب، والزنى، والرّبا، أو لجميع ما فيها.

والمخالفة في بعض جزئيات الأحكام التي هي للأمراض القلبية كالأدوية الطبية للأمراض البدنية المختلفة بحسب الأزمان والأشخاص، ليست بمخالفة في الحقيقة؛ بل هي موافقة لها من حيث أنّ كلاًّ منها حق في عصره متضمّن للحكمة التي يدور عليها فلَكُ التشريع.

وقوله{ : وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}،)قال بعض المفسِّرين: أوّل فريق كافر به، ونحو ذلك .(
وتقدّم في بعض الآثار: أنّ الضمير في{ :بِهِ }عائد إلى محمد– صلى الله عليه وسلم.–
واختار ابن جرير: أنّ الضمير في قوله{ :بِهِ }عائد على القرآن، الذي تقدّم ذكْره في قوله : {بِمَا أَنْزَلْتُ .}

وكِلا القوليْن صحيح، لأنهما متلازمان، لأنّ مَن كفر بالقرآن فقد كفَر بمحمد –صلى الله عليه وسلم–، ومَن كفر بمحمد –صلى الله عليه وسلم– فقد كفَر بالقرآن .

وأمّا قوله{ :أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}، فيعني به: أوّل مَن كفر به من بني إسرائيل، لأنه قد تقدّمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشَر كثير. وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإنّ يهود المدينة أوّل بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفْرهم به يستلزم أنهم أوّل من كفَر به مِن جنسهم .

{وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}، أي: لا تسارعوا إلى الكفْر به، فإن وظيفتكم أن تكونوا أوّل مَن آمن به، لِمَا أنكم تعرفون حقيقة الأمر وأحقّيّته، وقد كنتم من قبل تقولون: إنا نكون أوّل مَن يتّبعه.

وقيل: المراد: التعريض؛ فأوّل الكافرين غيرهم .

وقد يقال: الضمير راجع إلى "ما معكم"، والمراد من "لا تكونوا أول كافر بما معكم": لا تكونوا أوّل كافر ممّن كفر بما معه. ومشركو مكة، وإن سبقوهم في الكفر بالقرآن، لكن ليسوا ممّن كفَر بما معه.

وقيل: إنها مشاكلة لقولهم: إنّا نكون أوّل مَن يتّبعه– كما تقدّم–. وقد يُقال: إنها بمعنى: السبق وعدم التّخلّف.

قلتُ: لا يستبعد أن يكونوا أوّل كافر به حقيقة، لأنهم كفروا به بمجرد وصول خبَره إليهم، بل في الآثار تكذيبهم به منذ ولادته وصغره لأنه لم يكن منهم، ولم ينتظروا بكفرهم حتى يُبعث أو يَقدم عليهم المدينة كما قد يتوهم .ثم إنهم كانوا السبب في كفْر العرب، حيث سألوهم عن النبي– صلى الله عليه وسلم– وعن نعته عندهم فجحدوه وأنكروه، ولو صدقوهم لربّما آمنوا فكانوا أوّل منهم من هذه الحيثية –والله أعلم.–

وقوله{ :وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً}، يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي، بالدنيا وشهواتها؛ فإنها قليلة فانية.

وقيل: معناه: لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح، ونشْر العلْم النافع في الناس، بالكتمان واللَّبس، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب.

وفي سنن أبي داود، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم)) :–مَن تعلّم علماً ممّا يُبتغى به وجهُ الله، لا يتعلّمه إلاّ ليُصيب به عرَضاً من الدنيا، لم يَرِح رائحة الجنة يوم القيامة .((

والتعبير عن ذلك بالثمن مع كونه مشترًى لا مشترى به، للدلالة على كونه كالثمن في الاسترذال والامتهان؛ ففيه تقريع وتجهيل قويّ، حيث إنهم قلبوا القضية وجعلوا المقصود آلة، والآلة مقصودة، وإغراب لطيف حيث جعل المشترى ثمناً بإطلاق الثمن عليه، ثم جعل الثمن مشترًى بإيقاعه بدلاً لِما جعله ثمناً بإدخال الباء عليه .

فإن قيل: الاشتراء بمعنى: الاستبدال بالإيمان بالآيات، إنّما يصح إذا كانوا مؤمنين بها ثم تركوا ذلك للحظوظ الدنيوية وهم بمعزل عن الإيمان.

أجيب بأن مبنى ذلك على أنّ الإيمان بالتوراة الذي يزعمونه إيمان بالآيات، كما أنّ الكفْر بالآيات كفْر بالتوراة، فيتحقّق الاستبدال.

ومِن الناس مَن جعل الآيات كناية عن الأوامر والنواهي التي وقفوا عليها في أمر النبي –صلى الله عليه وسلم –من التوراة والكتب الإلهية، أو ما علموه مِن نعْته الجليل وخلُقه العظيم –عليه الصلاة والسلام–. وقد كانوا يأخذون كلّ عام شيئاً معلوماً من زروع أتباعهم وضروعهم ونقودهم، فخافوا إن بيّنوا ذلك لهم وتابعوه –صلى الله عليه وسلم–، أن يفوتهم ذلك، فضلّوا وأضلّوا. وقيل: كان ملوكهم يُدرّون عليهم الأموال لِيكتموا ويحرِّفوا. وقيل غير ذلك...

ومعنى قوله{ :وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ :}أنه تعالى يتوعّدهم فيما يعتمدونه مِن كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول –صلوات الله وسلامه عليه–؛ فعليهم أن يتّقوه بالإيمان واتّباع الحق والإعراض عن الاشتراء بآيات الله تعالى الثمن القليل والعرض الزائل.

وإنما ذكر في الآية الأولى{ :فَارْهَبُونِ}، وهنا{ :فَاتَّقُونِ}، لأن الرهبة دون التقوى، فحيثما خاطب الكافة عالِمهم ومقلِّدهم، وحثّهم على ذكر النعمة التي يشتركون فيها، أمرهم بالرهبة

والخشية؛ ولذا قِيل: الخشية :ملاك الأمر كلّه. وحيثما أراد بالخطاب فيما بعد العلماء منهم وحثهم على الإيمان ومراعاة الآيات، أمَرهم بالتقوى.

ويقول تعالى ناهياً لليهود عمّا كانوا يعتمدونه مِن تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل{ :وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}؛ فنهاهم عن الشيئيْن معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به .

{)وَتَكْتُمُوا}، يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أي: لا تجمعوا بين هذا وهذا، كما يقال: "لا تأكل السمك وتشرب اللبن". قال الزمخشري: وفي مصحف ابن مسعود: "وتكتمون الحق"، أي: في حال كتمانكم الحق{ .وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ :}حال أيضاً، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق. ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس، مِن إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار، إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق، ليَروج عليهم .والبيان والإيضاح، عكسه: الكتمان، وخلط الحق بالباطل.(

ويجوز أن يكون معناه: وأنتم مِن ذوي العلْم، ولا يناسب مَن كان عالِما أن يتّصف بالحال الذي أنتم عليه. أو: وأنتم تعلمون أنكم لابسون كاتمون.

والمقصود مِن تقييد النهي بالعلم: زيادة تقبيح حالهم، لأنّ الإقدام على هاتيك الأشياء القبيحة مع العلْم بما ذُكر، أفحش من الإقدام عليها مع الجهل؛ وليس مَن يَعلَم كمَن لا يَعلم.

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب : {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ :}أمرهم أن يصلّوا مع النبي –صلى الله عليه وسلم{) –وَآتُوا الزَّكَاةَ : } أمَرهم أن يُؤتوا الزكاة، أي: يدفعونها إلى النبي –صلى الله عليه وسلم{ .(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ :}أمَرهم أن يركعوا مع الراكعين مِن أمّة محمد –صلى الله عليه وسلم–، يقول: كونوا منهم ومعهم.

وقَدّم الأمر بالصلاة لِشمول وجوبها، ولِما فيها من الإخلاص والتضرّع للحضرة، وهي أفضل العبادات البدنية. وقرَنها بالزكاة لأنها أفضل العبادات المالية.

قلتُ: والذي يظهر أنهما كانا ركنَيِ الإسلام بعد الشهادتيْن، فلم يكن ثَم صيام ولا حج، ولذا اقتصر عليهما- والله أعلم.-

وقوله{ :وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، أي :وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ، ومِن أخصّ ذلك وأجلِّه: الصلاة .

وعبّر بالركوع عن الصلاة، احترازاً عن صلاة اليهود؛ فإنها لا ركوع فيها. وإنما قيّد ذلك بكونه مع الراكعين، لأن اليهود كانوا يصلّون وحداناً، فأُمروا بالصلاة جماعة لِما فيها من الفوائد ما فيها.

المعنى الإجمالي.

يأمر تعالى فريقاً من بني آدم ممّن كفَر بالهدى الذي أنزله الله تعالى وكذّب به، وهم بنو إسرائيل ذرية نبي الله يعقوب -عليه السلام-، بأن يتذكّروا نعمَه التي أنعمها عليهم بإفاضة كثير منها على آبائهم، حيث أرسل لهم الرسل، وبعث إليهم الكتب، وآتاهم ما لم يُؤت أحداً من العالمين، وفضلهم واصطفاهم، وأورثهم الأرض، وجعلهم ملوكاً، ممّا يستلزم منهم أن يحقِّقوا ما أخذه الله عليهم من عهد وميثاق، حتى يحقّق لهم ما وعدَهم مِن الأجر الحسَن والثواب الجزيل، وتكفير السيئات ودخول الجنات، وأن يخافوا عقابَه ونقمته إن كفروا نعمته.

ثم أمرهم متمثِّلين في علمائهم الذين يعرفون الحق ويعلمون صدْق النبي -صلى الله عليه وسلم- وصفته بالإيمان، بما أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم -تصديقاً لِما عندهم في كتبهم، ونهاهم أن يكونوا في طليعة الكافرين به بدلاً من أن يكونوا في أوائل المصدِّقين به كما يقتضيه حالهم، ناهياً لهم أن يشتروا متاع الدنيا الزائل من مال وجاه وسلطة، بتكذيبهم بآيات الله وبيناته الواضحات. وأمرهم بأن يصونوا أنفسهم من عقاب الله، بإظهار الحق الذي كتموه للناس. ونهاهم أن يخلطوا على الناس ويضلِّلوهم عن الحق، ويكتموا عنهم ما يعرفون من نصوص كتابهم وبشارات أنبيائهم به -صلى الله عليه وسلم-، وهم على معرفة وعلْم بهذا الحق وبحقيقة ما يفعلون من تلبيس.

ثم أمرهم بالدخول في دين الله كما دخل فيه مَن دخل من ذوي السعادة، فيصلُّوا مع المصلِّين، ويُزكّوا مع المزكّين، ويكونوا في جملة الخاشعين الخاضعين لربّ العالمين.

مسائل الآيات.

الأولى :

تعليم العلْم بأجرة: إن كان قد تعيّن عليه، فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله. فإن لم يحصل له منه شيء، وقطَعَه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعيّن عليه .

وإذا لم يتعيّن عليه، فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك، والشافعي، وأحمد، وجمهور العلماء، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللّديغ)) :إنّ أحق ما أخذتُم عليه أجراً: كتاب الله((، وقوله في قصة المخطوبة)) :زوّجْتُكها بما معك من القرآن.((

فأمّا حديث عبادة بن الصامت: أنه علّم رجلاً من أهل الصّفّة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً، فسأل رسول الله– صلى الله عليه وسلم– عن ذلك، فقال)) :إن أحببتَ أن تُطوَّق بقوس من نار فاقْبلْه((، فترَكه .

قال ابن كثير : "رواه أبو داود، وروي مثله عن أبيّ بن كعب، مرفوعاً .

فإن صحّ إسناده، فهو محمول عند كثير من العلماء –منهم :أبو عمر بن عبد البرّ– على أنه كان علَّمه لله، فلم يَجُز له أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس. فأمّا إذا كان من أوّل الأمر على التعليم بالأجرة، فإنه يصح، كما في حديث اللديغ، وحديث سهل في المخطوبة"

–والله أعلم.–

الثانية:

قوله{ :وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ :}استدلّ كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وقد تكلّم القرطبي على مسائل الجماعة والإمامة فأجاد.

ومن لم يقل به، حمَل الأمر على النّدب، أو المعية على الموافقة، وإن لم يكونوا معهم.

قلت : الأقرب: أنه لا علاقة للآية بصلاة الجماعة، فمساقها لا يؤيّد مَن احتج بها، كما أنها مثل قوله تعالى{ :يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ .}

وأمّا وجوب الجماعة، فيؤخذ من أدلة أخرى –والله أعلم.–

الثالثة :

ها هنا استدلالات عدّة بالآيات، نجملها فيما يلي:

استُدل بها على أنّ العالِم بالحق يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانه، بالشروط المعروفة لدى العلماء.

واستُدلّ بها حيث كانت خطاباً لليهود على أنّ الكفار مخاطبون بالفروع.

واستَدلّ بها من يقول بجواز تأخير بيان المجمَل، لأمْره بالزكاة عند مَن يقول بنزول الآية قبل تفصيل أمْرها.

ونكتفي بهذا القدر -والله الموفِّق.-

الأسئلة :

١. (بني) جمع ابن خاص بالذكور ولا يدخل فيه الإناث إلا بقرينة (خطأ) .

٢. إسرائيل اسم يعقوب عليه السلام وهو اسم أعجمي معناه عبد الله (صح)

٣. (اذكروا) أمر بالذكر بالقلب واللسان (صح) .

٤. اللبس الخلط والاشتباه بالشيء (صح) .

٥. الزكاة النماء والطهارة وسميت زكاة المال بذلك لأنها تزيد في المال وتطهره كما تطهر النفس (صح) .

٦. تقديم (وإياي) على ترهبون يدل على الاستمرار أي استمروا على خوفي (خطأ) .

٧. (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم) أي بالقرآن أو بالرسول (صح) .

٨. (وتكتموا الحق) ما عندكم من العلم (خطأ) .

٩. (ولا تلبسوا الحق بالباطل) أي : التوراة التي بأيديكم لا تخلطوها بالكذب والتبديل (صح) .

١٠. نسبتهم إلى أبيهم فيه تحقير لهم وتوبيخ بأنهم خالفوا أباهم ونبيهم (خطأ) .

١١. عهد الله هو كل ما أخذه عليهم من الإيمان والتصديق (صح) .

١٢. تذكيرهم بنعم الله عليهم قبل الأمر لهم بالوفاء بالعهد تحريكاً لهم للعمل بطاعة الله الذي أنعم عليهم بما أنعم (صح) .

١٣. ولا تكونوا أول كافر به أي لا تسارعوا إلى الكفر به فإن وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به (صح) .

١٤. المراد بقوله (ولا تكونوا أول كافر به) التعريض لأن هناك من كفر به قبلهم (صح) .

١٥. المراد بالثمن القليل ما كانوا يأخذونه على بيع التوراة من الثمن وهم لا ينتفعون بها ولا يقرأونها (خطأ) .

١٦. التعبير في الآية بالثمن مع كونه مشترى لا مشترى به للدلالة على كونه كالثمن في الاسترذال والامتهان ففيه تقريع وتجهيل قوي حيث أنهم قلبوا القضية وجعلوا المقصود آلة والآلة مقصودة (صح) .

١٧. التعبير في الآية بالثمن فيه إغراب لطيف حيث جعل المشترى ثمنا بإطلاق الثمن عليه ثم جعل الثمن مشترى بإيقاعه بدلا لما جعله ثمنا بإدخال الباء عليه (صح) .

١٨. ذكر في الآية الأولى (فارهبون) وهنا (فاتقون) لأن الرهبة فوق التقوى فتنزل من الأعلا إلى الأدنى لأن الخطاب جاء لعلمائهم أولاً ثم لعوامهم (خطأ)

١٩. (وأنتم تعلمون) أي : وأنتم تعلمون ما في الكتمان من الضرر على الناس (صح) .

٢٠. في الآية دليل على أن من عمل المعصية مع العلم أفحش من عمل المعصية مع الجهل (صح) .

٢١. المقصود بقوله (وآتوا الزكاة) أي : طهارة نفوسكم بالإيمان ، وليس المقصود زكاة المال لأن الزكاة لم تكن قد فرضت بعد (خطأ) .

٢٢. عبر عن الصلاة بالركوع لأن صلاة اليهود لا ركوع فيها (صح) .

٢٣. في الآية دليل على وجوب صلاة الجماعة حيث جاء الأمر بالصلاة مع الراكعين (صح)

٢٤. ذكر ابن كثير هذه الآية واستدل بها على وجوب صلاة الجماعة وأخذ في تفصيل أحكام الجماعة فأفاد وأجاد (خطأ) .

٢٥. في الآيات دليل على عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن وهو قول جمهور العلماء (خطأ) .

٢٦. الأقرب أنه لا علاقة للآية بصلاة الجماعة فمساقها لا يؤيد من احتج بها كما أنها مثل قوله تعالى : يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين (صح) .

٢٧. الجمهور من العلماء على جواز أخذ الأجرة على تعليم العلم والقرآن إذا لم يكن لدى الإنسان ما يكفيه من الكسب (صح) .

٢٨. في الآية دليل على تحريم كتمان العلم (صح) .

٢٩. استدل بهذه الآية بعض العلماء على أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة وإنما هم مطالبون بالإيمان أولاً (خطأ) .

٣٠. في الآية دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة (صح) .

المحاضرة الرابعة والعشرون

***

تفسير الآيات من (٤٤) إلى (٤٦) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.}

قراءات:

ليس فيها وجوه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

لا زال الحديث مع بني إسرائيل وتبكيتهم.

لغويّات.

البِرّ :سعة الخير والمعروف، ومنه البَرّ لسعته، ويتناول كلّ خير، ومنه قولهم: صدقتَ وبررتَ .

والنِّسيان :السهو الحادث بعد العلْم، والمراد به هنا: الترك، لأنّ أحداً لا ينسى نفسه، بل يحرمها ويتركها كما يترك الشيء المنسيّ، مبالغة في عدم المبالاة والغفلة؛ فما ينبغي أن يفعله .

{أَفَلا تَعْقِلُون :}أصل هذا الكلام ونحوه عند الجمهور، كان بتقديم حرف العطف على الهمزة، لكن لما كان للهمزة صدر الكلام قُدِّمت على حرف العطف. وبعضهم ذهب إلى أنه لا تقديم ولا تأخير، ويقدر بين الهمزة وحرف العطف ما يصحّ العطف عليه، كأن يُقال: أجُننْتم، فلا تعقلون؟ ونحوها...

والعقل :في الأصل: المنع والإمساك، ومنه: عِقَالُ البعير، سُمِّي به ما بواسطته تُدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية، لأنه يحبس عن تعاطي ما يقبح ويعقل على ما يَحسن .

والصبر :حبْس النّفس على ما تكره.

والخشوع :الإخبات والتّطامُن، ومنه: الخَشَعَة للرَّمْلة المتِطَامِنة. وأمّا الخضوع :فاللين والانقياد، ومنه: خَضعتْ بقولها إذا ليّنته.

{يَظُنُّونَ :}العرب قد تسمي اليقين: ظناً، والشك: ظناً، نظير تسميتهم الظلمة :سُدْفة، والضياء: سُدْفة، والمغيث: صارخاً، والمستغيث: صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمّى بها الشيء وضده، كما قال دُرَيْد بن الصِّمة:

فقلت لهم: ظُنوا بألفَي مُدجَّج	سَرَاتُهُمُ في الفارسيِّ المسَرَّدِ

يعني بذلك : تيقّنوا بألفَي مدجّج تأتيكم .

وقال عميرة أو عمير بن طارق:

فإن تَغْتَزوا قومي وأقعد فيكم	وأجعل مني الظنَّ غيباً مُرَجَّمَا

يعني: وأجعل مني اليقين غيباً مُرجَّماً.

الآثار.

أخرج وكيع، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، وابن أبي داود في "البعث"، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبّان، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، والبيهقي في شُعب الإيمان، عن أنس قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–رأيت ليلة أُسري بي رجالاً تُقرض شفاهُهم بمقاريض من نار، كُلّما قُرضت رجعت. فقلت لجبريل: مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء مِن أمّتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟ .((

وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، عن أبي وائل، قال)) :قيل لأسامة– وأنا رديفه–: ألاَ تُكلِّم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أني لا أكلِّمه، إلا أسمعكم؟ إني لأكلمه فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أوّل مَن افتتحه. والله لا أقول لرجل: إنك خير الناس –وإن كان عليّ أميراً– بعد أن سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. قالوا :وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى بالنار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه. فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر

وآتيه.(
وروي عن أبي أمامة مرفوعاً نحوه.
وأخرج الخطيب في" اقتضاء العلْم العمل"، وابن النجار في تاريخ بغداد، عن جابر عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :اطّلع قوم مِن أهل الجنّة على قوم من أهل النار، فقالوا: بِمَ دخلتم النار؟ وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم .قالوا: إنا كنا نأمركم ولا نفعل .((
وأخرج الطبراني، والخطيب في" اقتضاء العلم العمل"، وابن عساكر بسند ضعيف، عن الوليد بن عقبة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إن أناساً من أهل الجنة يتطلعون إلى أناس من أهل النار، فيقولون: بِمَ دخلْتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلاّ بتعليمكم. فيقولون :إنا كنا نقول ولا نفعل .((
وروي عنه موقوفاً نحوه.
وأخرج الطبراني، والخطيب في" الاقتضاء"، والأصبهاني في "الترغيب"، –قال السيوطي: بسند جيد–، عن جندب بن عبد الله –رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم)) :–مثَل العالِمِ الذي يعلِّم الناس الخير ولا يعمل به، كمثل السراج يُضيء للناس ويُحرق نفْسَه .((
قال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه .
وروي عن جندب موقوفاً، و عن أبي برزة، وعن سليك –رضي الله عنهما–، مرفوعاً نحوه.
وأخرج الطبراني بسند ضعيف، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم :–))مَن دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به، لم يزل في ظلّ سخط الله حتى يكفّ، أو يعمل ما قال أو دعا إليه.((
قال ابن كثير: إسناده فيه ضعف .
وأخرج أحمد، وأبو نعيم في" الحلية"، وغيرهما، عن أنس قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إنّ الله يُعافي الأمِّيّين يوم القيامة ما لا يُعافي العلماء((، قال أحمد :حديث منكر.
وعن ابن عباس: أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل. قال: وما هنّ؟ قال: قوله –عز وجل{ :–أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ

أَنْفُسَكُمْ}؛ أحْكمْتَ هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني: قوله تعالى{ :لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}؛ أحْكمْت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث .قال: قول العبد الصالح شعيب –عليه السلام{ :–وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}؛ أحْكمْت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

وإسناده واهٍ .

وعن إبراهيم النخعي، قال: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله{ :أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}، وقوله{ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}، وقوله إخباراً عن شعيب{ :وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .}

عن ابن عباس{ :وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }أي: تتركون أنفسكم{ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ}، أي :تنهَوْن الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي .

وعن ابن عباس في هذه الآية: "يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد –صلى الله عليه وسلم–، وغير ذلك ممّا أُمرتم به مِن إقام الصلاة، وتنسون أنفسكم؟."

عن ابن عباس في قوله{ :أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ}، قال" :بالدخول في دين محمد،{ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ }يقولون: تدرسون الكتاب بذلك{ .أَفَلا تَعْقِلُونَ :}تفهمون؟ ينهاهم عن هذا الخلق القبيح ."

وأخرج الثعلبي، والواحدي بسند ضعيف، عن ابن عباس، قال: "نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة؛ كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينهم رضاع من المسلمين: اثبت على الدِّين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل –يعنون به: محمداً–، فإنّ أمْره حق. وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه."

وعن أبي قلابة، في قول الله تعالى{ :أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ}، قال: "قال أبو الدرداء :لا يفقه الرجل كلّ الفِقْه، حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه، فيكون لها أشدّ مقتاً ."

وعن قتادة، في قوله{ :أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}، قال: "أولئك أهل الكتاب، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب ولا ينتفعون بما فيه ."

وعنه قال: "كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر، ويخالفون، فعيّرهم الله – عز وجل ."–

وكذلك قال السدي .

وقال ابن جريج{ :أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ :}أهل الكتاب والمنافقون، كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويدَعون العمل بما يأمرون به الناس؛ فعيّرهم الله بذلك، (فمَن أمَر بخير فلْيكن أشدّ الناس فيه مسارعة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: "هؤلاء اليهود، إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله تعالى{:أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ."}

وعن الشعبي قال: "ما خطب خطيب في الدنيا إلاّ سيَعرض الله عليه خطبته ما أراد بها ."

وعن الشعبي قال: "يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من النار فيقولون: ما أدخلكم النار، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ."

وعن أبي الدرداء قال: "ويل للذي لا يعلم مرة، ولو شاء الله لعلّمه. وويل للذي يعلَم ولا يعمل سبع مرات ."

و عن عبد الله بن مسعود نحوه.

وعن سعيد بن جبير، قال:"لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر."

وقال أبو العالية في قوله{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } قال: على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله.

وعن مجاهد: الصبر: الصيام.

وعن قتادة في قوله{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}، قال: إنهما معونتان من الله، فاستعينوا بهما .

عن ابن جريج{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}، قال: إنهما معونتان على رحمة الله .

و عن ابن زيد، قال: الصبر بابان: الصبر لله فيما أحبّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر عمّا كرِه وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم -إن شاء الله تعالى .-

وأخرج ابن أبي الدنيا في "كتاب الصبر"، وأبو الشيخ في" الثواب"، والديلمي في "مسند الفردوس"، عن علي، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية .((

وأخرج أحمد، والترمذي وحسّنه، والدارمي، وابن أبي حاتم، وغيرهم، عن رجل من بني سليم، عن النبي —صلى الله عليه وسلم-، قال)) :الصوم نصف الصبر.((

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: "الصبر صبران :صبر عند المصيبة حسَن، وأحسن منه: الصبر عن محارم الله ."

وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر .

وعن سعيد بن جبير، قال: الصبر: "اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه. وقد يجزع الرجل وهو يتجلّد، لا يُرَى منه إلاّ الصبر ."

والأحاديث في الصبر وفضله كثيرة، لا يتّسع المجال لذِكرها هنا.

وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن جرير، عن حذيفة، قال)) :كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا حزبه أمْر، فزع إلى الصلاة .((

وفي لفظ)) :رجعت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في شملة يصلّي، وكان إذا حزبه أمْر صلّى .((

وأخرج أحمد، والطيالسي، والنسائي، وأبو يعلى، وغيرهم، عن علي، قال)) :لقد رأيتنا ليلة بدر، وما فينا إلاّ نائم، غير رسول الله -صلى الله عليه وسلم، يصلِّي ويدعو حتى أصبح .((

وأخرج أحمد، وابن ماجة، والبزار، وغيرهم، بسند فيه ضعف، عن أبي هريرة)) :أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرّ به وهو منبطح على بطنه، فقال له -بالفارسية-: اشكَنْب دَرْد؟ -ومعناه: أيوجعك بطنك؟ .-قال: نعم. قال: قم فصلِّ، فإن الصلاة شفاء .((

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر، عن أبي الدرداء، قال)) :كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا كانت ليلة ريح، كان مفزعه إلى المسجد حتى يسكن. وإذا حدث في

السماء حدث من كسوف شمس أو قمر، كان مفزعه إلى الصلاة .((

وأخرج أحمد، والنسائي، وابن حبان، عن صهيب، عن النبي- صلى الله عليه وسلم-، قال :

))كانوا -يعني الأنبياء- يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة.((

وعن ابن عباس: أنه كان في مسير له، فنُعي إليه ابن له، فنزل فصلّى ركعتين، ثم استرجع وقال: فعلْنا كما أمَرنا الله فقال{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ.}

وعن ابن عباس، نُعي إليه أخوه قثم -وهو في سفر -فاسترجع، ثم تنحّى عن الطريق، فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس. ثم قام يمشي إلى راحلته، وهو يقول{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِينَ .}

وعن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت، قال: لما حضرت عبادة الوفاة، قال: "أحرّج على إنسان منكم يبكي. فإذا خرجت نفسي، فتوضؤوا وأحسِنوا الوضوء، ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً فيُصلي، ثم يستغفر لعُبادة ولنفسه؛ فإن الله تبارك وتعالى قال : {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}، ثم أسرعوا بي إلى حفرتي ."

و عن أم كلثوم بنت عقبة، -وكانت من المهاجرات الأول- في قوله{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}، قالت: غُشي على عبد الرحمن بن عوف غشية، فظنوا أنه أفاض نفسه فيها، فخرجت امرأته أم كلثوم إلى المسجد تستعين بما أُمرت به من الصبر والصلاة. فلما أفاق، قال: أَغشي علي آنفاً؟ قالوا :نعم. قال: صدقتم. إنه جاءني ملَكان، فقالا لي: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فقال ملَك آخر: ارجعا، فإنّ هذا ممّن كتبت له السعادة وهم في بطون أمهاتهم، ويستمتع به بنوه ما شاء الله. فعاش بعد ذلك شهراً، ثم مات .

و عن أبي العالية في قوله{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}، قال" :على مرضاة الله. واعلموا أنهما من طاعة الله ."

وعن مقاتل بن حيان، في قوله{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ" :}يقول: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة؛ فحافظوا عليها وعلى مواقيتها، وتلاوة القرآن فيها، وركوعها وسجودها، وتكبيرها والتشهد فيها، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإكمال طهورها؛ فذلك إقامتها وإتمامها. قوله{ :وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ}، يقول: صرفك عن بيت المقدس إلى الكعبة كبُر ذلك على المنافقين واليهود{ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}،

يعني: المتواضعين ."

وعن الضحاك في قوله{ :وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ}، قال: "لثقيلة ."

وعن ابن زيد في قوله{ :وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ}، قال: "قال المشركون :والله يا محمد إنك لتدعونا إلى أمْر كبير. قال: أي: الصلاة والإيمان بالله ."

وعن ابن عباس في قوله{ :إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِين}، قال: "المصدِّقين بما أنزل الله ."

وعن مجاهد في قوله{ :إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِين}، قال" :المؤمنين حقاً ."

وعن أبي العالية في قوله{ :إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِين}، قال: "الخائفين ."

وقال مقاتل بن حيان{ :إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِين}، يعني به: "المتواضعين ."

وقال الضحاك{ :وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ}، قال: "إنها لثقيلة، إلاّ على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطوته، المصدِّقين بوعده ووعيده ."

عن مجاهد: "كلّ ظن في القرآن يقين، أي: ظننت، وظنّوا ."

عن مجاهد قال: "كلّ ظنّ في القرآن فهو علْم ."

وعن قتادة قال: "ما كان مِن ظنّ الآخرة فهو علْم ."

وعن أبي العالية في قوله تعالى{ :الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ}، قال: "الظن ها هنا: يقين ."

ورُوي عن السدي، والربيع بن أنس نحو قول أبي العالي.

وعن ابن جريج{ :الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ }كقوله{ :إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ .} يقول: علمت .

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن أبي العالية في قوله{ :وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، قال:يستيقنون أنهم راجعون إليه يوم القيامة.

أقوال المفسّرين.

{أَتَأْمُرُون :}الهمزة للتقرير، مع التوبيخ والتعجيب من حالهم.

يقول تعالى:كيف يليق بكم –يا معشر أهل الكتاب– وأنتم تأمرون الناس بالبر –وهو جماع الخير– أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب،

وتعلمون ما فيه على مَن قصّر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؟ فتنبهوا من رقدتكم، وتبصروا من عمايتكم !

والغرض: أنّ الله تعالى ذمّهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه. وليس المراد ذمّهم على أمرهم بالبِرّ مع تركهم له، بل على تركهم له؛ فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالِم، ولكن الأوْلى بالعالِم أن يفعله مع مَن أمرهم به، ولا يتخلّف عنهم، كما قال شعيب –عليه السلام{ :-وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .}فكلّ من الأمر بالمعروف وفعْله، واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولَي العلماء من السلف والخلَف.

قال الآلوسي: "ثم إنّ هذا التوبيخ والتقريع، وإن كان خطاباً لبني إسرائيل، إلاّ أنه عام من حيث المعنى لكل واعظ يأمر ولا يأتمر، ويَزْجُر ولا يَنْزجر، ينادي الناس: "البدار البدار"، ويرضى لنفسه التخلف والبوار، ويدعو الخلق إلى الحق ويَنْفر عنه، ويطالب العوام بالحقائق ولا يشم ريحها منه؛ وهذا هو الذي يبدأ بعذابه قبل عبدة الأوثان، ويعظم ما يلقى لوفور تقصيره يوم لا حاكم إلاّ الملك الدّيّان."

قلت: يشير إلى حديث أبي هريرة: في أوّل ثلاثة تُسعر بهم النار، ومنهم: قارئ قرأ القرآن لا لله وإنما ليُقال له :إنه قارئ.

{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ.}...

يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: "استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة ."

فأمّا الصبر: فقيل: إنه الصّيام .

قال القرطبي وغيره: "ولهذا يُسمّى رمضان: شهر الصبر، كما نطق به الحديث ."

وقيل: المراد بالصبر: الكفّ عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعْل الصلاة .

وأمّا قوله{ :وَالصَّلاةِ}، فإن الصلاة مِن أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى : {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ

اللَّهِ أَكْبَرُ }...الآية .

والضمير في قوله{ :وَإِنَّهَا }عائد إلى الصلاة، نصّ عليه مجاهد، واختاره ابن جرير .

ويحتمل أن يكون عائداً على ما دلّ عليه الكلام، وهو :الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون{ :وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاّ الصَّابِرُونَ}، وقال تعالى{ :وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}، أي:وما يُلقّى هذه الوصية{ إِلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا}، أي:يُؤتاها ويُلهَمها{ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .}

وعلى كلّ تقدير، فقوله تعالى{ :وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} ، أي: مشقّة ثقيلة{ إِلاّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}، وهذا يشبه ما جاء في الحديث)) :لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه .((

وقال ابن جرير: معنى الآية{" :وَاسْتَعِينُوا }أيها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقرّبة من رضى الله، العظيمة إقامتها إلاّ على المتواضعين، المستكينين لطاعته، المتذلّلين من مخافته ."

قال ابن كثير: "هكذا قال. والظاهر: أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامّة لهم ولغيرهم –والله أعلم ."–

وقدّم الصبر على الصلاة، لأنها لا تكمل إلاّ به، أو لمناسبته لحال المخاطبين، أو لأن تأثيره كما قيل في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي؛ ودرء المفاسد مقدّم على جلْب المصالح .واللام فيه للجنس، ويجوز أن يُراد بالصبر نوع منه، وهو :الصوم، بقرينة ذِكْره مع الصلاة .

وقوله{ :الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، هذا مِن تمام الكلام الذي قبْله، أي :وإنّ الصلاة أو الوصاة، لثقيلة{ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ } الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ}، أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، مُعرَضون عليه،{ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها بما يشاء بعدْله؛ فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء، سهُل عليهم فعْل الطاعات، وترْك المنكرات .

فأمّا قوله{ :الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ}، قال ابن جرير: الشواهد مِن أشعار العرب وكلامها، على أنّ الظن في معنى اليقين، أكثر من أن تحصى. وفيما ذكرنا لمن وفّق لِفهمه كفاية. ومنه قول الله تعالى{ :وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا.}

قال ابن كثير: "وفي الصحيح)) :أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوِّجك؟ ألم أُكْرِمك؟ ألم أسخِّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول الله :اليوم أنساك كما نسيتني ."((

واللقاء :وصول أحد الجسمين إلى الآخر بحيث يماسّه، والمراد من ملاقاة الرب سبحانه: إما ملاقاة ثوابه، أو الرؤية عند مَن يُجوِّزها. وكل منهما مظنون متوقّع، لأنه وإن علِم الخاشع أنه لا بدّ من ثواب للعمل الصالح، وتحقّق أنّ المؤمن يرى ربه يوم المآب، لكن من أين يعلم ما يُختم به عمله؟ ففي وصْف أولئك بالظّنّ إشارة إلى خوفهم وعدم أمنهم مكْر ربهم، إلاّ أنّ عطف{ وأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }على ما قبله يمنع حمْل الظن على ما ذُكر، لأن الرجوع إليه تعالى بالنشور أو المصير إلى الجزاء مطلقاً ممّا لا يكفي فيه الظن والتوقع، بل يجب القطع به؛ ولهذا اختير تفسير الظن باليقين. وقرأ ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه{ :–يَعْلَمُونَ}، وهي تؤيد هذا التفسير –أي :بدلاً من قوله{ :يَظُنُّونَ.–}

المعنى الإجمالي .

ينعى –سبحانه وتعالى– على أحبار بني إسرائيل، أنهم يأمرون غيرهم بأمور من البِرّ والخير، ويتركون عامدين العمل بما في كتابهم، حرصاً على الدنيا وما فيها مِن جاه ورياسة؛ وكان الأوْلى بهم أن يبدؤوا بأنفسهم، فيؤمنوا بما يتلُونه من أمْر باتّباع هذا النبي– صلى الله عليه وسلم– والإيمان بما جاء به؛ فهذا هو مسلك العقلاء. وعليهم أنْ يستعينوا على مواجهة فتن الحياة وزخارفها، وطلب الآخرة وما أعد الله فيها للمؤمنين به، بالصبر –وهو: حبس النفس على ما تكره من طاعات وترك للمعاصي، ورضى بالقضاء–، والصلاة –وهي: الصلة بين العبد وربه–. ولا شكّ أن تطبيقهم لهذه الوصية عظيم وكبير، لا يستطيعه إلاّ مَن ذلّت نفسه لله، وخضع له، وعلِم علْماً يقينياً أنه راجع لربه، وسيلاقيه فيسأله ويحاسبه.

من مسائل الآيات.

ذهب بعضهم إلى أنّ مُرتكب المعاصي لا ينهى غيرَه عنها.

قال ابن كثير" :وهذا ضعيف. وأضعف منه: تمسّكهم بهذه الآية، فإنه لا حجّة لهم فيها. والصحيح: أنّ العالِم يأمر بالمعروف وإن لم يفعلْه، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه."

وقال الآلوسي" :لا حجّة فيها لِمن زعم أنه ليس للعاصي أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لأن التوبيخ على جمْع الأمرين بالنظر للثاني فقط، لا منْع الفاسق عن الوعظ؛ فإن النهي عن المنكر لازم ولو لمرتكبه؛ فإنّ ترْك النّهي ذنب، وارتكابه ذنب آخر، وإخلاله بأحدهما لا يلزم منه الإخلال بالآخر."

وقال مالك: عن ربيعة، سمعت سعيد بن جبير يقول" :لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمَر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر ."قال مالك: وصدق .من ذا الذي ليس فيه شيء؟

قال ابن كثير" :لكنه- والحالة هذه- مذموم على ترْكه الطاعة، وفعْل المعصية، لعلْمه بها، ومخالفته على بصيرة؛ فإنه ليس مَن يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك ."

ثم ذكر جملة من الأحاديث المتقدّمة في الآثار.

قال: وقد ورد في بعض الآثار: أنه يُغفر للجاهل سبعين مرة، حتى يغفر للعالِم مرّة واحدة، ليس مَن يعلم كمن لا يعلَم. وقال تعالى{ :قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ .}

وما أحسن ما قال سلَم بن عمرو :

ما أقبح التزهيد من واعظ	يزهِّد الناس ولا يزهدُ
لو كان في تزهيده صادقاً	أضحى وأمسى بيتَه المسجدُ
إن رفض الناس فما بالُه	يستمنح الناس ويسترفدُ
الرزق مقسوم على من ترى	يسعى له الأبيض والأسودُ

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الحيرى الزاهد يوماً على مجلس التذكير، فأطال السكوت. ثم أنشأ يقول:

وغير تقيٍّ يأمر الناس بالتّقَى	طبيبٌ يداوي والطبيبُ مريضُ

قال : فضجّ الناس بالبكاء.

وقال أبو العتاهية الشاعر:

وصفتَ التّقى حتى كأنك ذو تقى	وريح الخطايا من ثيابك تسطعُ

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لا تنْهَ عن خلُق وتأتيَ مثلَه	عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
فابدأ بنفسك فانْهَها عن غيّها	فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبل إن وَعظْتَ ويُهتدَى	بالقول منك وينفع التعليمُ

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد الواعظ، قال: "دعوت الله أن يُريني رفيقي في الجنة، فقيل لي في المنام: هي امرأة في الكوفة يقال لها: ميمونة السوداء. فقصدت الكوفة لأراها .فقيل لي: هي ترعى غنماً بواد هناك. فجئت إليها، فإذا هي قائمة تصلّي، والغنم ترعى حولها، وبينهن الذئاب لا ينفرن منهن، ولا تسطو الذئاب عليهن. فلما سلّمتْ قالت: يا ابن زيد، ليس الموعد ها هنا، إنما الموعد ثَمَّ .فسألتها عن شأن الذئاب والغنم. فقالت: إني أصلحت ما بيني وبين سيّدي، فأصلح ما بين الذئاب والغنم. فقلت لها: عِظيني. فقالت: يا عجباً من واعظ يوعظ! ثم قالت: يا ابن زيد، إنك لو وضعت موازين القسط على جوارحك، لخبّرتْك بمكتوم مكنون ما فيها. يا ابن زيد، إنه بلغني: ما مِن عبد أُعطي من الدنيا شيئاً، فابتغى إليه ثانياً، إلا سلبه الله حبّ الخلوة، وبدّله بعد القرب البعد، وبعد الأنس الوحشة، ثم أنشأت تقول :

يا واعظاً قام لاحتسابٍ	يزجر قوماً عن الذنوبِ
تنهى وأنت السقيم حقاً	هذا من المنكر العجيبِ
تنهى عن الغيّ والتّمادي	وأنت في النّهيِ كالمريبِ
لو كنتَ أصلحتَ قبل هذا	عيبَك أو تُبتَ من قريبِ
كان لما قلتَ يا حبيبي	موضع صِدْق من القلوبِ

هكذا ذكر ابن كثير هذه القصة، وهي قصة ركيكة هي وما فيها من شعر، وليته ما ذكرها! فلوائح الخرافة والوضع واضحة عليها، كما أنّ راويها يُنظر في دينه لأن صاحب الدين والورع لا يُحدّث بمثل ذلك إن حصل. وفي القصة المختلَقة ما يخالف ما كان عليه أنبياء الله ورسله وخيار أتباعهم المشهود لهم بالجنة، فكلهم أصلح ما بيْنه وبين ربّه حقاً، ولم تسلَمْ شياههم وممتلكاتهم من الذئاب وسائر الآفات، ولم يخرق لهم الله سُنَنه بهذه الصورة. وقد لدغت النبي –صلى الله عليه و سلم– عقرب وهو قائم يصلِّي لربّه .

بالإضافة إلى ما فيها مِن ادّعاء علْم الغيب عن طريق المنامات وغيرها، وانحراف ذلك واضح.

وأمّا بالنسبة لمسألتنا، فقد رويت آثار وروايات أخرى مسنَدة فيها ضعف، بعكس ذلك تتضمّن أنّ الله تعالى يغفر للعلماء بفضل علْمهم ويتجاوز عن زلاّتهم وهفواتهم.

فعن ثعلبة بن الحكم الصحابي، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–يقول الله –عز وجل– للعلماء يوم القيامة، إذا قعد على كرسيه لفصْل عباده: إني لم أجعل علْمي وحلْمي فيكم، إلاّ وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي .((

رواه الطبراني في "الكبير"، وقال المنذري: ورواته ثقات .

وروي عن أبي موسى، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–يبعث الله العباد يوم القيامة، ثم يميز العلماء فيقول: يا معشر العلماء، إني لم أضع علْمي فيكم لأعذِّبكم .اذهبوا، فقد غفرت لكم((!، رواه الطبراني في "الكبير ."

وعن ابن عمر، مرفوعاً)) :يقول الله– عز وجل– يوم القيامة للعلماء: إني لم أضع علْمي عندكم إلاّ لعلمي بكم. وإني لم أضع علْمي عندكم وأنا أريد أن أعذِّبكم. فادخلوا الجنة على

ما كان فيكم((!، رواه الديلمي.

والذي يظهر لي: أن الذّم متوجّه لمن يتّخذ الدِّين ستاراً والعلم غطاء، يخفي تحته الفسْق والمجون، أمّا العالم الصادق الذي يحاول أن يتّقي الله ويطبِّق شرعه، إلاّ أنه تزلّ قدمُه أحياناً لبشريّته وضعف إرادته وانهزامه في معركته مع النفس والشيطان، فليس مراداً ها هنا، وإلاّ فمن الذي يسلم من ذلك. وجمهور أهل العلم على أنّ الأنبياء- وهم قدوة العلماء- قد تَصْدُر منهم الصغيرة. والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول)) :إنما أنا بشَر، أغضب كما يغضب البشَر، وأرضى كما يرضى البشر .((ولا عصمة لأحد كعصمة الأنبياء.

الأسئلة :

١. البر : كثرة الخير والمعروف (صح) .

٢. والنسيان : السهو بعد العلم ، والمراد به هنا الترك لأن أحداً لا ينسى نفسه بل يحرمها ويتركها كما يترك الشيء المنسي مبالغة في عدم المبالاة والغفلة فما ينبغي أن يفعله (صح) .

٣. أصل العقل الفهم والإدراك (خطأ) .

٤. الاستفهام في قوله (أفلا تعقلون) تقريري . (خطأ) .

٥. الصبر : هو حبس النفس على ما تحب من الخير (خطأ) .

٦. الخشوع : الإخبات والتطامن ومنه الخشعة للرملة المتطامنة ، وأما الخضوع فاللين والانقياد ومنه خضعت بقولها إذا لينته (صح) .

٧. قوله (الذين يظنون) أي : يشكون ، كما في قوله تعالى (وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) وسياق الكلام في بني إسرائيل وأحوالهم (خطأ) .

٨. في الحديث الثابت عن النبي ﷺ أنه قال : « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى بالنار ، فتندلق به أقتابه ، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النار فيقولون : يافلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » (صح) .

٩. جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال : « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ، ولا يعمل به ، كمثل السراج ؛ يضيء للناس ويحرق نفسه » قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه (صح) .

١٠. في الحديث الذي رواه أحمد وصححه : « إن الله يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء » (خطأ) .

١١. الآيات فيها ذم شديد لمن كان يأمر الناس بخير ولا يفعله (صح) .

١٢. عن مجاهد أن الصبر هو الصيام (صح) .

١٣. الاستعانة بالصلاة والصبر من أهم ما يعين العبد على طاعة الله وتخطي الصعاب (صح)

١٤. الصبر أنواع ثلاثة : صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر على المصائب وأعلاها الأخير (خطأ) .

١٥. وإنها لكبيرة أي : الصلاة ، إلا على الخاشعين : الخائفين الخاضعين المتواضعين (صح)

١٦. أتأمرون : الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم (صح) .

١٧. الآية فيها دليل على أن الأمر بالمعروف ممن لا يفعله لا يقبل منه ولا ينفعه (خطأ) .

١٨. الآية ، وإن كانت خطابا في سياق إنذار بني إسرائيل ، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم (صح) .

١٩. قدم الصبر على الصلاة من باب تقديم السبب على المسبب لأنها لا تكمل إلا به (صح) .

٢٠. تقديم الصبر على الصلاة من باب درء المفاسد مقدم على جلب المصالح (صح) .

٢١. اللام في (لكبيرة) هي لام السببية (خطأ) .

٢٢. والمراد من ملاقاة الرب سبحانه إما ملاقاة ثوابه أو الرؤية عند من يجوزها . وكل منهما مظنون متوقع (صح) .

٢٣. التعبير بالظن هنا لأنه لا يدري أحد هل قبل منه عمله أم لا فالأمر بالنسبة للجميع أمر مظنون (صح) .

٢٤. ذهب بعض العلماء إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره ، وضعفه ابن كثير (صح)

٢٥. التوبيخ على جمع الأمرين بالنظر للثاني فقط لا منع الفاسق عن الوعظ فإن النهي عن المنكر لازم ولو لمرتكبه فإن ترك النهي ذنب وارتكابه ذنب آخر وإخلاله بأحدهما لا يلزم منه الإخلال بالآخر (صح) .

٢٦. نقل ابن كثير هنا ما ذكره الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد من قصة رفيقه في الجنة ، وهي قصة طويلة طريفة فيها فوائد وعبر (خطأ) .

٢٧. عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم » حديث حسن له شواهد (صح) .

٢٨. الذم متوجه لمن يتخذ الدين ستارا والعلم غطاء يخفي تحته الفسق والمجون أما العالم الصادق الذي يحاول أن يتقي الله ويطبق شرعه إلا أنه تزل قدمه أحيانا لبشريته وضعف إرادته وانهزامه في معركته مع النفس والشيطان فليس مرادا ها هنا وإلا فمن الذي يسلم (صح) .

٢٩. وجمهور أهل العلم على أن الأنبياء معصومون على الصغائر والكبائر وهم قدوة للعلماء فينبغي أن يجتهد العلماء في ترك المعاصي (خطأ) .

٣٠. في الآيات ذم لأحبار بني إسرائيل أنهم يأمرون غيرهم بأمور من البر والخير ويتركون عامدين العمل بما في كتابهم حرصا على الدنيا وما فيها من جاه ورياسة وكان الأولى بهم أن يبدأوا بأنفسهم فيؤمنوا بما يتلونه من أمر باتباع هذا النبي ﷺ والإيمان بما جاء به فهذا هو مسلك العقلاء وعليهم أن يستعينوا على مواجهة فتن الحياة بالصبر والصلاة (صح) .

المحاضرة الخامسة والعشرون

***

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ { وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. }

القراءات:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب{ :وَلاَ تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ- }بالتأنيث-، لإسناده إلى شفاعة وهي مؤنثة لفظاً. وقرأ الباقون بالتّذكير، لأن التأنيث غير حقيقيّ، وحسّنه وجود الظرف فاصلاً.

المناسبة :

ما زال الحديث حول بني إسرائيل، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وتحذيرهم من نقمته. وقد كُرِّر التذكير للتأكيد، والإيذان بكمال غفلتهم عن القيام بحقوق النعمة، وليربط ما بعده من الوعد الشديد به لتتمّ الدعوة بالترغيب والترهيب؛ فكأنه قال سبحانه: إن لم تطيعوني لأجل سوابق نعمتي، فأطيعوني للخوف من لواحق عقابي.

لغويّات.

{الْعَالَمِينَ :}جمع: عالَم- تقدّم تفسيره في سورة (الفاتحة)، ويُطلق على الجَمّ الغفير من الناس، كقوله تعالى{ :بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ .}ويُقال: رأيت عَالَماً من الناس، يُراد: الكثرة.

{يَوْماً :}اليوم: الوقت، وانتصابه إمّا على الظرف والمتّقَى محذوف، أي: واتّقوا العذاب يوماً، وإمّا مفعول به، واتقاؤه بمعنى: اتّقاء ما فيه، إمّا مجازاً بجعل الظرف عبارة عن المظروف، أو كناية عنه للزومه له؛ فالاتقاء من نفس اليوم ممّا لا يمكن، لأنه آت لا محالة ولا بد أن يراه أهل الجنة والنار جميعًا، والممكن المقدور: اتقاء ما فيه بالعمل الصالح .

الشفاعة :ضَمُّ غيره إلى وسيلته، وهي مِن: الشَّفْع ضدّ الوتر، لأن الشفيع ينضمّ إلى الطالب في تحصيل ما يطلب، فيصير شفعاً بعد أن كان فرداً.

والعَدْل– :أصله بفتح العيْن–: ما يساوي الشيء قيمةً وقدْراً، وإن لم يكن مِن جنسه، وبكسْرها: المساوي في الجنس والجرم. ومن العرب مَن يكسر العين من معنى الفدية. وذكر الواحدي أن عَدل الشيء بالفتح والكسر مثله، وأنشد قول كعب بن مالك:

صبرنا لا نرى لله عَدْلا	على ما نابنا مُتَوَكِّلينَا

وقال ثعلب: "العدل :الكفيل، والرشوة؛ ولم يُؤثَر ذلك في الآية ."

{وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ :}النصر في الأصل: المِعُونة، ومنه أرض منْصورة: ممدودة بالمطر، والمراد به ها هنا: ما يكون بدفع الضرر، أي: ولا هم يمنعون من عذاب الله –عز وجل.–

و{آل :}أصله: أهل، ولذلك يصغّر بـ"أُهَيْل"، فأبدلت هاؤه أِلفاً .وقيل: ليس بمعنى الأهل، لأن الأهل: القرابة، والآل مَن يؤول إليك في قرابة أو رأي أو مذهب، فألِفه بدل من واو؛ ولذلك قيل في تصغيره: "أُوَيْل"، ونقله الكسائي نصاً عن العرب .

ولا يضاف إلى غير العقلاء، ولا إلى من لا خطر له منهم؛ فلا يُقال: آل الكوفة، ولا آل الحجّام. وزاد بعضهم اشتراط التذكير، فلا يقال: آل فاطمة؛ ولعل كل ذلك أكثري، وإلاّ فقد ورد على خلاف ذلك، كآل أعوج: اسم فرس، وآل المدينة، وآل الصليب، وآلك.

ويستعمل غير مضاف كـ" هُم خير آل"، ويُجمع كأهل فيقال: "آلُون."

وحكى أبو عبيدة: آل مكة، آل الله، وهكذا، يضاف إلى المِضْمر على المشهور، قال عبد المطلب :

وانْصُر على آلِ الصَّلِيـ	ـبِ وعابِدِيه اليومَ آلَكْ

وقال غيره:

أنا الفارس الحامي حقيقةَ والدي	وآلِي كما تحمي حقيقة آلِكا

و{فِرْعَوْن :}علَم على كلّ مَن ملك مصر كافراً (من العماليق وغيرهم)، كما أنّ "قيصر "علَم على كلِّ من ملك الروم مع الشام كافراً. وكذلك "كسرى "لكلّ من ملك الفرس، وتُبَّع لمن

ملك (اليمن) كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وبطليموس لمن ملك الهند.(

ويقال: كان اسم فرعون الذي كان في زمان موسى عليه السلام: الوليد بن مصعب (بن الريان)، وقيل: مصعب بن الريان .

قال ابن كثير: "وأياًّ ما كان، فعليْه لعنة الله ."

)وكان من سلالة عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته: أبو مُرَّة، وأصله فارسي من اصطخر.(

ولِعُتُو الفراعنة، اشتَقّوا: تَفَرْعَن فلان، إذا عتا وتجبّر، وفي مُلَح بعضهم:

قد جاءه الموسى الكَلُوم فزاد في	أقصى تَفَرْعنِهِ وفرط عَرَامِه

والصحيح: أنه غير فرعون يوسف –عليه السلام–، وقد آمن بيوسف ومات في حياته، وهو من أجداد فرعون المذكور على قول. ويؤيِّد الغَيْريّة: أنّ بين دخول يوسف ودخول موسى عليهما السلام أكثر من أربعمائة سنة .

وآل الرجل: مَن ينتسب إليه بنسب أو سبب، وقيل: من هو على دينه وملّته، وقد يطلق على الرجل نفسه ويضاف إلى المعظّم .

والمراد بـ{آل فِرْعَوْنَ }هنا: أهل مصر، أو أهل بيته خاصة، أو أتباعه على دينه.

{يَسُومُونَكُمْ :}مِن :السَّوم، وأصله: الذهاب للطلب. ويقال :سامه: كلّفه العمل الشّاقّ.

وقال أبو عبيدة{ :يَسُومُونَكُمْ :}يُولُونَكُم، كما يقال :سامَه خُطَّةَ خَسْف، إذا أولاه إيّاها، قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملِك سام الناسَ خَسْفًا	أَبَيْنا أن نُقِرَّ الخسْفَ فينا

وأصله مِن: سام السلعة، إذا طلبها، كأنه بمعنى: يبغونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه .

وقيل: معناه: يُدِيمُون عذابكم، كما يُقال: سائمة الغنم، مِن إدامتها الرعي .

والسوء :مصدر السَّيِئ، يقال: أعوذ بالله من سوءِ الخُلق وسوء الفعل، يراد: قبحهما.

ومعنى{ :سُوءِ الْعَذَابِ}، والعذاب كلّه سيّئ: أشَدّه وأفظعه، كأنه قبحه بالإضافة إلى سائره .

والبلاء :المحنة إن أُشير بذلكم إلى صنيع فرعون، والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء .

قال ابن جرير: "وأكثر ما يقال في الشرّ: بَلَوْته أَبْلُوه بَلاء، وفي الخير: أَبْلِيه إِبْلاءً وبلاءً ."

وقال زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فَعَلا بكم	وأَبْلاهُما خير البلاء الذي يَبْلُو

قال: فجمَع بين اللغتيْن، لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النِّعم التي يختبر بها عباده .

الآثار.

عن عمر بن الخطاب: أنه كان إذا تلا{ :اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}، قال: "مضى القوم، وإنّما يَعني به أنتم ."

و عن سفيان بن عينية، في قوله{ :اذْكُرُوا نِعْمَتِي}، قال: "أيادي الله عليكم وأيّامه ."

وعن مجاهد، في قوله{ :يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ }قال: "نعمة الله التي أنعم على بني إسرائيل فيما سمّى، وفيما سوى ذلك: فجّر لهم الحجَر، وأنزل عليهم المنّ والسَّلوى، وأنجاهم من عبوديّة آل فرعون ."

وعن قتادة، في قوله{ :وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، قال" :فُضِّلوا على العالَم الذي كانوا فيه، ولكل زمان عالَم ."

وعن مجاهد، في قوله{ :وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، قال: "على مَن هُم بين ظهريه. "

وعن أبي العالية، في قوله{ :وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، قال: "بِما أُعطوا من الملك والرّسل والكُتب، على من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالَماً ."

وروي عن الربيع بن أنس، وإسماعيل بن أبي خالد، نحو ذلك .

عن ابن عباس، قال: قرأت على أبيّ بن كعب{ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ– بالتاء –شَيْئاً وَلا تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ– بالتاء –وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ– بالياء .}–

وعن السدي، في قوله{ :لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً}، قال: "لا تُغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة مِن المنفعة شيئاً ."

وأخرج ابن جرير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أميّة من أهل الشام –أحسن

عليه الثناء-، قال: قيل:يا رسول الله! ما العدل؟ قال)) :العدْل: الفدية.((

و عن ابن عباس{ :وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}، قال: "بدل. والبدل: الفدية ."

وقال السدي: "أمّا{ عَدْلٌ}، فيعدلها، مِن: العدل؛ يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به ما تُقُبِّل منها ."

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وعن أبي العالية، في قوله{ :وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}، "يعني: فداء ."

وروي عن أبي مالك، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك .

وعن علي -رضي الله عنه- في حديث طويل، قال: "والصّرف والعدل: التّطوّع والفريضة ."

وكذا قال عمير بن هانئ .

قال ابن كثير: "وهذا القول غريب ها هنا، والقول الأوّل أظهر في تفسير هذه الآية. وقد ورد حديث يقوّيه، فذكر رواية ابن جرير المتقدِّمة .

قلت: وهو كما قال ابن كثير؛ فكلام علي -رضي الله عنه -متوجّه لتفسير هاتيْن الكلمتيْن في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- فيمن أحدث في المدينة مِن المسلمين أنه لا يُقبل منه صرْف ولا عَدْل .

وعن الأعمش، قال: في قراءتنا قبل الخمسين من (البقرة) مكان{ :لاَ تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ :} "لاَ يُؤْخَذُ."

عن ابن عباس، قال: "قالت الكهنة لفرعون: إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بمُلكِك. فجعل فرعون على كلِّ ألْف امرأة مائة رجل، وعلى كل مائة عشرة، وعلى كل عشر رجُلاً، فقال: انظروا كلّ امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حَمْلها ذكراً فاذبحوه! وإن أتت أنثى فخلّوا عنها، وذلك قوله{ :يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ }...الآية ."

وعن أبي العالية، في قوله{ :يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ }...الآية، قال" :إن فرعون ملَكهم أربعمائة سَنة، فقال له الكهنة: سيُولد العام بمصر غلام يكون هلاكُك على يديه. فبعث في أهل مصر للنساء قوابل، فإذا ولدت امرأة غلاماً، أُتي به فرعون فقتَله، ويستحيي الجواري ."

وعن ابن عباس، في قوله{ :بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}، قال: "نعمة ."

وعن مجاهد{ :بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}، قال: "نعمة مِن ربّكم عظيمة ."
وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك، والسدي وغيرهم...

أقوال المفسِّرين.

يذكِّر الله تعالى بني إسرائيل بسالف نِعَمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضَّلهم به مِن إرسال الرّسل منهم، وإنزال الكتب عليهم، على سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى{ :وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}، وقال تعالى{ :وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ.}

ويجب الحمل على هذا، لأنّ هذه الأمّة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمّة{ :كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ .}

وفي المسانيد والسّنن، عن معاوية بن حيدة القشيري، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–أنتم تُوفُون سبعين أمّة، أنتم خيْرها وأكْرمها على الله .((

والأحاديث في هذا كثيرة تُذكر عند قوله{ :كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .}

وقيل: المراد: تفضيل بنوعٍ ما مِن الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً؛ حكاه فخر الدين الرازي، وفيه نظر .

وقيل:إنهم فُضِّلوا على سائر الأمم لاشتمال أمّتهم على الأنبياء منهم؛ حكاه القرطبي في تفسيره، وفيه نظر، لأنّ{ الْعَالَمِينَ :}عامّ يشمل مَن قبلهم ومَن بعدهم من الأنبياء؛ فإبراهيم الخليل قبْلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيّد ولد آدم في الدنيا والآخرة –صلوات الله وسلامه عليه.–

ولما ذكّرهم تعالى بنِعَمه أولاً، عطف على ذلك: التحذير مِن حلول نِقمه بهم يوم القيامة، فقال{ :وَاتَّقُوا يَوْماً}، يعني:يوم القيامة،{ لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً}، أي: لا يُغني أحد عن أحَد، كما قال{ :وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .}وقال{ :لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}، وقال{:يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ

جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً}؛ فهذا أبلغ المقامات: أنّ كُلاًّ مِن الوالد وولده لا يغني أحدُهما عن الآخر شيئاً.

و{تَجْزِي }مِن: جَزى بمعنى: قضى، والمعنى: لا تقضي يوم القيامة نفسٌ عن نفس شيئاً ممّا وجب عليها، ولا تنوب عنها، ولا تحتمل ممّا أصابها، أو لا تقضي عنها شيئاً من الجزاء .

وقوله{ :وَلا تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}، يعني: عن الكافرين، كما قال{ :فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}، وكما قال عن أهل النار{ :فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ { وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ.}

وقيل: كانت اليهود تزعم أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، فأُويسُوا.

وقوله{ :وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}، أي: لا يُقبل منها فداء، كما قال{ :إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ}، وقال{ :إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقال تعالى{ :وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا}، وقال{:فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا }...الآية. فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله، ويُتابعوه على ما بَعَثه به، ووافَوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنهم لا ينفعهم قرابة قريب، ولا شفاعةُ ذي جاه، ولا يُقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى{ :مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ}، وقال{ :لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ .}

وقوله تعالى{ :وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}، أي: ولا أحد يغضب لهم، فينْصرهم وينقذهم من عذاب الله. كما تقدّم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة، ولا ذو جاه، ولا يُقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التّلطّف، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم، كما قال{ :فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ}، أي: أنه تعالى لا يقبل فيمن كفَر به فديةً، ولا شفاعةً، ولا يُنقذ أحداً من عذابه منقذٌ، ولا يجيره منه أحد، كما قال{ :وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ}، وقال{ :فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ } وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}، وقال{ :مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ } بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ}، وقال{ :فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ .}

وقال الضحاك، عن ابن عباس، في قوله{ :مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ" :}مَا لكم اليوم لا تُمانعون منا؟ هيهات! ليس ذلك لكم اليوم ."!

قال ابن جرير: "وتأويل قوله{ :وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}، يعني: أنهم يومئذ لا يَنصرهم ناصر، كما

لا يشفع لهم شافع، ولا يُقبل منهم عدل ولا فدية؛ بطلت هنالك المحاباة، واضمحلّت الرّشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى العدل الجبار، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء؛ فيجزي بالسيئة مثلَها، وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى{ :وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ } مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُون } بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ."}

قال الآلوسي: "كأنه قيل: إنّ النفس الأولى لا تقدر على استخلاص صاحبتها من قضاء الواجبات وتدارك التبعات، لأنها مشغولة عنها بشأنها. ثم إن قدرتْ على نفْي ما كان بشفاعة، لا يُقبل منها وإن زادت عليه بأن ضمّت الفداء، فلا يُوخذ منها. وإن حاولت الخلاص بالقهر والغلبة –وأنّى لها ذلك؟– فلا تتمكّن منه."

ثم يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم،{ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}، أي: خلّصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم، صحبة موسى –عليه السلام–، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويُذيقونكم) ويولُونكم) سوء العذاب .

وذلك أنّ فرعون –لعنه الله– كان قد رأى رؤيا هالتْه؛ رأى ناراً خرجت من بيت المقدس، فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلاّ بيوت بني إسرائيل؛ مضمونها: أن زوال مُلكه يكون على يديْ رجل من بني إسرائيل .

ويُقال: (بل) تحدّث سُمَّارُه عنده بأنّ بني إسرائيل يتوقّعون خروج رجُل منهم يكون لهم به دولة ورِفعة. وهكذا جاء في (حديث الفتون) –كما سيأتي في موضعه –إن شاء الله .–فعند ذلك أمَر فرعون –لعنه الله– بِقتل كلِّ ذكَر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأنْ يُترك البنات. وأمَر باستعمال بني إسرائيل في مشاقّ الأعمال وأراذلها.

وقد حُكي: أنّ فرعون جعل بني إسرائيل خدَماً وخوَلاً، وصنّفهم في الأعمال: فصِنْف يبنون، وصنْف يحرثون، وصنْف يخدمون .ومَن لم يكن منهم في عمل وُضع عليه الجزية يؤدِّيها كلّ يوم؛ ومَن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدِّيها غُلّت يده إلى عنقه شهراً. وجعل النساء يغزلن الكتّان وينسجن.

قوله{ :وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ :}عطف على{ :يُذَبِّحُونَ}، أي يستبْقون بناتِكم ويتركونهن حيّات، وقيل: يفتّشون في حيائهن، ينظرون هل بهن حمْل –والحياء: الفرْج، لأنه يُستحيي مِن كشْفه .–

والنساء: جمع: "المرأة"، وفي "البحر" إنه جمْع تكسير لنسوة، وقيل: اسم جمْع وعلى القوليْن لم يُلفظ له بواحد مِن لفْظه .وهي في الأصل: البالغات دون الصغائر. فهي على الوجه الأوّل: مجاز، باعتبار الأوّل للإشارة إلى أنّ استبقاءهن كان لأجل أن يصِرن نساء لخدمتهم. وعلى الثاني: فيه تغليب البالغات على الصغائر. وعلى الثالث: حقيقة. وقُدّم الذبح لأنه أصعب الأمور وأشقّها عند الناس، وإن كان ذلك الاستحياء أعظم مِن القتل لدى الغيور .

وها هنا فسّر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة (إبراهيم) عطف عليه، كما قال{ :يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .}

وإنما قال ها هنا{ :يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ }ليكون ذلك تفسيراً للنِّعمة عليهم في قوله{ :يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}، ثم فسّره بهذا، لقوله هنا{ :اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .}وأمّا في سورة (إبراهيم)، فلمّا قال{ :وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ}، أي:بأياديه ونِعَمه عليهم، فناسب أن يقول: هناك{ :يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ}، فعطف عليه الذبح ليدلّ على تعدّد النِّعم والأيادي (على بني إسرائيل.(

وقوله تعالى{ :وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}، قال ابن جرير :وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إيّاكم ممّا كنتم فيه من عذاب آل فرعون{ :بَلاءٌ }لَكُمْ{ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}، أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك .

وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى{ :وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}، وقال{ :وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ .}

)وقيل: المراد بقوله{ :وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ : }إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين مِن ذبح الأبناء واستحياء النساء .

قال القرطبي: "وهذا قول جمهور الناس. -ولفظه بعدما حكى القول الأوّل، ثم قال-: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ها هنا في الشّرّ، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان."

قال الآلوسي:"وإذا نُسب إليه تعالى -أي: البلاء- تارة يكون بالمسارِّ ليشكروا، وتارة بالمضارِّ ليصبروا، وتارة بهما ليَرغبوا ويَرهبوا. فإن حملت الإشارة على المعنى الأوّل، فالمراد بالبلاء: المحنة، وإن على الثاني، فالمراد به: النعمة، وإن على الثالث، فالمراد به: القدْر المشترك،

كالامتحان الشائع بينهما. ويرجّح الأول: التبادر، والثاني: أنه في معرض الامتنان، والثالث: لطفُ جمْع الترغيب والترهيب."

المعنى الإجمالي.

يُذكِّر سبحانه بني إسرائيل بجملة مِن نِعمه الكثيرة عليهم؛ ومنها: أنه فضّلهم على أمم زمانهم بأمور كثيرة، منها ما تقدّم ذكْره، حيث جعل فيهم الأنبياء وجعل منهم الملوك، وأنّ ذلك ممّا يستوجب منهم أن يقدروا الله حق قدْره فيتّقوا عذابه، ويحذروه في يوم القيامة، حيث لا يُغني أحد عن أحد، ولا تنفع شفاعة مَن يشفع ولا يُقبل الفداء لأحد من الكافرين، ولا ناصر لهم يومئذ. ثم ذكّرهم سبحانه بنعمة عظيمة أنعمَها عليهم، وهي أنه أنقذهم مِن فرعون وأنصاره وأعوانه وبطشهم بهم؛ فقد كان يذبّح الذكور من ذرِّيّة بني إسرائيل، ويستبقي النساء أحياء. وهذه نعمة من ربهم عظيمة، لا يسعُهم شكرها حيث أنقذهم من الانقراض وأهلك عدوّهم.

من مسائل الآية.

الأولى :

بحث الرازي ها هنا مع المعتزلة في إثبات الشفاعة، فأورد لهم شُبَهاً، وأجاب عنها .

قال ابن كثير: "وقد بسطتُ الكلام على الأحاديث المتواترة في الشفاعة، وأقسامها، وتعدادها، وأنواعها، في كتابنا في" البعث والنشور."

قال الزمخشري: "فإن قلت: هل فيه دليل على أنّ الشفاعة لا تُقبل للعصاة؟ قلت: نعم، لأنه نفَى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلّت به مِن فعْل أو ترْك، ثم نفَى أن يُقبل منها شفاعة شفيع؛ فعُلم أنها لا تُقبل للعصاة. فإن قلت: الضمير في { :وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا }إلى أي النفسيْن يرجع؟ قلت: إلى الثانية العاصية غير المجزيّ عنها، وهي التي{ لاَ يُؤْخذُ مِنها عَدْلٌ .}ومعنى : {لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}، إن جاءت بشفاعة شفيع لم يُقبل منها."

قال الآلوسي: "وتمسّك المعتزلة بعموم الآية على نفْي الشفاعة لأهل الكبائر، وكون الخطاب للكفّار والآية نازلة فيهم، لا يدفع العمومَ المستفاد مِن اللفظ."

وأُجيب بالتخصيص من وجهيْن:

الأول :بحسب المكان والزمان: فإنّ مواقف القيامة ومقدار زمانها فيها سعة وطول، ولعل هذه الحالة في ابتداء وقوعها وشدّته، ثم يُؤذن بالشفاعة. وقد قيل مثل ذلك في الجمْع بين قوله تعالى{ :فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ }وقوله تعالى{ :وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}؛ وكون مقام الوعيد يأبى عنه غير مُسلَّم.

والثاني :بحسب الأشخاص: إذ لا بدّ لهم من التخصيص في غير العصاة، لمزيد الدرجات؛ فليس العامّ باقياً على عمومه عندهم، وإلاّ اقتضى نفْي زيادة المنافع، وهم لا يقولون به .ونحن نُخصِّص في العصاة بالأحاديث الصحيحة البالغة حدّ التواتر، وحيث فتح باب التخصيص.

ونقول أيضاً: ذلك النفي مخصّص بما قبل الإذن، لقوله تعالى{ :وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .}قال :وأيضاً في قوله تعالى{ :وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }ما يشير إلى الشفاعة التي ندّعيها، ويحث على التخصيص الذي نذهب إليه. رزقنا الله تعالى الشفاعة، وحشرنا في زمرة أهل السُّنّة والجماعة.

قلتُ: الشفاعة قسمان:

شفاعة منفيّة، وشفاعة مُثبَتة.

فالشفاعة المنفيّة هي: الشفاعة للكافرين، وهي المرادة هنا في هذه الآية.

وشفاعة مُثبَتة وهي: الشفاعة للمسلمين، ولأبي طالب خاصّة من الكافرين لتهوين العذاب عليه، لا لخروجه من النار.

ولها شروط في الشّافع وفي المشفَّع فيه.

ولا بد فيها مِن الإذن، قال تعالى{ :مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .وقال{ :وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى.}

وللنبي –صلى الله عليه وسلم– خمسة أنواع من الّشّفاعة؛ وتفصيل ذلك وغيره مكانه كتب العقيدة –والله الموفِّق.–

الثانية :

قوله{ :فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ:}

الكلام على حذف مضاف، أي: فضلت آباءكم، أو باعتبار أنّ نعمة الآباء نعمة عليهم، قال الزجاج: والدليل على ذلك :قوله تعالى{ :وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ }...إلخ. والمخاطَبون لم يروْا

فرعون ولا آلَه، ولكنه تعالى أذكرهم أنه لم يزل منعِماً عليهم.

فقوله{ :أَنْجَيْنَاكُمْ}، أي: أنجينا آباءكم، وكذا نظائره؛ فلا حجة فيها لمن يقول بتناسخ الأرواح، وهو مذهب واضح الفساد. ومخاطبة الأبناء بما صار مع الآباء في كلام العرب شائع، كقول حسّان :

ونحن قتلناكم ببدْرٍ فأصبحتْ	عساكِرُكم في الهالكين تجولُ

والمراد بـ{الْعَالَمِينَ :}سائر الموجودين في وقت التفضيل، وتفضيلهم بما منحَهم من النِّعم المشار إليها بقوله تعالى{ :وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً}، فلا يلزم مِن الآية تفضيلهم على النبي –صلى الله تعالى عليه وسلم –ولا على أمّته الذين هم خير أمة أخرجت للناس. وكذا لا يصح الاستدلال بها على أفضلية البشَر على الملائكة مِن جميع الوجوه؛ ولو صحّ ذلك، يلزم تفضيل عوامّهم على خواصّ الملائكة، ولا قائل به.

الأسئلة :

١. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب : ولا تقبل منها شفاعة بالتأنيث لإسناده إلى شفاعة وهي مؤنثة لفظا وقرأ الباقون بالتذكير لأن التأنيث غير حقيقي وحسنه وجود الظرف فاصلا (صح) .

٢. قرأ الجمهور (ويذبحون أبناءكم) بواو العطف مثل آية إبراهيم (خطأ) .

٣. الآيات تدور حول بني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله عليهم وتحذيرهم من نقمته (صح) .

٤. قد كرر التذكير للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم عن القيام بحقوق النعمة (صح) .

٥. كرر التذكير ليربط ما بعده من الوعد الشديد به لتتم الدعوة بالترغيب والترهيب فكأنه قال سبحانه إن لم تطيعوني لأجل سوابق نعمتي فأطيعوني للخوف من لواحق عقابي (صح) .

٦. يوماً منصوب على الظرف والمتقى محذوف تقديره : واتقوا العذاب يوماً (صح) .

٧. العالمين هم كل من سوى الله تعالى ، وفيها دليل على أن تفضيل بني إسرائيل كان على جميع المخلوقات (خطأ) .

٨. العدل ضد الظلم (خطأ) .

٩. وقال ثعلب : العدل الكفيل والرشوة ولم يؤثر في الآية (صح) .

١٠. أصل الآل من الأهل ولا يضاف إلى غير العقلاء ولا إلى من لا خطر له منهم (صح)

١١. الآل من يؤول إليك في قرابة أو رأى أو مذهب فألفه بدل من واو ولذلك قيل في تصغيره أويل ونقله الكسائي نصا عن العرب (صح) .

١٢. ولا هم ينصرون : النصر في الأصل المعونة ومنه أرض منصورة ممدودة بالمطر والمراد به هنا ما يكون بدفع الضرر أي ولا هم يمنعون من عذاب الله (صح) .

١٣. فرعون اسم ملك مصر الذي كان في زمن موسى عليه السلام (خطأ) .

١٤. الصحيح أن فرعون موسى هو فرعون يوسف عليه السلام (خطأ) .

١٥. وآل الرجل من ينتسب إليه بنسب أو سبب وقيل : من هو على دينه ملته وقد يطلق على الرجل نفسه ويضاف إلى المعظم (صح) .

١٦. يسومونكم : من سام السلعة ليشتريها (صح) .

١٧. تقول العرب : سامه ، أي : كلفه العمل الشاق (صح) .

١٨. يسومونكم ، أي : يديمون عليكم العذاب من سائمة الغنم ، وهو المعنى الأرجح (خطأ)

١٩. قوله سوء العذاب فيه تنبيه إلى أن من العذاب من لا يكون سيئاً بل قد يكون خيراً وكفارة للإنسان (خطأ) .

٢٠. البلاء : الامتحان والاختبار ولا يقال إلا للشر (خطأ) .

٢١. الآية فيها دليل على أن بني إسرائيل قد فضلهم الله على جميع الناس والأمم قبلهم (خطأ) .

٢٢. قوله يستحيون نساءكم من الحياء أي يستذلونهم ويهينونهم (خطأ) .

٢٣. قوله (ولا هم ينصرون) أي : لا ينصرهم أحد ولا يفزع لهم أحد (صح)

٢٤. دخول ضمير الفصل بين لا وينصرون للدلالة على أنه لا ينصرهم أحد مهما كان قريباً أو بعيداً (خطأ) .

٢٥. قدم الذبح من باب تقديم الأدنى على الأعلى لأن الاستحياء أشد من القتل عند الغيور (خطأ) .

٢٦. عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا تلا   اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم   قال مضى القوم وإنما يعنى به أنتم (صح) .

٢٧. الآيات فيها دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة كما رجحه الزمخشري (خطأ) .

٢٨. الصحيح أن الشفاعة أنواع : شفاعة منفية وشفاعة مثبتة (صح) .

٢٩. لا تكون الشفاعة إلا بثلاثة شروط : أن يأذن الله للشافع ، وأن يأذن أن يشفع لهذا المشفوع له ، وأن يرضى قول الشافع (صح) .

٣٠. قوله : فضلتكم على العالمين فيه حذف مضاف ، أي : فضلت آباءكم لأن النعمة على الآباء نعمة على الأولاد فتمت بذلك الحجة (صح) .

المحاضرة السادسة والعشرون

***

تفسير الآيات: من (٥٠) إلى (٥٤) من سورة البقرة.

التلاوة، القراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُون * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.}

قراءات:

قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب{ :وَعَدْنَا- }بغير ألِف بعد الواو، بدون مفاعلة-، لأن الوعد من الله وحده، وقرأ الباقون بالألِف بعد الواو على المفاعلة، لأن الله تعالى وعده الوحي ووعد هو المجيء للميقات إلى الطور؛ فالمفاعلة على بابها. ويجوز أن يكون{ وَاعَدْنَا }من باب الموافاة، وليس مِن "الوعْد" في شيء، وإنما هو من قولك: "موعدك يوم كذا، وموضع كذا". ويحتمل أن يكون بمعنى: وَعَدْنا، كما في القراءة الأخرى؛ فتكون المفاعلة ليست على بابها كما في قولك: "عالجت المريضَ وداويته."

المناسبة:

ما زال الحديث مع بني إسرائيل، لتقريعهم، وتذكيرهم بتاريخهم، وبما أنعم الله عليهم، لعلّهم يُذعنون للحق، ويؤمنون بالنبي الخاتِم- صلوات الله وسلامه عليه.-

لغويّات.

{ فَرَقْنَا :}فصَلنا بين بعضه وبعض، حتى صارت فيه مسالِك لكم.

{بِكُمُ :}الباء للسببية الباعثة بمنزلة اللام، إذا قلنا بتعليل أفعال الله تعالى، وللسببية الشبيهة بها في الترتيب على الفعل وكونه مقصوداً منه، إن لم نقل به. وإنما قال سبحانه{ :بِكُمْ }دون

"لكم"، لأن العرب على ما نقله الدامغاني تقول: "غضبتُ لزيد" إذا غضبت مِن أجْله وهو حيّ، و"غضبتُ بزيد" إذا غضبت مِن أجله وهو ميت. ففيه تلويح إلى أنّ الفرْق كان مِن أجل أسلاف المخاطَبين. ويحتمل أن تكون للاستعانة، على معنى :بسلوككم. وقال الرازي: "إنهم كانوا يسلكون، ويتفرّق الماء عند سلوكهم، فكأنّه فرق بهم". قال الآلوسي: "يُردُّ عليه: أنّ تفرّق الماء كان سابقاً على سلوكهم، على ما تدلّ عليه القصة."

{الْبَحْرَ :}اختلفوا في هذا البحر، فقيل: القُلزُم، وهو: البحر الأحمر، وكان بين طرفيْه أربعة فراسخ. وقيل: النيل، والعرب تُسمِّي الماء الملح والعذب: "بحراً" إذا كثر، ومنه{ :مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ}، وأصله :السعة، وقيل: الشّق. ومن الأول: "البحْرة" للبلدة، ومن الثاني" :البَحِيرة" التي شُقّت أذنها.

{مُوسَى :}اسم أعجمي لا ينصرف للعلَمية والعجمة، ويقال: هو مُركَّب من: "مو" وهو : الماء، و "شي" وهو: الشجر، وغُيِّر إلى "سي" بالمهملة؛ وكأن مَن سمّاه به أراد ماء البحر والتابوت الذي قُذف فيه، وخاض بعضهم في وزنه بما لا نطيل بذِكْره.

والشّكر :عرفان الإحسان ونشره، قال ثعلب: "الشكر لا يكون إلاّ عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد؛ فهذا الفرق بينهما". وقال ذو النون: "الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافآت، ولمن دونك بالإحسان."

والقوم :اسم جمْع لا واحد له مِن لفظه، وإنما واحده: امرؤ"، وقياسه: أن لا يُجمع، وقد جُمع على: أَقْوام. وشذّ جمعُه على: أَقَاوِيم. والمشهور: اختصاصه بالرجال، لقوله تعالى{:لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ }مع قوله{:وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ .}وقال زهير:

فَمَا أدري وَسَوفَ أَخَالُ أدري	أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

وقيل: لا اختصاص له بهم، بل يُطلق على النساء أيضاً، لقوله تعالى{ :إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ}، والأوّل أصوب، واندراج النساء على سبيل الاستتباع والتغليب والمجاز خيْر من الاشتراك .وسمِّي الرجال: "قوماً"، لأنهم يقومون بما لا يقوم به النساء، ولأنهم قوّامون عليهن.

{الْعِجْلَ :}ولد البقرة الصغير.

وكون ما اتّخذوه عجلاً ظاهر في أنه صار لحماً ودماً، فيكون عجلاً حقيقة، ويكون نسبة الخُوار إليه في الآيات حقيقة أيضاً؛ وهو الذي ذهب إليه الحسن. وقيل: أراد سبحانه

بالعجل: ما يشبهه في الصورة والشكل، ونسبة الخُوار إليه مجاز؛ وهو الذي ذهب إليه الجمهور. والكلام على ذلك في موضعه.

و البارئ :هو الذي خلَق الخلْق بَرِياً من التفاوت وعدم تناسب الأعضاء وتلاؤم الأجزاء، بأن تكون إحدى اليدين في غاية الصِّغر والرِّقّة والأخرى بخلافه، ومتميزاً بعضه عن بعض بالخواصّ والأشكال والحُسن والقُبح... فهو أخصّ مِن" الخالق ."وأصل التركيب لخلوص الشيء وانفصاله عن غيره .

{خَيْرٌ :}أفعل تفضيل، حُذفت همزته، ونطقُوا بها في الشِّعر؛ قال الراجز :

بلال خير الناس وابن الأَخْيَرِ	...

وقد تأتي ولا تفضيل، والمعنى: أنّ ذلكم خير لكم مِن العصيان والإصرار على الذنب، أو خير من ثمرة العصيان، وهو: الهلاك الدائم.

الآثار.

عن قتادة، في قوله{ :وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}، قال: "إي والله! لَفَرَق بهم البحر حتى صار طريقاً يَبَساً يمشون فيه، فأنجاهم وأغرق آل فرعون عدوّهم. نِعَم من عند الله يُعرّفهم لكيما يشكروا ويعْرِفوا حقّه."

وعن عمرو بن ميمون الأودي، في قوله تعالى{ :وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ }إلى قوله :{تَنْظُرُونَ}، قال: "لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعونَ فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الدّيَكة. قال: فو الله ما صاح (لَيْلَتِئِذ) ديك حتى أصبحوا. فدعا بشاة فذُبحت، ثم قال : لا أفرغ مِن كبِدها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألْف مِن القبط . فلم يفرغ مِن كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألْف من القبط. فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه -يقال له: يوشع بن نون-: أين أمَرك ربك؟ قال: أمَامك -يشير إلى البحر-. فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمْر، فذهب به الغمر. ثم رجع فقال: أين أمَر ربك يا موسى؟ فو الله ما كَذبتَ وما كُذِبتَ. فعَل ذلك ثلاث مرات. ثم أوحى الله إلى موسى{ :أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}، يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه، واتّبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تَتَامُّوا فيه أطبقه الله عليهم؛ فلذلك قال{ :وَأَغْرَقْنَا آلَ

فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ.}

قال ابن كثير: "وكذلك قال غير واحد من السلف، كما سيأتي بيانه في موضعه ."

وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، والبيهقي، عن ابن عباس، قال)) :قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومون؟ قالوا: هذا يوم صالح، نجّى الله فيه بني إسرائيل مِن عدوّهم؛ فصامه موسى. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: نحن أحق بموسى منكم. فصامه وأمَر بصوْمه .((

وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه، عن أنس، عن النبي –صلى الله عليه وسلم-، قال)) :فلَق الله البحْر لبني إسرائيل يوم عاشوراء .((

وعن سعيد بن جبير: "أنّ هرقل كتب إلى معاوية وقال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عمّا أسألهم عنه! قال :وكتب إليه يسأله عن المجرّة، وعن القوس، وعن البقعة التي لم تُصبها الشمس إلاّ ساعة واحدة. قال: فلما أتى معاويةَ الكتابُ والرسول قال: إن هذا شيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا، مَن لهذا؟ قالوا: ابن عباس. وطوى معاوية كتاب هرقل، وبعثه إلى ابن عباس. فكتب إليه: إن القوس أمان لأهل الأرض مِن الغرق. والمجرّة باب السماء الذي تشقّ منه. وأما البقعة التي لم تُصبها الشمس إلاّ ساعة من نهار، فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل ."

وعن أبي العالية في قوله{ :وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}، قال: "ذا القعدة، وعشراً من ذي الحجة؛ وذلك حين خلّف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأُنزل عليهم التوراة في اللوح؛ فقرّبه الرب نجياً وكلّمه، وسمع صرير القلم. وبلغنا أنه لم يحدث حدثا في الأربعين ليلة حتى هبط الطور."

وعن الحسن، قال: "اسم عجل بني سرائيل الذي عبدوه: يهبوب ."

وعن أبي العالية، في قوله{ :ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ" :}يعني: من بعد ما اتخذتم العجل."

وعن مجاهد، في قوله{ :وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ}، قال" :الكتاب هو: الفرقان، فرَق بين الحق والباطل ."

وعن ابن عباس قال: "الفرقان جمَاع اسم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ."

قال الحسن البصري -رحمه الله-، في قوله تعالى{ :وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ}، فقال: "ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، حين قال الله{ :وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا}، قال: فذلك حين يقول موسى{ :يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ."}

وأخرج الطستي، عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال له: "أخبرْني عن قوله- عز وجل :- {إِلَى بَارِئِكُمْ}، قال: خالِقكم "

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت قول تبع:

شهدتُ على أحمدَ أنه	رسولٌ من الله باري النَّسَم

وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس{ :فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ}،" أي: إلى خالِقكم ."

وعن ابن عباس، قال: "فقال الله تعالى: إنّ توبتهم أنْ يقتل كلُّ رجل منهم مَن لقي من ولد ووالد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي مَن قتل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ما اطّلع الله من ذنوبهم؛ فاعترفوا بها وفعلوا ما أُمروا به، فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول ."

قال ابن كثير: "وهذا قطعة من حديث الفتون، وسيأتي في تفسير سورة (طه) بكماله -إن شاء الله ."-

قلت: حديث "الفتون" حديث صحيح، ظاهره الوقف على ابن عباس، وهو مطعم بمرفوعات ترجّح الحُكم برفْعه -والله أعلم.-

وعن ابن عباس، قال: "قال موسى لقومه{ :تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، قال: أَمَر موسى قومَه عن أمْر ربه -عز وجل- أنْ يقتلوا أنفسهم، (قال): واحْتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا عن العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً؛ فانجلت الظلمة عنهم، وقد أُجْلُوا عن سبعين ألْف قتيل، كلّ من قُتل منهم كانت له توبة، وكل مَن بقي كانت له توبة ."

وعن سعيد بن جبير ومجاهد، في قوله{ :فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}، قالا: "قام بعضهم إلى بعض

بالخناجر، فقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم؛ فكشف عن سبعين ألف قتيل .وإن الله أوحى إلى موسى: أن حسبي، فقد اكتفيت؛ فذلك حين ألوى موسى بثوبه."

وعن علي –رضي الله عنه–، قال: "قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه –والله لا يبالي مَن قتل–، حتى قتل منهم سبعون ألفاً؛ فأوحى الله إلى موسى: مُرْهم فليرفعوا أيديهم! وقد غُفر لمن قُتل، وتِيب على من بقي ."

وعن قتادة، في قوله{ :إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ }...الآية، قال: "أُمر القوم بشديدة من البلاء، فقاموا يتناحرون بالشِفَار، ويقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله نقمتَه فيهم وعقوبته؛ فلما بلغ ذلك سقطت الشِفَار من أيديهم، وأمسك عنهم القتل، فجعله الله للحي منهم توبة، وللمقتول شهادة."

وقال الحسن البصري: أصابتهم ظلمة حِنْدِس، فقتل بعضهم بعضاً، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك ."

وقال السدي، في قوله{ :فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}، قال: "فاجتلد الذين عبدوه، والذين لم يعبدوه بالسيوف؛ فكان من قُتل من الفريقيْن شهيداً حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل! ربنا البقية البقية! فأمرهم أن يضعوا السلاح، وتاب عليهم. فكان مَن قُتل منهم من الفريقيْن شهيداً ، ومن بقي مُكفَّراً عنه؛ فذلك قوله{ :فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ."}

وقال الزهري: "لما أمرَت بنو إسرائيل بقتْل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم، فقالوا: يا نبي الله! ادع الله لنا!. وأخذوا بعضديه يسندون يديه. فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم، قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح. وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم؛ فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك؟ أمّا من قُتل منكم فحيّ عندي يُرزقون، وأمّا مَن بقي فقد قبلت توبته. فَسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل ."

وقال ابن إسحاق: "لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل، وذرّاه في اليم، خرج إلى ربه بمن

اختار من قومه، فأخذتْهم الصاعقة. ثم بُعثوا، فسأل موسى ربّه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل. قال: لا، إلاّ أن يقتلوا أنفسهم! قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمْر الله. فأمر موسى من لم يكن عبَد العجل أن يَقتل مَن عبده .فجلسوا بالأفنية، وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم. وبكى موسى وبَهَشَ إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم، فتاب عليهم، وعفا عنهم، وأمّر موسى أن تُرفع عنهم السيوف ."

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "لما رجع موسى إلى قومه، وكان سبعون رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجْل لم يعبدوه، فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم !فقالوا: يا موسى ما من توبة؟ قال: بلى، اقتلوا أنفسكم،{ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ }...الآية. فاخترطوا السيوف، والجِرَزَة، والخناجر، والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضَبَابة. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويَلقى الرجل أباه أو أخاه فيقتله، ولا يدري. قال :ويتنادون فيها: رحم الله عبداً صبر حتى يبلغ الله رضاه. قال: فقتلاهم شهداء، وتِيب على أحيائهم، ثم قرأ{ :فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .}

أقوال المفسّرين.

قوله تعالى{ :وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}، معناه :وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى –عليه السلام–، خرج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر. كما أخبر تعالى عن ذلك مفصّلاً، كما سيأتي في مواضعه، ومِن أبسطها: ما في سورة) الشعراء .(

وروي: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: أين أصحابنا؟ لا نراهم !قال: سيروا، فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم. فقال: اللهم أعنّي على أخلاقهم السّيِّئة؛ فأوحى إليه أن قُل بعصاك هكذا. فقال بها على الحيطان، فصارت فيها كُوًى، فتراءَوْا، وتسامعوا كلامهم.

{فَأَنْجَيْنَاكُمْ}، أي:خلّصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون، ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوِّكم.

قال الآلوسي" :وقد حكَوْا في كيفية خروج بني إسرائيل وتعنّتهم وهم في البحر، وفي كيفية

خروج فرعون بجنوده، وفي مقدار الطائفتيْن حكايات مطوّلة جداً، لم يدلّ القرآن ولا الحديث الصحيح عليها –والله تعالى أعلم بشأنها ."–

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أمد المواعدة –وكانت أربعين يوماً– وهي مذكورة في) الأعراف) في قوله تعالى{ :وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ}، قيل: إنها ذو القعدة بكماله، وعشْر من ذي الحجة؛ وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر .

وقوله{ :وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، يعني: التوراة،{ وَالْفُرْقَانَ}، وهو: ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال،{ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .}

وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة (الأعراف)، ولقوله تعالى{ :وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.}

وقيل: الواو زائدة، والمعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان؛ وهذا غريب .

وقيل: عَطَفَه عليه، وإن كان المعنى واحداً، كما في قول الشاعر:

وقَدَّمَت الأديم لراهِشِيه	فألفى قولها كذباً ومَيْنَا

وقال الآخر :

ألاَ حبّذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ	وهندٌ أتى مِن دونها النَّأْيُ والبعدُ

فالكذب هو: الميْن، والنأي هو :البعد.

وقال عنترة :

حُيّيتَ من طَلَلٍ تقادم عهدُه	أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثمِ

فعطف الإقفار على الإقواء وهو هو.

يعني: الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل، يعني: التوراة، كقولك: "رأيت الغيث والليث"، تريد: الرجل الجامع بين الجود والجراءة، ونحوه قوله تعالى{ :وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً}، يعني: الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكراً، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان، من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان انْفِرَاق البحر. وقيل: النصر الذي فرق بينه

وبين عدوّه، كقوله تعالى{ :يَوْمَ الْفُرْقَانِ }يريد به: يوم بدر.
وأمّا صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، فقد بيّنتْها الآثار المتقدِّمة.
واتّخاذ السامريّ لهم العجل دون سائر الحيوانات، قيل :لأنهم مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم على صُوَر البقر فقالوا{ :اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}، فهجس في نفس السامري أنّ فتنتهم من هذه الجهة، فاتّخذ لهم ذلك. وقيل :إنه كان هو من قوم يعبدون البقر، وكان منافقاً، فاتخذ عجلاً من جنْس ما يَعبده.
قال الآلوسي: "والمتبادر من القتل: القتل المعروف من إزهاق الرّوح؛ وعليه جمْع من المفسِّرين. والفعل معطوف على سابقه؛ فإن كانت توبتهم هو القتل إمّا في حقّهم خاصّة أو توبة المرتدّ مُطلقاً في شريعة موسى –عليه السلام– فالمراد بقوله تعالى{ :فَتُوبُوا :}اعزموا على التوبة، ليصح العطف. وإن كانت هي الندم، والقتل مِن متمِّماتها كالخروج عن المظالم في شريعتنا، فهو على معناه، ولا إشكال. وقد يُقال: إن التوبة جُعلت لهؤلاء عيْن القتل، ولا حاجة إلى تأويل" توبوا" بـ"اعزِموا."
قال: وظاهر الأمر: أنهم مأمورون بأن يباشر كلّ قتْل نفْسه .وفي بعض الآثار: أنهم أُمروا أن يقتل بعضُهم بعضاً؛ فمعنى" :اقتلوا أنفسكم" حينئذ: لِيقتلْ بعضُكم بعضاً، كما في قوله تعالى{ :وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}،{ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}، والمؤمنون كنفس واحدة. ورُوي: أنه أمر مَن لم يَعبد العجل أن يَقتل مَن عَبَده، والمعنى عليه: استسلموا أنفسكم للقتل. وسُمّي الاستسلام للقتل قتلاً على سبيل المجاز، والقاتل إمّا غير معيّن، أو الذين اعتزلوا مع هارون –عليه السلام– والذين كانوا مع موسى –عليه السلام."–
وفي قوله ها هنا{ :إِلَى بَارِئِكُمْ :}تنبيه على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلَقكم، وقد عبدْتم معه غيرَه .
فإن قلت: من أين اخْتُصّ هذا الموضع بذِكر البارئ؟
قلت: البارئ: هو الذي خلَق الخَلْق بريئاً من التفاوت؛ وما ترى في خلْق الرحمن من تفاوت، ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصّوَر المتباينة. فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترْك عبادة العالِم الحكيم الذي برأهم بلطف حِكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقرة التي هي مثَل في الغباوة والبلادة في أمثال العرب –يقولون:

"أبلد من ثور"-، حتى عرّضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمْره بأن يفكّ ما ركّبه مِن خلْقهم وينثر ما نظم مِن صوَرهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها.

المعنى الإجمالي.

طائفة أخرى من النِّعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل يُذكّرِهم بها، ومن ذلك أنه سبحانه خرَق لهم نواميس هذا الكون، فجعل لهم البحر فرقتيْن، وخلق لهم فيه طريقاً ساروا عليه، فنجَوْا من فرعون وجنوده وأتباعه، حيث أطبق الله البحر على هؤلاء أمام أعينهم بعدما جاوزوه.

ومِن ذلك أيضاً: ما حدث عندما وَقّت الله لموسى -عليه السلام -موعداً لكلامه بأربعين ليلة وذهب موسى للميقات، عبدت بنو إسرائيل -مِن بعْد ترك موسى لهم- عجلاً صنعوه من الحُلي التي كانت معهم، بمشورة رجل معهم يقال له: السامري، في قصة يأتي تفصيلها في غير هذا الموضع. وقد نهاهم هارون -عليه السلام-، فلم يلتفتوا له. ومع ذلك، عفا الله -عز وجل- عنهم، وتجاوز عن هذا الجُرم العظيم، لعلّهم يفطنون لهذه النعمة العظيمة ويؤدّون شكْرها.

ومن ذلك أيضاً: أنّ الله أنعم عليهم بإنزال توراته على نبيّه موسى -عليه السلام-، فيها من الهدى والفرقان والآيات البينات والدلائل على صدْقها وصدْق من جاء بها، لعلّهم يأخذوا بتعاليمها وما فيها من خير، فيهتدوا بذلك ويُفلحوا في دنياهم وأخراهم.

ومن ذلك أيضاً: ما حصل عندما شرع الله لهم طريقة توبتهم من عبادة غيره -وهو العجل الذي اتخذوه إلهاً من دونه-، فقال لهم موسى -عليه السلام-: إنهم قد ظلموا أنفسهم بهذه الفعلة الشنعاء، وإن توبتهم إلى خالقهم الذي برأهم على الفطرة تكون بقتْل بعضهم البعض ليلقوا ربهم مطهَّرين من هذا الشرك العظيم الذي أحدثوه، فلقاؤهم ربهم مطهرين قد تاب الله عليهم وأحلّ عليهم رضوانه في أخراهم خيرٌ لهم من بقائهم في هذه الدنيا متلبِّسين بهذا الشرك. ثم رحمهم الله تعالى فرفَع عنهم القتل بعدما قُتل منهم من قُتل، وتاب على البقية رحمة منه وفضلاً؛ فهو التواب الرحيم .

مسائل الآيات.

الأولى :أنكر القاضي عبد الجبار من المعتزلة أن يكون الله تعالى أمَر بني إسرائيل بقتْل أنفسهم، وقال: لا يجوز ذلك عقلاً، إذ الأمر لمصلحة المكلَّف، وليس بعد القتل حال تكليف ليكون فيه مصلحة .

قال الألوسي رداً عليه: "ولم يدْرِ هذا القاضي بأنّ لنفوسنا خالقاً، بأمره نستبقيها و بأمره نُفنيها، وأنّ لها بعد هذه الحياة التي هي لعِب ولهو حياةً سرمدية وبهجة أبدية، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان، وأن قتْلها بأمره يوصلها إلى حياة خير منها. ومَن علِم أنّ الإنسان في هذه الدنيا كمجاهد أقيم في ثغر يحرسه، ووال في بلد يسوسه، وأنه مهما استردّ فلا فرق بين أن يأمره الملِك بخروجه بنفسه، أو يأمر غيره بإخراجه؛ وهذا واضح لمن تصوّر حالتي الدنيا والآخرة، وعرف قدر الحياتيْن والميتتيْن فيهما. ومن الناس من جوّز ذلك، إلاّ أنه استبعد وقوعه، فقال :معنى{ :فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ :}ذِلّلوا. ثم قال: ولولا أنّ الروايات على خلاف ذلك، لقلت به تفسيراً."

قلت:هذه المسألة تجرّنا لقضية معاصرة هامة، وهي :العمليّات الاستشهادية، وحُكمها شرعاً؛ وقد اختلف المعاصرون في مشروعيّتها. والذي يهمّنا هنا فيما يتعلق بالآية: أنّ قتل المسلم لنفسه ليس بمنزلة واحدة في كلّ الحالات :فحينما يكون قربة لله فهو مشروع؛ بل قد يُؤمر به ويلزمه، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى{ :وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً * وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً.}

وعليه، فالمذموم مَن قتَل نفسَه لغير مقصد شرعيٍّ مُعتبَر. وأمّا مَن قتَل نفسَه فيما أُمر به شرعاً، سواء بنفسه أو بغيره لأنهما سواء، فليس بمذموم. وعليه يُحمل فعْل الغلام في قصّة أصحاب الأخدود، وفعْل من يحمل بنفسه على العدو وهو في غالب ظنه مقتول لا محالة، وكذا مَن قتل نفسه ليُخفي ما لديه من أسرار تضرّ بمجموع الأمّة، كما قرّره بعض أهل العلْم. ولتحرير المسألة موضع آخر –والله الموفّق.–

الثانية :مِن لطائف ما في الآيات :أنه ناسب نجاتَهم بإلقائهم في البحر وخروجهم منه سالمين، نجاة نبيّهم موسى –على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام –مِن الذّبح بإلقائه وهو طفل في

البحر، وخروجه منه سالماً .ولكلّ أمّة نصيب من نبيّها. وناسب هلاك فرعون وقومه بالغرق، هلاك بني إسرائيل على أيديهم بالذبح، لأن الذبح فيه تعجيل الموت بإنهار الدم، والغرق فيه إبطاء الموت ولا دم خارج؛ وكان ما به الحياة –وهو الماء كما يشير إليه قوله تعالى{ :وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ }سببا لإعدامهم من الوجود؛ وفيه إشارة إلى تقنيطهم وانعكاس آمالهم كما قيل:

إلى الماء يسعى من يَغُصُّ بلُقمةٍ	إلى أين يسعَى مَن يَغُصُّ بماءِ

ولما كان الغرق مِن أعسر الموتات وأعظمها شدّة،– ولهذا كان الغريق المسلم شهيداً–، جعله الله تعالى نكالاً لمن ادّعى الربوبية وقال: أنا ربّكم الأعلى. وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ويُناسب دعوى الربوبية والاعتلاء انحطاط المِدَّعي وتغييبه في قعر الماء. ولك أن تقول: لما افتخر فرعون بالماء كما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنه{ :أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي}، جعل الله تعالى هلاكه بالماء؛ وللتّابع حظّ وافر مِن المتبوع .

الأسئلة :

١. قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وعدنا بغير ألف بعد الواو لأن الوعد من الله وحده ، وهي قراءة شاذة والصحيح قراءة الجمهور بالألف (خطأ) .

٢. قرأ الجمهور (واعدنا) بالألف ، وصحت المفاعلة هنا لأنها وعد من الله ووعد من موسى فالأول وعد بالوحي والثاني وعد بالمجيء (صح) .

٣. لا يجوز أن يكون (واعدنا) من باب الموافاة وليس من باب الوعد كقول القائل موعدك يوم كذا (خطأ) .

٤. الآيات في تقريع بني إسرائيل وتذكيرهم بتاريخهم وبما أنعم الله عليهم لعلهم يذعنون للحق ويؤمنون بالنبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه (صح) .

٥. (فرقنا بكم البحر) أي : جعلناه يابساً لتعبروا منه إلى البر (خطأ) .

٦. قال (فرقنا بكم) ولم يقل (فرقنا لكم) فيه تلويح إلى أن هذا الفرق كان من أجل أسلاف وآباء هؤلاء المخاطبين (صح) .

٧. البحر : المقصود به إما البحر الأحمر أو النيل ، والعرب تسمي الماء الكثير بحراً سواء كان مالحاً أو عذباً (صح) .

٨. الشكر لا يكون إلا عن إحسان بخلاف الحمد فإنه يكون عن إحسان وعدمه (صح) .

٩. الشكر يكون باللسان فقط وأما الحمد فإنه يكون باللسان والجوارح (خطأ)

١٠. القوم : اسم جمع يختص بالرجال لأنهم يقومون بما لا يقوم به النساء (صح) .

١١. البارئ : من أسماء الله تعالى وهو أخص من الخالق ، وهو الذي خلق الخلق بريأً من الخلل والعيب المخالف للحكمة (صح) .

١٢. ثبت أن فرق البحر لبني إسرائيل كان في يوم عاشوراء (صح) .

١٣. قوله (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) هي شهر ذي الحجة وعشر من محرم (خطأ) .

١٤. قوله (ثم آتينا موسى الكتاب والفرقان) الكتاب هو التوراة والفرقان هي صحف موسى (خطأ) .

١٥. (فاقتلوا أنفسكم) كان من توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي منهم ولا يبالي فتاب أولئك فغفر الله لهم (صح) .

١٦. قصة موسى جاءت مفصلة في حديث طويل يسمى حديث الفتون وهو حديث فيه ضعف وموقوف على ابن عباس (خطأ) .

١٧. قوله (وأنتم تنظرون) لأن ذلك أشفى لصدورهم وأبلغ في إهانة عدوهم (صح) .

١٨. وقد حكوا في كيفية خروج بني إسرائيل وتعنتهم وهم في البحر وفي كيفية خروج فرعون بجنوده وفي مقدار الطائفتين حكايات مطولة جدا بعضها ضعيف وبعضها حسن أو صحيح (خطأ) .

١٩. واتخاذ السامري لهم العجل دون سائر الحيوانات قيل لأنهم مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم على صور البقر فقالوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فهجس في نفس السامري أن فتنتهم من هذه الجهة فاتخذ لهم ذلك (صح) .

٢٠. السبب الذي جعلهم السامري يزين لهم عبادة العجل أنه كان من قوم يعبدون البقر وكان منافقا فاتخذ عجلا من جنس ما يعبده (صح) .

٢١. أنكر القاضي عبد الجبار من المعتزلة أن يكون الله تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم وقال لا يجوز ذلك عقلا ، وكلامه باطل مردود عليه (صح) .

٢٢. في الآية دلالة على أن قتل النفس إذا كان لغرض شرعي فيه طاعة لله فليس بمذموم بل هو محمود مطلوب (صح) .

٢٣. ليس في الآية دليل على جواز مباشرة الإنسان قتل نفسه لأن بني إسرائيل لم يؤمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه وإنما أن يقتل بعضهم بعضاً وفرق بين الأمرين (خطأ) .

٢٤. عبر بقوله (أنفسكم) مع أنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً لأن المؤمن للمؤن كنفس واحدة كما قال تعالى : (ولا تلمزوا أنفسكم) (صح) .

٢٥. من المناسبات في الآيات أن نجاتهم بإلقائهم في البحر وخروجهم منه سالمين مثل نجاة نبيهم موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام من الذبح بإلقائه وهو طفل في البحر وخروجه منه سالما ولكل أمة نصيب من نبيها (صح) .

٢٦. ولما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة ولهذا كان الغريق المسلم شهيدا جعله الله تعالى نكالا لمن ادعى الربوبية وقال أنا ربكم الأعلى وعلى قدر الذنب يكون العقاب (صح) .

٢٧. الصحيح أن الفرقان الذي أعطاه الله لموسى عليه السلام هو النصر على فرعون مثل ما سمى يوم بدر يوم الفرقان (خطأ) .

٢٨. يدخل في معنى الفرقان الذي أعطاه الله لموسى ما أعطاه من الآيات من اليد والعصا وغيرها (صح) .

٢٩. قلت : البارئ هو الذي خلق الخلق بريئا من التفاوت ومتميزا بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة (صح) .

٣٠. في الآيات دليل على أن الله يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء وأن العبد مأمور بطاعة الله في كل ما أمر به وأن لا مجال لإعمال العقل في مثل ذلك (صح) .

المحاضرة السابعة والعشرون

***

تفسير الآيات: من (٥٥) إلى (٥٧) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.}

قراءات:

ليس فيها أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

ما زال الحديث متّصلاً عن بني إسرائيل ومواقفهم المخزية، وتذكيرهم بالنِّعم العظيمة.

لغويّات.

{جَهْرَةً:}عيَاناً، وهي مصدر من قولك: جهَر بالقراءة وبالدعاء، كأنّ الذي يَرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب خافَت بها.

وقال الراغب: "الجهر: يُقال لظهور الشيء بإفراط حاسّة البصر، أو حاسّة السمع. أمّا البصر، فنحو: رأيتُه جهاراً، وأما السمع، فنحو{ :وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .}وانتصابها على أنها مصدر مؤكّد، مُزيل لاحتمال أن تكون الرؤية مناماً أو علْماً بالقلب. وقيل :على أنها حال على تقدير: ذوي جهرة، أو مُجاهرين. فعلى الأوّل: الجهرة من صفات الرؤية، وعلى الثاني: من صفات الرّائين. وثَمّ قول ثالث وهو: أن تكون راجعة لمعنى: القول أو القائلين؛ فيكون المعنى: وإذ قلتم كذا قولاً جهراً، أو جاهرين بذلك القول غير مكترثين ولا مُبالين؛ وهو المرويّ عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–، وأبي عبيدة."

و{الْغَمَامَ :}اسم جنس كـ"حمامة "و"حمام"، وهو: السحاب. وقيل: ما ابيضّ منه. وسُمِّي: "غماماً" لأنه يَغُمُّ وجْه السماء ويستره، ومنه: الغَم والغَمَم.

{الْمَنّ :}اسم جنس لا واحد له مِن لفْظه، والمشهور: أنه التَّرَنْجَبين، وهو شيء يُشبه

الصمغ، حلو مع شيء من الحموضة، كان ينزل عليهم كالطّلّ .وعن وهب: إنه الخبز الرِّقَاق.
وقيل: المراد به: جميع ما منّ الله تعالى به عليهم في التِّيه وجاءهم عفواً بلا تعب؛ وإليه ذهب الزجاج، ويؤيِّده: قوله –صلى الله عليه وسلم)) :–الكَمْأة من المنِّ الذي مَنَّ الله تعالى به على بني إسرائيل.((

و{السَّلْوَى :}قال ابن عطية: "السلوى: طير، بإجماع المفسّرين؛ وقد غلط الهُذلي في قوله: إنه العسل، وأنشد في ذلك مُستشهداً :

وقَاسَمَهَا بالله جَهْداً لأنتمُ	ألذّ من السّلوى إذا ما أَشُورُهَا

قال: فظن أنّ السّلوى عسلاً ."

قال القرطبي: "دعوى الإجماع لا تصحّ، لأن المؤَرّج –أي :ابن عمرو، أحد علماء اللغة والتفسير– قال: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلي هذا، وذكَر أنه كذلك في لغة كنانة، لأنه يُسْلَى به، ومنه: عين سُلوان ."

وقال الجوهري: "السَّلوى: العسل، واستشهد ببيت الهذلي أيضاً، والسُلْوانة –بالضم–: خَرَزَة كانوا يقولون إذا صُبَّ عليها ماء المطر فشربها العاشق سلاَ، قال الشاعر :

شربتُ على سُلْوانةٍ ماءَ مُزنة	فلا –وَجَدِيدِ العَيْش– يا مَيُّ ما أَسْلُو

واسم ذلك الماء :السُّلوان ."

وقال بعضهم: "السُّلوان: دواء يشفي الحزين فيسلو، والأطباء يسمّونه: المفَرّح .
ويكون على هذا المعنى عطفها على المنّ مِن عطْف الخاصّ على العامّ، اعتناءً بشأنه .
قالوا: والسّلوى جمْع بلفظ الواحد أيضاً، كما يُقال : سُمَانَى للمفرد والجمْع، (ودِفْلَى كذلك).
وقال الخليل : واحده: سَلْواة، وأنشد :

وإنِّي لتَعْرُوني لِذِكْراكِ هزّةٌ	كما انْتَفَضَ السَّلْواة من بَلِلِ القَطْرِ

وقال الكسائي" :السَّلْوى واحد، وجمْعه: سَلاوَى."

الآثار.

عن ابن عباس: أنه قال، في قول الله تعالى{ :لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً" :}أي:

علانية ."

وقال قتادة والربيع بن أنس{" :لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}، أي: عياناً ."

وأخرج الطِسْتِي، عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال له: "أخبرني عن قوله– عز وجل– فأخذتكم الصاعقة. قال: العذاب، وأصله: الموت. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم . أما سمعت ربيعة وهو يقول:

وقد كنت أخشى عليك الحتوفَ	وقد كنتُ آمنك الصاعقة

وعن الربيع بن أنس: "هم: السبعون الذين اختارهم موسى، فساروا معه. (قال) :فسمعوا كلاماً، فقالوا{ :لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .}قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول:ماتوا{ .ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ :}فبُعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالَهم."

وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة{" :الصَّاعِقَةُ :}صيحة من السماء ."

وقال السدي في قوله{ :فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ{" :}الصَّاعِقَةُ :}نار ."

وقال عروة بن رُويم، في قوله{" :وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}، قال: صعق بعضهم، وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء، وصعق هؤلاء ."

وقال السدي{" :فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ}، فماتوا. فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب! ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم؟{ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ .}فأوحى الله إلى موسى: إن هؤلاء السبعين ممّن اتّخذوا العجل. ثم إن الله أحياهم، فقاموا وعاشوا، رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يَحْيَوْن. قال: فذلك قوله تعالى : {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون."}

وقال الربيع بن أنس: "كان موتهم عقوبة لهم ، فبُعثوا من بعد الموت ليستوفُوا آجالّهم ."

عن قتادة، في الآية، قال: "عُوقب القوم، فأماتهم الله عقوبة، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليتوفَّوْها ."

وعن محمد بن إسحاق، قال: "لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامريّ ما قال، وحرّق العجل وذرّاه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً، الخيِّر فالخيِّر، وقال: انطلقوا إلى الله، وتوبوا إلى الله ممّا صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهّروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له

ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلْم. فقال له السبعون -فيما ذُكر لي- حين صنعوا ما أمَرهم به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلبْ لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشّى الجبل كلّه، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلّمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام، وقعوا سجوداً. فسمعوه، وهو يكلّم موسى، ويأمره وينهاه: افعلْ! ولا تفعلْ! فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى{ :لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}، فأخذتهم الرجفة -وهي: الصاعقة- فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه، ويقول{ :رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ}، قد سفهوا. أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي: إن هذا لهم هلاك !اخترت منهم سبعين رجلاً، الخيّر فالخيّر، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يصدّقوني به، ويأمنوني عليه بعد هذا؟{ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .}فلم يزل موسى يناشد ربه -عز وجل-، ويطلب إليه، حتى رد إليهم أرواحهم. وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل مِن عبادة العجل، فقال: لا. إلاّ أن يقتلوا أنفسهم ."

وعن السدي: "لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه في كلِّ أناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى. فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عيْنه، ثم ذهب بهم ليعتذروا... وساق البقية ."

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في تفسير هذه الآية" :قال لهم موسى -لما رجع من عند ربه بالألواح قد كُتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتْل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم-، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمْركم الذي أمَرَكم به، ونهْيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا : ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله! حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا، ويقول: هذا كتابي فخذوه! فماله لا يكلِّمنا كما يكلِّمك أنت يا موسى؟ وقرأ قول الله{ :لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .}قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتْهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم .وقرأ قول الله{ :ثُمَّ

بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .}وقال لهم موسى: خذوا كتاب الله .فقالوا: لا.

فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنَّا متنا ثم حيينا. قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا.

فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم."

عن ابن عباس، في حديث "الفتون" الذي تقدّم ذِكْره في المحاضرة الفائتة، قال: "ثم ظلل عليهم في التِّيه بالغمام ."

وقال الحسن وقتادة{" :وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}، كان هذا في البرِّيّة، ظلّل عليهم الغمام من الشمس ."

و عن أبي مجلز، في قوله{ :وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}، قال" :ظلّل عليهم في التِّيه ."

وعن ابن عباس{" :وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}، قال: غمام أبرد من هذا، وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله{ :هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ .}وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدْر. قال ابن عباس :وكان معهم في التِّيه."

وروي عن ابن عمر، والربيع بن أنس، وأبي مجلز، والضحاك، والسدي، نحو قول ابن عباس .

و عن مجاهد{ :وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}، قال: "ليس بالسحاب، هو :الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلاّ لهم."

و عن قتادة{" :وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}، قال: هو السحاب الأبيض الذي لا ماء فيه".

وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن زيد، قال :قال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–الكمأة مِن المنّ، وماؤها شفاء للعيْن.((

و عن ابن عباس، قال: "كان المنّ ينزل عليهم بالليل على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا ."

و عن ابن عباس، قال: "المنّ: الذي يسقط من السماء على الشجر، فتأكله الناس ."

وقال مجاهد: "المنّ: صمغة ."

وعن عامر –وهو: الشعبي– قال: "عسلكم هذا، جزء من سبعين جزءاً مِن المن ."

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "إنه العسل ."

و عن قتادة: "وأطعمهم المنّ والسلوى حين برزوا إلى البرية، فكان المن يسقط عليهم في

محلّتهم سقوط الثلج، أشد بياضاً من الثلج، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ الرجل قدْر ما يكفيه يومه ذلك، فإن تعدّى فسد وما يبقى عنده. حتى إذا كان يوم سادسه جُمعة، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ فيبقى عنده لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمْر معيشة ولا لطلب شيء؛ وهذا كلّه في البرية."

وقال عكرمة: "المنّ: شيء أنزله الله عليهم مثل الطّلّ، شبه الرُّب الغليظ ."

وقال السدي: "قالوا: يا موسى، كيف لنا بماء ها هنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ، فكان يسقط على الشجرة الزنجبيل ."

وقال الربيع بن أنس: "المنّ: شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ."

وقال وهب بن منبه -وسئل عن المنّ- فقال: "خبز رقاق مثل الذّرة، أو مثل النّقي ."

وعن ابن عباس: "السّلوى طائر شبيه بالسُمانى، كانوا يأكلون منه ما شاؤوا". وعنه: "هو: السُمانى."

وكذا قال مجاهد، والشعبي، والحسن، والربيع بن أنس- رحمهم الله.-

وقال السدي بأسانيده: "السلوى طائر يشبه السُمانى."

و عن الضحاك أنه كان يقول: "السمانى هي: السلوى."

وعن عكرمة: "أمّا السلوى فطير كطير يكون بالجنة، أكبر من العصفور، أو نحو ذلك ."

وقال قتادة: "السلوى مِن طير إلى الحُمّرَة، تحشرها عليهم الريح الجنوب. وكان الرجل يذبح منها قدْر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدّى فسد ولم يبق عنده. حتى إذا كان يوم سادسه يوم جُمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه، لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه ."

و عن وهب بن منبه: أنه سئل عن السلوى، فقال: "طير سمين مثل الحمامة، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت ."

و عن وهب قال: "سألت بنو إسرائيل موسى -عليه السلام -اللحم، فقال الله: لأطعمنّهم من أقلّ لحم يعلم في الأرض .فأرسل عليهم ريحاً فأذرت عند مساكنهم السلوى -وهو : السُمانى- مثل ميل في ميل، قيد رمح في السماء، فخبؤوا للغد، فنتن اللحم، وخَنَزَ الخبز ."

وقال السدي: "لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى- عليه السلام-: كيف لنا بما ها هنا؟

أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ، فكان يسقط على الشجر الزنجبيل، والسلوى: وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه؛ فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه، وإلاّ أرسله فإذا سمن أتاه. فقالوا: هذا الطعام! فأين الشراب؟ فأُمِر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كلّ سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب! فأين الظل؟ فظلّل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل! فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب؛ فذلك قوله تعالى{ :وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}، وقوله{ :وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.}

ورُوِي عن وهب بن منبه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نحو ما قاله السدي .

وعن ابن عباس: "خُلق لهم في التِّيه ثياب لا تخرق ولا تدرن". قال ابن جريج: "وكان الرجل إذا أخذ من المنّ والسلوى فوق طعام يوم فسَد، إلاّ أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت، فلا يصبح فاسداً."

قلت: وقد ورد في ذلك حديث في "الصحيح" يدل على شؤم ما فعلوه من معصية لله –عز وجل– بادّخارهم فوق حاجتهم من هذا اللحم، امتد أثر ذلك إلى الأجيال بعدهم، قال –صلى الله عليه وسلم)) :–لولا حواء، لم تخنْ أنثى زوجَها قط. ولولا بنو إسرائيل، لم يخنز اللحم .((

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَمَا ظَلَمُونَا}، قال: "نحن أعزّ مِن أن نُظلم ."

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، قال: "يضرّون."

أقوال المفسّرين .

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصّعق، إذ سألتم رؤيتي جهرةً عياناً ممّا لا يُستطاع لكم ولا لأمثالكم.

واللام من: }لَكَ{ في قوله: }نُؤْمِنَ لَكَ{ للتّعدية، بتضمين معنى الإقرار على أنّ موسى مُقَرٌّ له، والمقَرّ به محذوف، وهو: أنّ الله تعالى أعطاه التوراة، أو أنّ الله تعالى كلّمه فأمره

ونهاه. وقد كان هؤلاء مؤمنين مِن قبل بموسى –عليه السلام– إلاّ أنهم نفَوْا هذا الإيمان المعيّن والإقرار الخاص. وقيل: أرادوا نفْي الكمال، أي: لا يكمل إيماننا لك، كما قيل في قوله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا يؤمن أحدُكم حتى يحبّ لأخيه المؤمن ما يحبّ لنفْسه)).

قال الآلوسي: "والقول إنهم لم يكونوا مؤمنين أصلاً، لم نره لأحَد من أئمّة التفسير".

قلت: هذه اللام كالتي في قوله: }وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ{، وهي تدخل على الإيمان إذا أريد به التصديق لمخبر به؛ ولذا فهم هنا أرادوا تصديقه في شيء معيّن، لا الإيمان الذي هو مجموع الاعتقاد والقول والعمل.

ولكنهم بقولهم ذلك ارتدّوا عند دينهم، لأن تصديق النبي فيما أخبر به هو أساس الإيمان.

وحَمْلُ قولهم: }لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ{ على حصول كمال الإيمان فيه بعد واضح.

و}الصَّاعِقَةَ{: ما صعقهم، أي أماتهم. قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتْهم، وقيل: صيحة جاءت من السماء. وقيل: أرسل الله جنوداً سَمِعُوا بحسّها، فخرّوا صعِقين ميّتِين يوماً وليلة.

قلت: الذي يظهر: أنّ الصاعقة تتضمن صيحةً شديدةً تخلع القلوب، ويدل على ذلك: قوله تعالى: }يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ{. وقد تقدّم عند تفسير هذه الآية: أنها قصفة رعْد تنقضّ معها شقّة من نار. ويقال: صعقته الصاعقة إذا أهلكتْه، فصعِق، أي: مات إمّا بشدة الصوت أو بالإحراق.

قال الآلوسي: "واختُلف في موسى، هل أصابه ما أصابهم، والصحيح: لا، وأنه صعق ولم يمت لظاهر: ثم أفاق، في حقه".

قلت: يعني: أنّ الصعقة في حقهم كانت تتضمّن عذاباً وموتاً وفي حق موسى –عليه السلام– كانت مجرّد إغماءة، لقوله تعالى في موضع آخر –وهو: سؤاله الرؤية–: }وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ{.

والظاهر –والله أعلم–: أن موسى –عليه السلام– لم يُصعق أصلاً معهم، وهو ما تفيده الروايات، وإنما صعق مرة واحدة عند سؤاله الرؤية، ولم يجمع الله عليه صعقتيْن؛ ويدل على ذلك أيضاً: الحديث الذي في "الصحيح": ((أنا أوّل مَن تنشقّ عنه الأرض، فأجد موسى باطشاً بقائمة مِن قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقة الطور)).

كما أن هناك فرقاً بين قوله تعالى: }فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ{، وبين }خَرَّ مُوسَى صَعِقاً{،

فليس في قصة موسى وجود صاعقة، وإنما غُشِيَ عليه فقط. كما أنه تعالى بيَّن في آية أخرى: أنهم إنما أخذتهم الصاعقة بظُلمهم، أي: بسبب ظلمهم؛ فهي عقاب خاص بهم.

}وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ{: جملة حالية ومتعلّق النظر: ما حلّ بهم من الصاعقة، أو أثرها الباقي في أجسامهم بعد البعث، أو إحياء كلّ منهم، كما وقع في قصة العزير. قالوا: أحيا عضواً بعد عضو. والمعنى: وأنتم تعلمون أنها تأخذكم، أو وأنتم يقابل بعضكم بعضاً.

وقال في "البحر": "ولو ذهب ذاهب إلى أن المعنى وأنتم تنظرون إجابة السؤال في حصول الرؤية لكم، كان وجهاً من قولهم: نظرت الرجل أي: انتظرته، كما قال:

فإنكما إن تَنْظُرَاني ساعةً	من الدهر تنفعني لدى أم جُنْدُب

قال الآلوسي: "لكن هذا الوجه غير منقول، فلا أجسر على القول به، وإن كان اللفظ يحتمله."

والموت هنا ظاهر في مفارقة الروح الجسد، وقُيِّد البعث به لأنه قد يكون عن نوم كما هو في شأن أصحاب الكهف، وقد يكون بمعنى إرسال الشخص؛ وهو في القرآن كثير.

ومن الناس من قال: كان هذا الموت غشياناً وهموداً، لا موتاً حقيقة، كما في قوله تعالى : {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ .}

ومنهم مَن حمل الموت على الجهل مجازاً، كما في قوله تعالى{ :أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ .}

وقد شاع ذلك نثراً أو نظماً، ومنه قوله:

أخو العلم حَيٌّ خالد بعْد موتِهِ	وأوصاله تحت التراب رميمُ
وذو الجهل ميْت وهو ماشٍ على الثّرَى	يُظَنّ مِن الأحياءِ وهو عديمُ

ومعنى البعث على هذا: التعليم، أي: ثم علّمناكم بعد جهلكم .

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ :}أي: نعمة الله تعالى عليكم بالإحياء بعد الموت، أو نعمته سبحانه بعد ما كفرتموها، إذ رأيتم بأس الله تعالى في رمْيكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت .

ومَن جعَل البعث بعد الموت مجازاً عن التعليم بعد الجهل، جعل مُتعلَق الشّكر ذلك. وهذا السياق يقتضي أنّ الخطاب توجّه إلى بني إسرائيل في قوله{ :وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ}، والمراد: السبعون المختارون منهم. ولم يحك كثير من المفسرين

سواه. وقد أغرب فخر الدين الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين، أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى إنك لا تطلب من الله شيئاً إلاّ أعطاك، فادْعُه أن يجعلنا أنبياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته .

قال ابن كثير: "وهذا غريب جداً! إذ لا يُعرف في زمان موسى نبيّ سوى هارون ويوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله –عز وجل–؛ فإن موسى الكليم قد سأل ذلك فمُنع منه، فكيف يناله هؤلاء السبعون؟ ."

قال الآلوسي: "القائل: هم السبعون الذين اختارهم موسى– عليه السلام– لميقات التوراة، قيل: قالوه بعد الرجوع وقتْل عبَدة العجل وتحريق عجْلهم، ويُفهم من بعض الآثار: أنّ القائل: أهل الميقات الثاني الذي ضربه الله تعالى، للاعتذار عن عبدة العجل وكانوا سبعين أيضاً. وقيل: القائل عشرة آلاف من قومه وقيل: الضمير لسائر بني إسرائيل إلاّ مَن عصمه الله تعالى ."

وقال ابن كثير، بعدما حكى القولَيْن في كيفية صعْقهم، وانتهى بقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "وهذا السياق يدلّ على أنهم كُلِّفوا بعدما أُحيوا ."

وقد حكى الماوردي في ذلك قوليْن: "أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمْر جهرة حتى صاروا مضطرِّين إلى التصديق. والثاني: أنهم مكلّفون لئلاّ يخلو عاقل من تكليف."

قال القرطبي:"وهذا هو الصحيح، لأن معاينتهم للأمور القطعية لا تمنع تكليفهم، لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عِظاماً من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلّفون وهذا واضح – والله أعلم ."–

ولما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النِّقم، شرع يُذكِّرهم أيضاً بما أسبغ عليهم مِن النِّعم، فقال : {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}، وهو: جمع :غمامة، سُمِّيَ بذلك لأنه يغمّ السماء، أي: يواريها ويسترها. وهو: السحاب الأبيض، ظُللوا به في التيه ليقيَهم حرّ الشمس .

وقوله تعالى{ :وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ}، اختلفت عبارات المفسرين في{ الْمَنّ }ما هو؟

ووقع في شعْر أميّة بن أبي الصّلت أنه العسل، حيث قال:

فرأى الله أنهم بِمَضِيع	لا بذي مزرع ولا مثمورَا
فسناها عليهم غاديات	وترى مُزْنهم خلايا وخُورا

عسلاً ناطفاً وماءً فراتاً	وحليباً ذا بهجة مَرمورًا

فالناطف: هو السائل، والحليب المرمور: هو الصافي منه.

قال ابن كثير: "والغرض: أنّ عبارات المفسِّرين متقاربة في شرح المنّ؛ فمنهم مَن فسّره بالطعام ، ومنهم من فسّره بالشراب ."

والظاهر –والله أعلم–: أنه كلّ ما امتنّ الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، ممّا ليس لهم فيه عمل ولا كدّ .فالمن المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن رُكّب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده.

والدليل على ذلك: ما رواه البخاري، عن سعيد بن زيد –رضي الله عنه–، قال :قال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–الكَمْأَة من المنِّ، وماؤها شفاء للعين .((

قلت: قد أطال ابن كثير في الصناعة الحديثية لروايات هذا الحديث، وذكَره عن خمسة من الصحابة، وذكر الاختلاف على شهر بن حوشب فيه؛ وهذا كلّه استطراد غير محمود لا علاقة له بالتفسير.

والكَمْأَة :نبات ينمو تحت الأرض بعد نزول المطر في بعض المناطق، ويُسمّى عند عامّة الناس: "الفَقْع"، وهو في اللغة النوع الرديء مِن الكمأة، ولا بد عند استعمال ماء الكمأة للعيْن من الحذر لأنها أنواع، فبعضه قد يُسبّب العمى. وقد بيّن ذلك الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث، فليراجعه من شاء.

قوله{ :وَظَلَّلْنَا :}وجعلنا الغمام يُظلّكم، وذلك في التِّيه، سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يُظلّهم من الشمس، ويُنزل عليهم المنّ– وهو: "التَرَنْجَبين"، مثل الثلج–، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم السلوى –وهي: السُمانى–، فيذبح الرجل منها ما يكفيه.

والظاهر: أن الخطاب لجميعهم؛ فقد روي أنهم لما أُمروا بقتال الجبّارين وامتنعوا، وقالوا: "اذهب أنت وربك فقاتلا"!، ابتلاهم الله تعالى بالتِّيه بين الشام ومصر أربعين سَنة .وشكَوْا حرّ الشمس، فلطف الله تعالى بهم بإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى. وقيل: لما خرجوا من البحر، وقعوا بأرض بيضاء عفراء ليس فيها ماء ولا ظل، فشكَوا الحر فوُقُوا به. وقيل: الذين ظُلِّلوا بالغمام بعض بني إسرائيل؛ وكان الله تعالى قد أجرى العادة فيهم أنّ مَن عبَد ثلاثين

سنة لا يُحدث فيها ذنباً أظلّته الغمامة. وكان فيهم جماعة يُسمَّوْن: "أصحاب غمائم"، فامتن الله تعالى عليهم لكونهم فيهم مَن له هذه الكرامة الظاهرة والنعمة الباهرة.

قلت: نقل ذلك الآلوسي، وهو مستبعد جداً عنهم، بل عمّن هو خير منهم؛ فمن الذي لا يحدث ذنباً في ثلاثين سنة؟ وهؤلاء لم يصبر خيارهم –وهم السبعون– عن ترك التعنت وسوء الأدب مع الله –عز وجل– ونبيه –عليه السلام–، فهل يعقل أن يكون فيهم هذا الصنف؟ قال{ :وَمَا ظَلَمُونَا }لأنه قد صدر منهم ارتكاب قبائح مِن اتخاذ العجل إلهاً، وسؤال رؤيته تعالى ظلماً، وغير ذلك، فجاء قوله تعالى{ :وَمَا ظَلَمُونَا }بجملة منفيّة تدلّ على أنّ ما وقع منهم من تلك القبائح لم يصل إلينا منها نقص ولا ضرر. وفي هذا دليل على أنه ليس من شرط نفْي الشيء عن الشيء إمكان وقوعه، لأنّ ظلم الإنسان لله تعالى لا يمكن وقوعه البَتَّة،{ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }بالكفران، أو بما فعلوا إذ لا يتخطّاهم ضرره.

وقوله تعالى{ :كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ :}أمْر إباحة وإرشاد وامتنان. وقوله{ :وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، أي: أمرناهم بالأكل ممّا رزقناهم، وأن يعبدوا، كما قال{ :كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ}، فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم. هذا مع ما شاهدوه من الآيات البيّنات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات .

ومن ها هنا تتبيّن فضيلة أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم –ورضي عنهم–، على سائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم وعدم تعنّتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرْق عادة ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما معهم فجاء قدْر مبرك الشاة، فدعا (الله) فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم .وكذا لما احتاجوا إلى الماء، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل، وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تُجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتِّباع: المشي مع قدَر الله تعالى، مع متابعة الرسول– صلى الله عليه وسلم –.

المعنى الإجمالي.

ومن مواقف بني إسرائيل المخزية مع موسى- عليه السلام-، ومع ذلك وسعتهم رحمة الله تعالى-: قولهم لنبيّهم إنهم لن يُصدِّقوه فيما أخبرهم به مِن تكليم الله له وإنزاله التوراة عليه، حتى يرَوا الله بأعينهم؛ فعاقبهم الله تعالى بتكذيبهم لنبيّهم، وتعنّتهم في سؤالهم، واشتراطهم على ربّهم، بأن أصابهم بصاعقة من السماء. وهي قصفة رعد أماتهم صوتُها الرهيب، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض وإلى نار هذه الصاعقة. ثم امتن الله عليهم بأن بعَثهم وردّ إليهم أرواحهم بعد هذه الموتة الفظيعة، واستكمل لهم آجالهم، وفتح لهم باب التوبة، ولم يجعل هذه الموتة قبضاً لأرواحهم على الكفر والتعنت؛ وهذا فضل عظيم منه، يستوجب شكرَهم واعترافَهم بفضله عليهم.

كما أنه تعالى امتنّ عليهم بمنن عظيمة أخرى، ومنها: أنه جعل ما يشبه السحاب الأبيض الرقيق البارد يُظلّهم ويحميهم من وهج الشمس في الصحراء. وأنزل عليهم المنّ وهو سائل لزج لذيذ الطعم يشبه العسل كان شراباً لهم، وأنبت منه نباتاً لذيذ الطعم مباركاً فيه شفاء، وهو الكَمْأَة .ورزقهم السلوى وهي: طير يشبه السمانى يستلذون بطعمه دون جهد منهم. وأُمروا ألاّ يدّخروا منه، فطمعوا وادخروا، فأنتن اللحم عليهم، ولو لم يفعلوا لما خَنَزَ لحم أبداً. فقابلوا نِعَم الله بالعصيان وعدم العرفان، فما ضر ذلك خالقَهم، وما كان فيه إلاّ أنهم ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه.

مسائل الآيات.

في قوله تعالى{ :وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً. }...

قال الزمخشري: "وفي الكلام دليل على أنّ موسى –عليه الصلاة والسلام- رادَّهم القول، وعرّفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة: محال، وأنّ مَن استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض. فرادُّوه بعد بيان الحجّة ووضوح البرهان ولجّوا، فكانوا في الكفر كعبدة العجل، فسلّط الله عليهم الصعقة، كما سلّط على أولئك القتْلَ، تسوية بين الكفريْن ودلالة على عظمهما بعظم المحنة."

قال الآلوسي: "وقد استدلّ المعتزلة وطوائف من المبتدعة بهذه الآية على استحالة رؤية الباري

-سبحانه وتعالى-، لأنها لو كانت ممكنة لما أخذتْهم الصاعقة بِطلبها .والجواب: أنّ أخذ الصاعقة لهم ليس لِمجرد الطّلب، ولكن لما انضم إليه من التّعنت وفرط العناد، كما يدل عليه مساق الكلام، حيث علّقوا الإيمان بها.

ويجوز أيضاً: أن يكون ذلك الأخذ لِكفْرهم بإعطاء الله تعالى التوراة لموسى -عليه السلام- وكلامه إياه أو نبوته، لا لِطَلبهم. وقد يقال: إنهم لما لم يكونوا متأهِّلين لرؤية الحق في هذه النشأة، كان طلبهم لها ظلماً، فعُوقبوا بما عوقبوا، وليس في ذلك دليل على امتناعها مطلقاً في الدنيا والآخرة."

قلت: تَلقَّف الزمخشري الآية كعادته، ولوى عُنقها لنصرة مذهبه الباطل في نفْي رؤية الله -عز وجل- في الآخرة، بل كَفّر مَن جوَّزها -غفر الله له شططه-، ولو كان عقاب الله لهم على طلبهم الرؤية لكان الله قد عاقب موسى -عليه السلام-؛ فقد طلبها قبْلهم، وهل يجهل كليم الله تعالى ما يجوز على الله وما لا يجوز؟

وإنما كان عقابهم على ما تقدّم ذِكْره من سوء أدبهم مع الله ونبيّه، وعزْمهم على عدم تصديق موسى -عليه السلام-، حتى يحقّق لهم ما طلبوه؛ ولو كان طلبهم من أيسر المطلوبات لاستحقّوا ذلك العذاب...

ورؤية الله تعالى في الدنيا لا يطيقها البشر، بدلالة آية (الأعراف) حين تجلى الله للجبل فأصبح دكاً وخرّ موسى صعِقاً. وأما في الآخرة، فهي ثابتة بالكتاب والسُّنّة، قال تعالى : {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ } إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.}

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم)) :-إنكم سترَوْن ربَّكم يوم القيامة كما ترَوْن هذا القمر ليلة البدر، لا تُضَامُّون في رؤيته.((

الأسئلة :

١. قوله (جهرة) أي جهروا له بالقول في ذلك وأعلنوه ولم يستحيوا من الله عز وجل كقولك جهر بالقراءة (صح) .

٢. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد لحقيقة الفعل مزيل لاحتمال المجاز وأن تكون الجهرة بالقلب (صح) .

٣. المقصود بالجهرة أي : نراه جهاراً (صح) .

٤. والغمام : اسم جنس من الغم والغمم (خطأ) .

٥. قيل : الغمام ليس هو السحاب بل هو الغمام الذي يأتي فيه يوم القيامة (صح) .

٦. المراد بالمن جميع ما من الله تعالى به عليهم في التيه وجاءهم عفوا بلا تعب (صح) .

٧. السلوى : ما فيه تسلية لهم من الطعام والشراب والحلوى (خطأ) .

٨. الصاعقة هي الموت (صح) .

٩. قوله (ثم بعثناكم من بعد موتكم) لأن موتهم كان عقوبة لهم ثم بعثهم الله ليستوفوا آجالهم (صح) .

١٠. جاء في الحديث : « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » (صح) .

١١. قيل في صفة المن أمور كثيرة الله أعلم بالمراد من ذلك (صح) .

١٢. ورد في حديث صحيح أن سبب فساد اللحم ما فعله بنو إسرائيل من أخذهم منه أكثر من حاجتهم (صح) .

١٣. قوله (وما ظلمونا) بمعنى : وما ظلمناهم لأن الله ليس بظلام للعبيد ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (خطأ) .

١٤. قولهم (لن نؤمن لك) دليل على أنهم لم يكونوا مؤمنين بموسى وما جاء به (خطأ) .

١٥. اللام في قوله (نؤمن لك) فيها تنبيه على أن المراد إيمان خاص وليس هو الإيمان المعلوم (صح) .

١٦. جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن موسى عليه السلام لا يصعق مع من يصعق يوم القيامة بسبب ما أصابه من الصعقة من قومه لما طلبوا رؤية الله (خطأ) .

١٧. من العلماء من حمل الموت هنا على الجهل والبعث هو التعليم (صح) .

١٨. ذكر العلماء هنا قولين في تكليف هؤلاء : أحدهما : أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة ، حتى صاروا مضطرين إلى التصديق . والثاني : أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف (صح) .

١٩. رجح القرطبي الأول وقال : وهذا هو الصحيح ، لأن معاينتهم للأمور القطعية تمنع تكليفهم (خطأ) .

٢٠. الكمأة : نبات ينمو تحت الأرض بعد نزول المطر في بعض المناطق ويسمى عند عامة الناس الفَقْع وهو في اللغة النوع الرديء من الكمأة ولابد عند استعمال ماء الكمأة للعين من الحذر لأنها أنواع فبعضه قد يسبب العمى وقد بين ذلك الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث فليراجعه من شاء .(صح) .

٢١. الأمر في قوله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أمر وجوب كما هو ظاهر (خطأ)

٢٢. يؤخذ من الآيات فضيلة أصحاب محمد ﷺ على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وعدم تعنتهم (صح) .

٢٣. استدل البعض بهذه الآية على استحالة رؤية الله ﷻ ، ولا دليل فيها على ذلك لأن هذا في الدنيا وليس في الآخرة (صح) .

٢٤. عقوبة الله لهؤلاء ليس لطلبهم الرؤية بل لتعنتهم ورفضهم ما جاءهم به نبيهم ، ولو كان مجرد طلب الرؤية يستحق مثل هذا العقاب لعوقب موسى على ذلك (صح) .

٢٥. رؤية الله في الآخرة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة ومن موافقهم من أهل البدع (صح) .

٢٦. ثبت الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته » (صح) .

٢٧. الزمخشري من أئمة المعتزلة وهو يجتهد في لوي أعناق النصوص لتتوافق مع مذهبه الباطل (صح) .

٢٨. قوله تعالى (لعلكم تشكرون) أي : على هذه النعمة العظيمة في عقوبتكم التي فيها كفارة ذنوبكم (خطأ) .

٢٩. ليس من شرط نفي الشيء عن الشيء إمكان وقوعه (صح) .

٣٠. ورد في بعض الروايات أن إظلال الغمام كان لمن عبد الله ولم يعصه منهم ثلاثين سنة ، وهو مرجوح غير راجح (صح) .

المحاضرة الثامنة والعشرون

***

تفسير الآيتين: (٥٨) و(٥٩) من سورة (البقرة).

التلاوة، القراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.}

القراءات:

قرأ ابن عامر{" :تُغْفَرْ لَكُمْ- }بالتأنيث-، وقرأ نافع وأبو جعفر{ :يُغْفَرْ لَكُمْ- }بالتذكير-، وكلهم على البناء لِمَا لم يُسَمَّ فاعله. ووجه التأنيث والتذكير: أن "خطايا" مؤنّث مجازيّ يجوز في الفعل المسند إليه الوجهان.

وقرأ الباقون{ :نَغْفِرْ لَكُمْ- }بالنون- على البناء للفاعل."

المناسبة:

فلا زال الحديث مع بني إسرائيل وتذكيرهم بمواقفهم، وسوء أدبهم مع ربهم، وسعة رحمته وتفضّله عليهم على الرغم من ذلك.

لغويّات.

{ الْقَرْيَةَ- :}بفتح القاف، والكسر لغة أهل اليمن-: المدينة، مِن :قَرَيْتُ، إذا جمعت. سُمِّيتْ بذلك لأنها تجمع الناس على طريقة المساكنة، وقيل: إن قلّوا قيل لها: قرية، وإن كثروا قيل لها : مدينة. وأنهى بعضهم حدّ القلة إلى ثلاثة. والجمع: القُرى، على غير قياس؛ وقياس أمثاله: "فِعال"، كـ"ظَبْية" و"ظباء."

{حِطَّةٌ" :}فِعْلَة"، مِن: الحَطِّ، كالجِلْسة والرِّكْبة، وهي: خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حِطة، أو أمرك حِطة. والأصل النصب، بمعنى :حُطَّ عنا ذنوبنا حِطة. وإنما رُفعت لتُعطي معنى الثبات كقوله: "صَبْرٌ جَمِيلٌ، فكلانا مبتلًى ."والأصل: صبراً ، على: اصْبِر صبراً.

و"الخطايا :"أصلها خَطَايِئْ –بياء بعد أَلِف ثم همزة–، فأُبدلت الياء عند سيبويه الزائدة همزة لوقوعها بعد الألف، واجتمعت همزتان، وأُبدلت الثانية ياء ثم قُلبت ألفاً. وكانت الهمزة بين أَلِفيْن، فأُبدلت ياء. وعند الخليل، قُدِّمت الهمزة على الياء، ثم فُعِل بها ما ذُكر .

"الرُّجز :"هو: العذاب، وتُكسر راؤه وتُضمّ، والضَمُّ لغة بني الصعدات.

الآثار.

أخرج عبد الرزاق، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال)) :قيل لبني إسرائيل{ :ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ}، فَبَدَّلوا، فدخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهِم. وقالوا: حبّة في شعرة .((

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس وأبي هريرة، قالا: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–دخلوا الباب الذي أُمروا أن يدخلوا فيه سجداً، يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعيرة.((

وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، قال : سرنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، حتى إذا كان مِن آخِر الليل، اجتزنا في ثنية يقال لها: ذات الحنظل. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–ما مثَل هذه الثَّنِيَّة الليلة إلاّ كمثَل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل{ :ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ .((}

ورواه أبو داود، والضياء المقدسي في "المختارة"، عن أبي سعيد الخدري مختصراً، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– بلفظ)) :قال الله لبني إسرائيل{ :ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ تُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ((}، بالتاء في قوله{ : تُغْفَرْ لَكُمْ.}

عن قتادة، في قوله{ :ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ}، قال" :بيت المقدس."

ونصّ على ذلك السُدِّي، والربيع بن أنس، وغيرهما ...

ويُحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد: "هي أَرِيحَاء."

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}، قال: "هو أحد أبواب بيت المقدس، وهو يُدعى: باب حطّة."

وعن مجاهد، والسدي، (وقتادة)، والضحاك: "هو: "باب الحطّة"، من باب إيلياء بيت المقدس ."

وعن ابن عباس: "كان الباب قبل القبلة ."

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَادْخُلُوا الْبَابَ}، قال: "باب ضيّق ."

{سُجَّداً}، قال: رُكّعاً{ .وَقُولُوا حِطَّةٌ}، قال: مغفرة .قال :فدخلوا من قِبل أستاههم، وقالوا : "حنطة" استهزاء .قال :فذلك قوله{ :فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.}

عن ابن عباس، في قوله تعالى{ :وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}، قال: "رُكّعاً، من باب صغير ."

وقال الحسن البصري: "أُمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم."

وعن ابن عباس: "فدخلوا على شقّ ."

وعن عبد الله بن مسعود: "وقيل لهم{ :ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}، فدخلوا مُقْنِعِي رؤوسهم –أي: رافعي رؤوسهم–، خلاف ما أُمروا{ .وَقُولُوا حِطَّةٌ}، فقالوا: "حنطة حبة حمراء فيها شعيرة"، فذلك قوله{ :فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا.}

وعن ابن عباس{ :وَقُولُوا حِطَّةٌ }، قال" :مغفرة. استغفروا ."

وروي عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه .

وعن ابن عباس{ :وَقُولُوا حِطَّةٌ }، قال: "قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم ."

وقال الأوزاعي: "كتب ابن عباس إلى رجل –قد سمّاه– يسأله عن قوله تعالى{: وَقُولُوا حِطَّةٌ}، فكتب إليه: أن أقرّوا بالذنب ."

وعن عكرمة، في قوله{ :وَقُولُوا حِطَّةٌ}،" أي: احططْ عنا خطايانا."

وقال الحسن وقتادة: "أي: احططْ عنا خطايانا ."

وعن ابن مسعود: "أنهم قالوا: "هطى سمعاثا أزبة مزبا"، فهي بالعربية: "حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء"، فذلك قوله{ :فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ."}

وعن عكرمة، في قوله{ :وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}، قال: "طأطئوا رؤوسكم، وقولوا: "حطّة"، قال قولوا: "لا إله إلاّ الله."

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَقُولُوا حِطَّةٌ}، قال" :لا إله إلاّ الله ."

وعن مجاهد، قال: "باب حِطّة من أبواب بيت المقدس. أَمَر موسى قومه أن يدخلوا ويقولوا

حطة وَطُؤْطِئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم. فلما سجدوا قالوا: حنطة."

وعن قتادة، في قوله{ :وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}، قال كنا نتحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس{ .وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}، قال: مَن كان خاطئاً غفرت له خطيئته. ومَن كان مُحسناً زاده الله إحساناً{ .فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}، قال بيّن لهم أمراً علموه فخالفوه إلى غيره، جرأة على الله وعُتُوّاً ."

وعن البراء{ :سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}، قال اليهود: قيل لهم{ :ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}، قال: ركّعاً،{ وَقُولُوا حِطَّةٌ :}مغفرة. فدخلوا على أستاههم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء فيها شعيرة. فذلك قوله تعالى{ :فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ .}

و عن ابن مسعود{ :وَقُولُوا حِطَّةٌ}، فقالوا: حنطة، حبة حمراء فيها شعيرة. فأنزل الله : {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ."}

وعن ابن مسعود: أنه قال: إنهم قالوا: "هُطّي سَمعاثا أَزَبَة مَزبا". فهي بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء؛ فذلك قوله{ :فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ."}

وعن ابن عباس في قوله تعالى{ :ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً :}ركعاً من باب صغير، يدخلون من قِبَل أستاههم، وقالوا :حنطة؛ فهو قوله{ :فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ."}

وهكذا روي عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن رافع .

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}، قال مَن كان قبلكم محسناً زيد في إحسانه، ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئته.

وعن علي بن أبي طالب، قال: "إنما مثلنا في هذه الأمة، كسفينة نوح، وكباب حطة في بني إسرائيل ."

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، قالوا: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :-))إن هذا الطاعون رِجْزٌ، وبقية عذاب عُذِّب به أناس مِن قبْلِكم. فإذا كان بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها.((

وعن ابن عباس: "كلّ شيء في كتاب الله مِن الرِّجز يعني به: العذاب ."

وهكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، والحسن، وقتادة: أنه العذاب ."

و عن أبي العالية، في الآية، قال "الرجز: الغضب ."

وقال الشعبي: الرجز: إمّا الطاعون، وإما البرد ."

وقال سعيد بن جبير: "هو الطاعون."

أقوال المفسّرين.

يقول تعالى، لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد، ودخولهم الأرض المقدّسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى –عليه السلام– فَأُمِرُوا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال مَن فيها من العماليق الكفَرة، فنَكلوا عن قتالهم وضعُفوا واسْتَحْسَرُوا، فرماهم الله تعالى في التّيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة (المائدة)؛ ولهذا كان أصح القوليْن: أنّ هذه البلدة هي: بيت المقدس .

وقال تعالى حاكياً عن موسى{ :يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ }... الآيات .

وقال آخرون: "هي: أريحاء، وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء !وأبعد مِن ذلك: قولُ مَن ذهَب إلى أنها مصر؛ حكاه الرازي في "تفسيره".

والصحيح الأول: أنها بيت المقدس، وإليه ذهب الجمهور .

)وكان هذا) لما خرجوا مِن التّيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون –عليه السلام–، وفتحها الله عليهم عشيّة جمعة، وقد حُبِسَتْ لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح –(وأما أريحاء فقرية ليست مقصودة لبني إسرائيل)– ولما فتحوها أُمِرُوا أن يدخلوا الباب –باب البلد – {سُجَّداً }أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال.

هكذا قال ابن كثير .

وقال الآلوسي: "والظاهر: أنّ الأمر بالدخول على لسان موسى –عليه السلام– كالأوامر السابقة واللاحقة."

قال: "وقد كان هذا الأمر بعد التّيه والتحيّر، وهو أمر إباحة يدل عليه: عطف{ :فَكُلُوا }...

إلخ. وهو غير الأمر المذكور بقوله تعالى{ :يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ}، لأنه كان قبل ذلك، وهو أمر تكليف كما يدل عليه عطف النهي .ومنهم من زعم اتحادَهما، وجعل هذا الأمر أيضاً للتكليف، وحمل تبديل الأمر على عدم امتثاله، بناء على أنهم لم يدخلوا القدس في حياة موسى –عليه السلام–.

ومنهم مَن ادّعى اختلافهما، لكنه زعم أنّ ما هنا كان بعد التّيه على لسان يوشع لا على لسان موسى– عليهما السلام–، لأنه وأخاه هارون ماتا في التيه، وفتح يوشع مع بني إسرائيل أرض الشام بعد موته –عليه السلام– بثلاثة أشهر. ومنهم من قال: الأمر في التّيه بالدخول بعد الخروج عنه. ولا يخفى ما في كل، فالأظهر: ما ذكرنا .

وقد رُوي: أن موسى –عليه السلام– سار بعد الخروج من التّيه بمَن بقى من بني إسرائيل إلى أريحاء وهي بأرض القدس. وكان يوشع بن نون على مقدّمته، ففتحها وأقام بها ما شاء الله تعالى، ثم قُبِض. وكأنهم أُمروا بعد الفتح بالدخول على وجْه الإقامة والسكنى، كما يشير إليه قوله تعالى{ :فَكُلُوا }...إلخ، وقوله: تعالى في (الأعراف){ :اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ .}ويؤيد كونه بعد الفتح: الإشارة بلفظ القريب، والقول بأنها نُزِّلَت منزلة القريب ترويجاً للأمر: بعيد، ولا ينافي هذا ما مرّ مِن أنه مات في التّيه، لأن المراد به :المفازة لا التيه –مصدر تاه يَتيه تَـِيهاً –بالكسر والفتح– وتيهاناً، إذا ذهب متحيراً– فليُفهم ."!

قلت: هذه مغالطة واضحة من الآلوسي، يأباها نصوص كثيرة تحتاج إلى تكلّف ظاهر في توجيهها. فالثابت الصحيح: أنّ موسى –عليه السلام– مات في صحراء سيناء، وقبره عند الكثيب الأحمر. فهل رجع موسى وحده للصحراء ليموت هناك، أم كيف وصل جسده الشريف إلى هذه البقعة؟! ثم الذي عليه أهل الكتاب والمؤرخون: أنّ موسى –عليه السلام– مات في فترة التيه وهي الضياع لمدة أربعين سنة المذكورة في سورة) المائدة)، وكذا هارون –عليه السلام–. وأن الذي افتتح بيت المقدس، وحُبست له الشمس: يوشع بن نون، كما ثبت في الحديث الصحيح. فمتى وصل موسى –عليه السلام– لبيت المقدس أصلاً؟ !إلى غير ذلك... والتعبير عن المفازة بالتيه خلاف الأصل، وادعاء لا دليل عليه.

فالقول ما قال ابن كثير ومَن وافقه.

{فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً :}أي: واسعاً هنيئاً، إشارة إلى حلّ جميع مواضعها لهم، أو

الإذن بنقل حاصلها إلى أيّ موضع شاؤوا، مع دلالة{ رَغَداً }على: أنهم مرخّصون بالأكل منها واسعاً، وليس عليهم القناعة لسدّ الجوعة. ويحتمل أن يكون وعداً لهم بكثرة المحصولات وعدم الغلاء.

والمراد بـ{الْبَاب :}أحد أبواب بيت القدس، ويدعى الآن" :باب حِطة"، قاله ابن عباس.

وقيل: الباب الثامن من أبوابه، ويدعى الآن: "باب التوبة"؛ وعليه مجاهد. وزعم بعضهم: أنه باب القبة التي كانت لموسى وهارون –عليهما السلام– يتعبّدان فيها، وجُعلت قبلة لبني إسرائيل .

)وحكى الرازي عن بعضهم: أنه عُني بالباب: جهة من جهات القرية .(

و{سُجَّداً :}حال من ضمير{ :ادْخُلُوا}، والمراد: خُضّعاً متواضِعين، لأنّ اللائق بحال المذنب التائب والمطيع الموافق: الخشوع والمسكنة. ويجوز حمْل السجود على المعنى الشرعي، ويؤيّده :ما رُوي عن وهب في معنى الآية: "إذا دخلتموه، فاسجدوا شكراً لله، أي: على ما أنعم عليكم، حيث أخرجكم من التِّيه، ونصركم على من كنتم منه تخافون، وأعادكم إلى ما تحبّون". وقال الزمخشري" :أُمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب، شكراً لله تعالى، وتواضعاً. وفسّر ابن عباس السجود هنا بالركوع، وبعضهم بالتَّطَامُن والانحناء، قالوا: وأُمروا بذلك لأن الباب كان صغيراً ضيّقاً يحتاج الداخل فيه إلى انحناء ."

واستبعد الرازي قول الحسن البصري في دخولهم ساجدين على وجوههم، وحكى عن بعضهم أنّ المراد ها هنا بالسجود :الخضوع، لِتعذر حمْله على حقيقته.

{وَقُولُوا حِطَّةٌ}، أي: مسألتنا، أو شأنك يا ربنا أن تحطّ عنا ذنوبنا .وذكر بعضهم: أنها بمعنى: التوبة، وأنشد :

فَازَ بالحِطّةِ التي جعل الـله	بها ذنبَ عبدِهِ مغفورَا

والحق: أنّ تفسيرها بذلك تفسير باللازم، ومن البعيد قول أبي مسلم: "إن المعنى أَمْرُنا حطّة أي: أن نحط في هذه القرية ونقيم بها، لعدم ظهور تعلّق الغفران به، وترتّب التبديل عليه، إلاّ أن يقال: كانوا مأمورين بهذا القول عند الحطّ في القرية لِمجرد التّعبد. وحين لم يعرفوا وجْه الحكمة بدّلوه."

{نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ :}هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم،

غفرنا لكم الخطيات، وضاعفنا لكم الحسنات .

وحاصل الأمر :أنهم أُمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح، بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشّكر على النعمة عندها .

وحاصل ما ذكَره المفسرون، وما دلّ عليه السياق من الحديث :أنهم بدّلوا أمْر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل؛ فأُمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم، رافعي رؤوسهم. وأمِروا أن يقولوا: "حطّة" -أي: احطط عنا ذنوبنا-. فاستهزؤوا فقالوا" :حنطة في شعرة". وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسَه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته، ولهذا قال{ :فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .}

قال الآلوسي: "الرّجز المراد به هنا -كما رُوي عن ابن عباس-: ظلمة وموت. يُروى: أنه مات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألْفاً. وقال وهب: طاعون غدَوْا به أربعين ليلة ثم ماتوا بعد ذلك. وقال ابن جبير: ثلج هلك به منهم سبعون ألْفاً. فإن فُسِّر بالثلج كان كونه من السماء ظاهراً، وإن بغيره، فهو إشارة إلى الجهة التي يكون منها القضاء، أو مبالغة في علوّه بالقهر والاستيلاء."

المعنى الإجمالي.

يُذكّر تعالى بني إسرائيل بنعمة أخرى مِن نِعمِه التي أنعمها عليهم، وما قابلوها به من عصيان وعتوّ وتمرّد؛ حيث أمَرهم بدخول الأرض المقدسة -وهي: بيت المقدس- بعد عفوه ورفْعه التّيه عنهم وتمكينه إياهم مِن فتحها، وما حصل لهم في ذلك من معجزة وتأييد منه سبحانه، وما أغدق عليهم فيها من خيرات وبركات ونِعَم يتمتّعون بها فيها حيث شاؤوا .وأمرهم أن يدخلوا من بابها مُطَأْطِئِي رؤوسهم راكعين لله، خاضعين متذلّلين طالبين منه حطّ ذنوبهم عنهم ومغفرته لهم؛ فبدّلوا ما أُمروا به في القول والفعل، فدخلوا الباب يزحفون على أَسْتَاهِهِم ويقولون كلاماً مخترَعاً من عند أنفسهم استهزاءً، معناه: حبة في شعيرة أو نحو ذلك؛ فظلموا أنفسهم، فأنزل الله عليهم عقابه وبأسه بعذاب من السماء، وهو الطاعون الذي أصابهم بسبب فسْقهم وخروجهم عن طاعته وعتوّهم وعنادهم.

مسائل الآية.

الأولى :

تقدّم في الآيات: أنهم أُمِروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشّكر على النعمة عندها .

قال ابن كثير: "والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى{ :إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}، فسّره بعض الصحابة بكثرة الذِّكر، والاستغفار عند الفتح والنصر .وفسّره ابن عباس بأنه نُعي إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أجلُه فيها، وأقرّه على ذلك عمر –رضي الله عنه–، ولا منافاة بين أن يكون قد أُمِر بذلك عند ذلك، ونُعيَ إليه روحه الكريمة أيضاً .

ولهذا كان –عليه الصلاة والسلام– يَظهر عليه الخضوع جداً عند النصر. كما رُوي أنه كان يوم الفتح –فتح مكة –داخلاً إليها من الثَّنِيَّة العليا، وإنه لخاضع لربّه حتى إنّ عُثْنُونه –أي: طرف لحيته– ليمسّ مَوْرِك رَحْله تشكّراً لله على ذلك. ثم لما دخل البلد، اغتسل وصلّى ثماني ركعات –وذلك ضحًى–، فقال بعضهم: "هي: صلاة الضّحى". وقال آخرون: "بل هي: صلاة الفتح"؛ فاستحبوا للإمام والأمير إذا فتح بلداً أن يُصلّي فيه ثماني ركعات عند أوّل دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– لما دخل إيوان كسرى صلّى فيه ثماني ركعات .

والصحيح: أنه يُفصل بين كلّ ركعتيْن بتسليم، وقيل :يصلّيها كلّها بتسليم واحد –والله أعلم

الثانية :

قال الآلوسي: "قد احتجّ بعض الناس بقوله تعالى{ :فَبَدَّلَ }...إلخ، وترتّب العذاب عن التبديل؛ على أنّ ما ورد به التوقيف من الأقوال، لا يجوز تغييره ولا تبديله بلفظ آخر. وقال قوم :يجوز ذلك إذا كانت الكلمة الثانية تسدّ مسدّ الأولى. وعلى هذا جرى الخلاف، كما في "البحر" في قراءة القرآن بالمعنى، ورواية الحديث به. وجرى في تكبيرة الإحرام، وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة والبيع والتمليك، والبحث مفصّل في غير هذا المحل."

قلت: واضح: أنّ تَرتّب العذاب في الآية على التبديل –بمعنى :التحريف، والاستخفاف، والاستهزاء، ومقابلة الأمر بخلافه–، لا على تأدية المعنى بلفظ مشابه عند تعذّر التأدية باللفظ

بعيْنه. قال الزمخشري{ :فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}، أي :وضعوا مكان "حِطَّة" قولاً غيرها، يعني: أنهم أُمروا بقولٍ معناه :التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قولٍ ليس معناه ما أُمروا به، ولم يمتثلوا أمْر الله. وليس الغرض أنهم أمِروا بلفظ بعيْنه –وهو لفظ: "الحطة"– فجاؤوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاؤوا بلفظ آخر مستقلّ بمعنى ما أُمروا به لم يُؤاخَذوا به، كما لو قالوا مكان "حطة": "نستغفرك ونتوب إليك"، أو "اللهم اعف عنا"، وما أشبه ذلك.

وقال الآلوسي: "إن هذه اللفظة عربية، وهم ما كانوا يتكلّمون بها. والظاهر: أنهم أُمروا أن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم، حتى لو قالوا: "اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك" لكان المقصود حاصلاً. ولا تتوقف التوبة على ذكر لفظة بعيْنها؛ ولهذا قيل: الأَوْجَه في كونها مفعولاً لِ}قُولُوا{، أن يراد: قولوا أمرا حاطاً لذنوبكم من الاستغفار؛ وحينئذ يزول عن هذا الوجه الغُبار. ثم هذه اللفظة –على جميع التقادير عربية معلومة الاشتقاق والمعنى وهو الظاهر المسموع. وقال الأصم: "هي من ألفاظ أهل الكتاب، لا نعرف معناها في العربية. وذكر عكرمة أنّ معناها: لا إله إلا الله؛ وهو من الغرابة بمكان ."

قلت: أمّا قول عكرمة وغيره، فهو محمول على أنّ التلفظ بكلمة التوحيد، وهي أفضل الكلمات وأجلّ الأذكار، ممّا يحط الذنوب ويغفرها؛ وهذا واضح للمتأمِّل وليس فيه أي غرابة.

الثالثة :

ذكر الرازي –رحمه الله تعالى– أن هذه الآية ذُكِرت في الأعراف مع مخالفة من وجوه لِنكات :

الأول :قال هنا{ :وَإِذْ قُلْنَا }لما قدّم ذكْر النِّعم، فلا بدّ مِن ذكر المنْعِم وهناك{ :وَإِذْ قِيلَ}، إذ لا إبهام بعد تقديم التصريح به.

الثاني :قال هنا{ :ادْخُلُوا}، وهناك{ :اسْكُنُوا}، لأن الدخول مقدّم، ولذا قدّم وضعاً المقدَّم طبعاً.

الثالث :قال هنا{ :خَطَايَاكُمْ }بجمْع الكثرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه، واللائق بجوده غفران الذنوب الكثيرة، وهناك{ :خَطِيئَاتِكُمْ }بجمْع القلّة إذ لم يصرّح بالفاعل .

الرابع :قال هنا{ :رَغَداً }دون هناك، لإسناد الفعل إلى نفْسه هنا، فناسب ذكْر الإنعام الأعظم وعدم الإسناد هناك .

الخامس :قال هنا{ :ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ}، وهناك بالعكس، لأنّ الواو لِمُطلق الجمْع، وأيضاً المخاطبون يُحتمل أن يكون بعضهم مُذنبين والبعض الآخر ما كانوا كذلك .

فالمذنب لا بد وأن يكون اشتغاله بحطّ الذّنْب مقدَّماً على اشتغاله بالعبادة؛ فلا جرَم كان تكليف هؤلاء أن يقولوا" :حطّة"، ثم يدخلوا. وأمّا الذي لا يكون مذنباً فالأوْلى به أن يشتغل أوّلاً بالعبادة، ثم يذكر التوبة ثانياً، للهضم وإزالة العُجب؛ فهؤلاء يجب أن يدخلوا ثم يقولوا. فلما احتمل كون أولئك المخاطبين منقسمِين إلى ذَيْن القسميْن، لا جرَم ذكر حُكم كلّ واحد منهما في سورة أخرى.

السادس :قال هنا{ :وَسَنَزِيدُ }بالواو، وهناك بدونه؛ إذ جعل هنا المغفرة مع الزيادة جزاءً واحداً لمجموع الفعليْن، وأمّا هناك فالمغفرة جزاء قول حطّة، والزيادة جزاء الدخول؛ فترْك الواو يفيد توزّع كلّ مِن الجزاءيْن على كلّ مِن الشرطيْن.

السابع :قال هناك{ :الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، وهنا لم يَذكُر{ مِنْهُمْ}، لأنّ أول القصة هناك مبنيّ على التخصيص بـ"مِن"، حيث قال{ :وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ}، فخصّ في آخر الكلام ليطابق أوّله. ولما لمْ يذكر في الآيات التي قبْل، فبدّل هنا تمييزاً وتخصيصاً لم يذكر في آخر القصة ذلك.

الثامن :قال هنا{ :فَأَنْزَلْنَا }وهناك{ :فَأَرْسَلْنَا}، لأنّ الإنزال يفيد حدوثه في أوّل الأمر، والإرسال يفيد تسليطه عليهم واستئصاله لهم، وذلك يكون بالآخرة .

التاسع :قال هنا{ :فَكُلُوا }بالفاء، وهناك بالواو، لأن كلّ فعْل عُطف عليه شيء، وكان الفعل بمنزلة الشرط وذلك الشيء بمنزلة الجزاء، عُطف الثاني على الأوّل بالفاء دون الواو . فلِتعلّق الأكل بالدّخول، قيل في سورة (البقرة){ :فَكُلُوا .}ولما لم يتعلق الأكل بالسكون في (الأعراف)، قيل{ :وَكُلُوا .}

العاشر :قال هنا{ :يَفْسُقُونَ}، وهناك{ :يَظْلِمُونَ}، لأنه لما بيّن هنا كوْن الفسق ظلماً، اكتفى بلفظ الظلم هناك. انتهى

قال الآلوسي: ولا يخفى ما في هذه الأجوبة مِن النظر.

ثم بدأ بنقضها بما يمكن نقضه أيضاً. ومن أمثلة ذلك: قوله:

أمّا في الأوّل والثاني والثامن والعاشر، فلأنها إنما تصحّ إذا كانت سورة (البقرة) متقدّمة على

سورة (الأعراف) نزولاً، كما أنها متقدّمة عليها ترتيباً، وليس كذلك؛ فإن سورة) البقرة) كلّها مدنيّة وسورة (الأعراف) كلّها مكية إلا ثماني آيات ... إلى آخر كلامه .

ويردّ عليه بأن الترتيب في المصحف، الأرجح أنه توقيفيّ، ولذا فهو معتبر؛ وقد علِم الله تعالى أنّ الترتيب سوف يكون هكذا. ومسألة النزول وتقدّمه قد تخفى على كثيرين، بخلاف الترتيب. وانظر إلى (الفاتحة) فقد سُمِّيت: (فاتحة الكتاب)، وقد سبق نزولها صدر (العلق) على أقلّ تقدير، وذلك مراعاة لموقعها في الترتيب في المصحف لا في النزول.

ولا نريد أن نطيل في الأخذ والرد، وكما قال بعض الفضلاء" :العلل كالوردة، تُشَمُّ ولا تُفرك". وهذه وجهات نظر ومُلَح مستنبطة يُستأنس بها، وليست على سبيل الجزم.

ثم قال الآلوسي في نهاية حديثه:

"والجواب الصحيح عن جميع هذه السؤالات وما حاكاها: ما ذكره الزمخشري من أنه لا بأس باختلاف العبارتيْن إذا لم يكن هناك تناقض..." إلى أن قال: "وبالجملة: التفنن في التعبير لم يزل دأب البلغاء، وفيه من الدلالة على رفعة شأن المتكلِّم ما لا يخفى. والقرآن الكريم مملوء من ذلك؛ ومن رام بيان سرّ لكلّ ما وقع فيه منه فقد رام ما لا سبيل إليه إلاّ بالكشف الصحيح والعلم اللَّدُنِيّ. والله يؤتي فضله من يشاء، وسبحان من لا يحيط بأسرار كتابه إلاّ هو."

قلت: كلام جميل، إلاّ أنّ آخره عَكَّر صفْوه بخرافات الصوفية وترّهاتها مِن كشْف وعلْم لدّنيّ لم يكونا لخيار الأمّة من الصحابة وتابعيهم وعلمائها الأكابر؛ ولو صحّ فما الذي يحرم العلماء من تحصيل ذلك، ويقْصره على الدراويش والمجاذيب وأصحاب الخِرَق؟

ومع ذلك، فلا مانع من محاولة التوصّل للحكمة والسر من وراء اختلاف التعبيريْن؛ وهذا ما ذهب إليه جمْع من جهابذة العلماء، وصنّف فيه العلماء التصانيف، أمثال الكرماني في كتابه: "البرهان في توجيه متشابه القرآن"، وشرف الدِّين الحسين بن ريّان في كتابه: "الروض الرّيّان في أسئلة القرآن ."ومن أحسن ما أُلِّف فيه: كتاب "ملاك التأويل" لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي.

ونكتفي بهذا القدْر، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأسئلة :

١. قرأ ابن عامر : تغفر لكم بالتأنيث لأن خطايا مؤنث مجازي يجوز في الفعل المسند إليه التأنيث (صح) .

٢. وقرأ نافع وأبو جعفر : يغفر لكم بالتذكير وكلهم على البناء لما لم يسم فاعله وهي قراءة شاذة (خطأ) .

٣. الآيات تتكلم عن بني إسرائيل وتذكيرهم بمواقفهم وسوء أدبهم مع ربهم وسعة رحمته وتفضله عليهم على الرغم من ذلك (صح) .

٤. القرية بفتح القاف والكسر لغة أهل اليمن من قريت إذا جمعت سميت بذلك لأنها تجمع الناس على طريقة المساكنة ولا يقال لها قرية إلا إذا كانت قليلة العدد (خطأ) .

٥. حطة : فعلة من الحط كالجلسة والركبة وهي مبتدأ حذف خبره (خطأ) .

٦. والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة وإنما رفعت لتعطي معنى الثبوت (صح) .

٧. الرجز : هو العذاب وتكسر راؤه وتضم والضم لغة بني الصعدات .

٨. ثبت عن النبي ﷺ قال : قيل لبني إسرائيل : (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حبة في شعرة (صح) .

٩. المقصود بالقرية هنا مدينة دمشق (خطأ) .

١٠. اختلف في معنى قوله تعالى (قولوا حطة) على معان (صح) .

١١. و عن ابن عباس في قوله وسنزيد المحسنين قال من كان قبلكم محسنا زيد في إحسانه ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته (صح) .

١٢. الرجز هو العذاب ، وقال بعضهم هو الطاعون (صح) .

١٣. هذه الأحداث المذكورة كانت بعد خروجهم من التيه مع يوشع بن نون فأمروا أن يدخلوا ساجدين شاكرين لله تعالى (صح) .

١٤. وقال الآلوسي : والظاهر أن الأمر بالدخول على لسان موسى عليه السلام كالأوامر السابقة واللاحقة . وهذا القول هو أصح من غيره (خطأ) .

١٥. قوله (رغداً) أي : واسعاً هنيئاً (صح) .

١٦. الصحيح أن قول حطة أمروا به للتعبد ولما لم يعلموا معناه بدلوه (صح) .

١٧. حاصل الأمر : أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها ، والشكر على النعمة عندها (صح) .

١٨. عاقبهم الله ووصفهم بالفسق لأنهم عتوا واستهزءوا بأمر الله وخالفوه بالقول والفعل (صح) .

١٩. أصابهم الله برجز من السماء وهو ثلج نزل عليهم هلك به سبعون ألفاً (صح) .

٢٠. الآيات فيها دلالة على أن الواجب على العبد إذا جاءه نصر من الله وفتح أن يبادر إلى الخضوع والشكر والاستغفار كما فعل النبي ﷺ عند فتح مكة (صح) .

٢١. الاستدلال بسورة النصر على أن الواجب عند الفتح أن يبادر العبد إلى التسبيح والتوبة ضعيف لأن السورة نزلت لنعي النبي ﷺ كما فسرها ابن عباس ووافقه على ذلك عمر (خطأ)

٢٢. في الآية دليل على أنه لا يجوز تبديل ما جاء به الشرع وعليه يترجح عدم جواز رواية الحديث بالمعنى وغير ذلك (خطأ) .

٢٣. التبديل الذي فعلوه لم يكن عن اجتهاد وتبديل للفظ بما يوافق معناه وإنما كان استهزاء وتحريفاً فلذلك عوقبوا عليه (صح) .

٢٤. الأصح أنهم أمروا أن يقولوا كلاماً يدل على التوبة والاستغفار يؤدي إلى حط ذنوبهم عنهم (صح) .

٢٥. قول عكرمة في قولهم حطة : هي قول لا إله إلا الله قول غريب لا وجه له هنا (خطأ)

٢٦. قال في هذه الآية (قلنا) وفي مثيلها في الأعراف (قيل) للتفخيم والتهويل هناك (خطأ) .

٢٧. قال هنا (ادخلوا) وفي الأعراف (اسكنوا) لأن الدخول مقدم على السكن ولذا قدم وضعاً المقدم طبعاً (صح) .

٢٨. قال هنا (خطاياكم) بجمع الكثرة وفي الأعراف (خطيئاتكم) بجمع القلة لأنه هنا ذكر أنه هو الذي قال لهم ذلك وهناك بالمجهول فمخالفة الأمر هنا أعظم من مخالفته هناك (خطأ) .

٢٩. قال هنا (وسنزيد) بالواو وفي الأعراف بدونه إذ جعل هنا المغفرة مع الزيادة جزاءا واحدا لمجموع الفعلين وأما هناك فالمغفرة جزاء قول حطة والزيادة جزاء الدخول فترك الواو يفيد توزع كل من الجزاءين على كل من الشرطين (صح) .

٣٠. الصحيح أنه لا يتكلف في توجيه الخلاف اللفظي بين هذه الآية وآية الأعراف وإنما يقال : كل من عند الله وهو من باب اختلاف التعبير والأسلوب بمعنى واحد (خطأ) .

المحاضرة التاسعة والعشرون

***

تفسير الآيتيْن: (٦٠) و(٦١) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.}

قراءات:

قرأ نافع{ :النَّبِيئِينَ}، وهذه المادة كلها بالهمزة على الأصل، لأنها مِن: "النّبأ "وهو: الخبر.

وقرأ الباقون بدون همز تخفيفاً، أو على أنّ الأصل ليس مِن: "النّبأ"، وإنما مِن: "النَّبَاوة" وهي: الرِّفْعة، باعتبار رفعة مكانه عند الله، أو تكون مشتقّة مِن: "النّبِيّ "وهو: الطريق الواضح، باعتبار كونه طريقاً إلى الله .والقول بالأوّل أرجح وأقوى؛ وعليه فالقراءتان بمعنًى.

والحديث المرويّ في النهي عن كلمة "نبيء الله" لا يثبت، والقراءة المتواترة قاضية ببطلانه.

المناسبة :

ما زال الحديث عن بني إسرائيل ومواقفهم مع ربّهم ونبيّهم.

لغويّات.

الاسْتِسْقاء :طَلَب السُّقْيا عند عدم الماء أو قِلَّته. وقد تعدّى هذا الفعل في الفصيح إلى المسْتَسْقَى منه تارة، وإلى المسْتَسْقِي أخرى، كما في قوله تعالى{ :إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ}، وقوله:

وأَبْيَضُ يُسْتَسْقَي الغمامُ بوجْهه	ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأرامل

والعصا :مؤنث، والألف منقلبة عن واو، بدليل: عَصَوَان، وعَصَوْتُه، أي: ضربتُه بالعصا .
ويُجمع على: "أَفْعُل" شذوذاً، وعلى: "فُعُول" قياساً؛ فيقال: أَعْصٍ وعِصِيّ.

{الْحَجَرَ :}هو هذا الجسم المعروف، وجمْعه: أحجار وحجار، وقالوا: حجارة .واشتقوا منه فقالوا: استحجر الطين. والاشتقاق مِن الأعيان قليل جداً.

والانفجار :انصداع شيء من شيء، ومنه: الفجر والفجور .

والعيْن :منبع الماء، وجُمع على: أَعْيُن شذوذاً، وعُيُون قياساً .

و{أُنَاس :}جمْع لا واحد له مِن لفْظه. وما ذُكر من شذوذ إثبات همْزته إنما هو مع الألف واللام، وأمّا بدونها فشائع صحيح.

والمِشْرب :إمّا اسم مكان، أي: محلّ الشُّرب، أو مصدر ميميّ بمعنى: الشرب. وحمَله بعضهم على المشروب وهو: الماء، وحمْله على المكان أوْلى عند أبي حيّان.

{تَعْثَوْا :}العُثُوّ عند بعض المحقِّقين: مجاوزة الحدّ مطلقاً، فساداً كان أوْ لا، فهو كالاعتداء؛ ثم غَلَبَ في الفساد .

و{مُفْسِدِينَ }على هذا: حال غير مؤكّدة، وهو الأصل فيها كما يدل عليه تعريفها .

وذكر أبو البقاء: أنه الفساد، والحال مؤكّدة، وفيه: أنّ مجيء الحال المؤكّدة بعد الفعلية خلاف مذهب الجمهور. وذهب الزمخشري، أنّ معناه: أشد الفساد، والمعنى: لا تتمادوا في الفساد حال إفسادكم. والمقصد: النهي عما كانوا عليه مِن التمادي في الفساد؛ وهو من أسلوب : {لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً.}

البَقْل :ما أنبتتْه الأرض مِن الخضر، والمراد به: أطايب البقول التي يأكلها الناس، كالنعناع، والكرفس، والكراث، وأشباهها ...

والفُوم :الحنطة، ومنه: فَوِّمُوا لنا، أي: اخبزوا. وقيل: الثوم، ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود : {وَثُومِهَا}، وهو للعدس والبصل أوفق، ويأتي تفصيل الكلام فيه.

{الَّذِي هُوَ أَدْنَى :}الذي هو أقرب منزلة وأَدْوَن مقداراً، والدُّنُو والقرب يعبَّر بهما عن قلّة المقدار، فيقال :هو داني المحلّ وقريب المنزلة. كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك، فيقال: هو بعيد المحلّ وبعيد الهمّة، يريدون: الرِّفْعة والعلوّ .

ويحتمل أن يكون مهموزاً مِن: "الدَّنَاءة"، وأبدلت فيه الهمزة ألفاً. ويؤيده: قراءة زهير والكسائي{ :أَدْنَأُ }بالهمزة .

{اهْبِطُوا مِصْراً :}أي: انحدروا إليه مِن التِّيه، يقال :هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج.

والهبوط يجوز أن يكون مكانياً، بأن يكون التِّيه أرفع مِن المصر، وأن يكون رُتْبِيًّا، وهو الأنسب بالمقام.

والمِصْر :البلد العظيم، وأصْله الحدّ والحاجز بين الشيئيْن، قال :

وجاعل الشمس مِصْرا لا خفاءَ به	بيْن النهار وبيْن اللّيل قد فَصَلا

وإطلاقه على البلد، لأنه مَمْصور، أي: محدود، وأخذه مِن: مصرْت الشاة أمصرها، إذا حَلَبْت كلّ شيء في ضرعها بعيد. وحكي عن أشهب، أنه قال: قال لي مالك: هي مصر قريتك، مسكن فرعون؛ فهو إذاً عَلَم.

ومِن الناس مَن جعل "مصر" مُعَرَّب مِصْرَائِيم، كـ"إسرائيل" اسم لأحد أولاد نوح –عليه السلام–، وهو أوّل من اخْتَطها، فسميت باسمه .وإنما جاز الصرف حينئذ لعدم الاعتداد بالعجمة، لوجود التعريب والتّصرّف فيه .

{وَبَاءُوا بِغَضَبٍ :}من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يُقتل به لمساواته له ومكافأته، أي: صاروا أحقّاء بغضبه. وأصل البُوَاء– بالفتح والضم–" مساواة الأجزاء، ثم استُعمل في كلّ مساواة، فيقال: هو باء فلان، أي: كُفْؤه.

الآثار.

عن ابن عباس: "جُعل بين ظهرانيهم حجَر مربّع، وأُمر موسى– عليه السلام– فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية منه ثلاث عيون. وأَعلم كلّ سبط عيْنهم، يشربون منها، لا يرتحلون مِن مَنْقَلَة إلاّ وجدوا ذلك منهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول."

وهذا قطعة من حديث الفتون الطويل، الذي ذكرناه أكثر مِن مَرة .

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ }...الآية، قال: "ذلك في التِّيه،

ضرب لهم موسى الحجَر فصار فيه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها."

وعن ابن عباس: "لما كان بنو إسرائيل في التّيه، شقّ لهم مِن الحجَر أنهاراً ."

وعن قتادة، في قوله{ :وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ }...الآية، قال: "كان هذا في البَرّية حيث خشوا الظّمأ، استسقى موسى، فأمر بحجَر أن يضربه، وكان حجراً طُورانيا مِن الطّور يحملونه معهم؛ حتى إذا نزلوا، ضربَه موسى بعصاه،{ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ}، قال :لكلّ سبط مهم عيْن معلومة يَستفيد ماءها ."

وعن مجاهد قال: "انفجر لهم الحجَر بضربة موسى اثنتيْ عشرة عيناً، كلّ ذلك كان في تيههم حين تاهوا."

وقال يحيي بن النضر: "قلت لجويْبِر: كيف علِم كلّ أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر، ويقوم مِن كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجَر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، فيَنْتَضِحُ مِن كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سِبْطه إلى تلك العين ."

وقال عطية العوفي: "وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور، يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه، فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. فإذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء ."

وقال عطاء الخراساني: "كان لبني إسرائيل حجَر، فكان يضعه هارون، ويضربه موسى بالعصا ."

وعن ابن عباس في قوله{ :وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}، قال" :لا تسْعَوْا ."

وعن أبي العالية، في قوله{ :وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}، قال: "لا تسعوْا في الأرض فسادا ."

وعن أبي مالك، في قوله{ :وَلا تَعْثَوْا}، قال: "يعني: ولا تمشُوا بالمعاصي ."

وعن قتادة، في قوله{ :وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}، قال" :لا تسيروا في الأرض مفسدين ."

وعن مجاهد، قال: "استسقى موسى لقومه، فقال: "اشربوا يا حمير ."فقال الله تعالى له: "لا تُسَمِّ عبادي: حميراً ."

وعن مجاهد، في قوله{ :وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ}، قال: "المنّ والسّلوى، استبدلوا به البَقْل وما ذُكر معه ."

وعن قتادة قال: "مَلُّوا طعامهم في البرية، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل ذلك، فقالوا{ :فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ }...الآية ."

وقال الحسن البصري –رحمه الله–: "فبَطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيْشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقول وفوم؛ فقالوا{ :يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا."}

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَفُومِهَا}، قال" :الخبز ."

وفي لفظ: "البُرّ."

وفي لفظ: "الحنطة، بلسان بني هاشم ."

وعن ابن عباس: أنّ نافع بن الأزرق، قال له: أخبرني عن قوله تعالى{ :وَفُومِهَا}، قال: الحنطة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أُحَيْحَة بن الجُلاح وهو يقول :

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ورَد المدينةَ عن زراعة فومِ

وعن مجاهد، وعطاء{ :وَفُومِهَا}، قالا" :وخبزها ."

وعن الحسن، وأبي مالك، في قوله{ :وَفُومِهَا}، قالا" :الخبز"، وفي رواية قالا: "الحنطة ."

وهو قول عكرمة، والسدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم ...

وعن ابن عباس، قال: "الفوم: الثوم ."

وعن ابن مسعود، أنه قرأ{ :وَثُومِهَا }بالثاء .

وعن مجاهد: "الثوم ."

وكذا عن سعيد بن جبير.

وعن الربيع بن أنس، قال: "الفوم: الثوم –وفي بعض القراءة{ :–وَثُومِهَا ."}

وعن ابن عباس، قال:قراءتي قراءة زيد، وأنا آخذ ببضعة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود، هذا أحدها{ :مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا .}

وأخرج الطِسْتِي في مسائله عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق، قال له: أخبرني عن قوله –عز

وجل{ :-وَفُومِهَا}، قال: الفوم: الحنطة .قال: وهل تعرف العرب ذلك. قال: نعم، أما سمعت أبا محجن الثقفي، وهو يقول:

قد كنت أحسبني كأغنى واحد　　　قدِم المدينة عن زراعة فومِ

قال: يا ابن الأزرق، ومَن قرأها على قراءة ابن مسعود، فهو :المِنتن. قال أمية ابن أبي الصلت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً　　　فيها الفَراديس والفُومات والبصل

وقال أمية بن أبي الصلت أيضاً:

أنفي الدِّياس مِن الفوم الصحيح كما　　　أنفي من الأرض صَوب الوابل البَرَد

وعن مجاهد، في قوله{ :أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ}، قال" :أردأ ."

وعن ابن عباس، في قوله{ :اهْبِطُوا مِصْراً}، قال: "مصراً مِن الأمصار ."

ورُوي عن السدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك .

وعن قتادة، في قوله{ :اهْبِطُوا مِصْراً}، يقول: "مصراً مِن الأمصار ."

و عن أبي العالية في قوله{ :اهْبِطُوا مِصْراً}، قال" :يعني به: مصر فرعون."

وعن الربيع بن أنس، مثله.

و عن الأعمش، أنه كان يقرأ{ :اهْبِطُوا مِصْرَ}، بلا تنوين، ويقول" :هي مصر التي عليها صالح بن علي ."

و عن ابن عباس{ :وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}، قال" :هم أصحاب النِّيَالات"، يعني: الجزية .

وعن الحسن وقتادة، في قوله تعالى{ :وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ}، قالا{" :يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ."}

وقال الضحاك{ :وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ}، قال: "الذل ."

وقال الحسن: "أذلهم الله، فلا مَنَعَة لهم. وجعلهم تحت أقدام المسلمين. وقد أدركتهم هذه الأمّة وإنّ المجوس لتُجْبِيهم الجزية ."

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والسدي:" المسكنة :الفاقة ."

وقال عطية العوفي: "الخراج ."

وقال الضحاك: "الجزية ."

وعن الضحاك{ :وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}، قال: "استحقوا الغضب من الله ."

وعن الربيع بن أنس: "فحدث عليهم غضب من الله ."

وعن سعيد بن جبير{ :وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}، يقول" :استوجبوا سخطاً ."

و عن قتادة، في قوله{ :وَبَاءُوا}، قال" :انقلبوا ."

و عن عبد الله بن مسعود، قال: "كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاث مائة نبي، ثم يقيموا سوق بقلهم من آخر النهار ."

وأخرج أحمد عن ابن مسعود: أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة: رجل قتله نبيٌّ أو قَتَل نبياً، وإمامُ ضلالة، ومُمَثِّل من الممثِّلين.((

أقوال المفسِّرين.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيّكم موسى –عليه السلام–، حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم مِن حجَر يُحمل معكم، وتفجيري الماء منه من ثِنْتَيْ عشرة عيْناً، لكل سِبْط من أَسْباطكم عيْن قد عرفوها. فكلوا مِن المنّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أَنْبَعْته لكم بلا سعي منكم ولا كدّ، واعبدوا الذي سخّر لكم ذلك .

وكان هذا العدد دون غيره، لكونهم كانوا اثنيْ عشر سبطاً، وكان بينهم تضاغن وتنافس؛ فأجرى الله تعالى لكل سبْط عيناً يرِدها لا يشركه فيها أحد من السبط الآخر، دفعاً لإثارة الشحناء. ويشير إلى حكمة الانقسام: قوله تعالى{ :قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ}؛ وهي جملة مستأنفة، مفهمة على أنّ كلّ سبط منهم قد صار له مشرب يعرفه، فلا يتعدّى لمشرب غيره. وإنما وصفها به لأنه معجزة أخرى، حيث يحدث مع حدوث الماء جداول يتميّز بها مشرب كلٍّ من مشرب آخر .

وقوله{ :الْحَجَرَ}،قال الزمخشري: "اللام إمّا للعهد والإشارة إلى حجَر معلوم، فقد روي أنه حجر طوري حمله معه، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه، كانت تنبع مِن كلّ وجه ثلاث أعين، لكل سِبْط عين تسيل في جدول إلى السِّبط الذي أُمر أن يسقيهم. وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً."

قال: "وقيل: أهبطه آدم مِن الجنّة، فتوارثوه؛ حتى وقع إلى شعيب، فدفعه إليه مع العصا.
وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل، إذ رموه بالأَدَرَة، ففرّ به، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجَر، فإن لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة. فحمله في مِخْلاته .
وقيل: كان مِن رخام، وكان ذراعاً في ذراع. وقيل: مثل رأس الإنسان. وقيل: كان من أُسِ الجنّة، طوله عشرة أذرع على طول موسى، وله شعبتان يَتَّقِدان في الظلمة، وكان يحمل على حمار ."

قال الآلوسي: "وقيل: حجَر أُخذ من قعر البحر، خفيف، يشبه رأس الآدمي. كان يضعه في مخلاته، فإذا احتاج للماء ضرَبه .والروايات في ذلك كثيرة. وظاهر أكثرها: التعارض، ولا ينبني على تعيين هذا الحجر أمْر ديني. والأسلم تفويض علْمه إلى الله تعالى ."

قال الزمخشري: "ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد .أي: اضرب الشيء الذي يقال له: الحجَر ."

وعن الحسن: "لم يأمره أن يضرب حجراً بعيْنه. قال: وهذا أظهر في المعجزة، وأبْين في القدرة ."

وقال وهب: "كان يقرع لهم أقرب حجَر فتنفجر."

وروي أنهم قالوا: "كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة، فحمل حجراً في مِخْلاته، فحيثما نزلوا ألقاه. وقيل :كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فَيَيْبَس. فقالوا: إن فقد موسى عصاه مِتْنا عطشاً، فأُوحي إليه: لا تقرع الحجارة وكلّمْها تُطعك، لعلّهم يعتبرون ."

وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة) الأعراف)، ولكن تلك مكية؛ فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب، لأن الله تعالى يقصّ ذلك على رسوله –صلى الله عليه وسلم– عمّا فعل بهم. وأما في هذه السورة –وهي: (البقرة)–، فإنها مدنية، فلهذا كان الخطاب متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله{ :فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً}، وهو أوّل الانفجار. وأخبر ها هنا بما آل إليه الأمر آخراً، وهو: الانفجار؛ فناسب ذكر الانفجار ها هنا، وذاك هناك – والله أعلم .–

)وبين السياقيْن تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية، قد سأل عنها الرازي في تفسيره، وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قريب –والله أعلم.(–

والرزق ها هنا بمعنى: المرزوق، وهو: الطعام المتقدّم مِن المنّ والسلوى، والمشروب من ماء العيون .

{وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ :}ولا تقابلوا النِّعم بالعصيان فتُسلَبوها .

والمراد من الأرض عند الجمهور: أرض التِّيه، ويجوز أن يريدها وغيرها، ممّا قدروا أن يصلوا إليها، فينالها فسادهم. وجوّز أن يريد الأرَضِين كلّها، و"أل" لاستغراق الجنس، ويكون فسادهم فيها من جهة أنّ كثرة العصيان والإصرار على المخالفات والبطر يُؤذن بانقطاع الغيث وقحط البلاد ونزع البركات، وذلك انتقام يعم الأرَضِين .

ثم يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنّ والسلوى، طعاما طيّباً، نافعاً هنيئاً سهلاً .واذكروا دَبَرَكم وضَجَرَكم ممّا رزقناكم، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية مِن البقول ونحوها ممّا سألتم .

)وإنما قالوا{ :عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ}، وهم يأكلون المنّ والسلوى، لأنه لا يتبدّل ولا يتغيّر كل يوم؛ فهو كأكل واحد .(

قال الآلوسي: "وإنما سألوا من موسى أن يدعو لهم، لأن دعاء الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– أقرب للإجابة من دعاء غيرهم، على أن دعاء الغير للغير مطلقاً أقرب إليها؛ فما ظنك بدعاء الأنبياء لأممهم، ولهذا قال –صلى الله عليه وسلم– لعُمر –رضي الله تعالى– عنه)) :أشْركنا في دعائك((، وفي الأثر: "ادعوني بألسنة لم تعصوني فيها"؛ وحُملت على ألسنة الغير .

وقالوا{ :رَبَّكَ}، ولم يقولوا" :ربّنا"، لأن في ذلك من الاختصاص به ما ليس فيهم، من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة؛ فكأنهم قالوا: ادع لنا المحسن إليك بما لم يُحسن به إلينا، فكما أحسن إليك مِن قبْل نرجو أن يحسن إليك في إجابة دعائك."

قلت: كذا قال، والذي يظهر لي: أن ذلك من سوء أدبهم مع نبيهم ومع ربهم، فهم كذلك دائماً إنما يطلبون موسى –عليه السلام– من باب التعنت والتضييق عليه، ولا يصفون الله تعالى بربوبيته لهم، وإنما بربوبيته لموسى –عليه السلام–، مثل قولهم في قصة (البقرة){ :ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ }...الآيات، ومثل{ :فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ .}بل استمر ذلك

فيهم حتى مع عيسى -عليه السلام{ :-هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ.}

والبقول، والقثاء، والعدس، والبصل، كلّها معروفة. وأما الفوم، فقد اختلف السلف في معناه.

فمنهم من قال: هو: الثوم، كما تقدم في الآثار .

قال ابن جرير: "فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبدلة، كقولهم: وقعوا في عَاثُور شر، وعَافُور شر، وأَثافِي وأَثاثِي، ومَغَافِير ومَغَاثِير، وما أشبه ذلك ممّا تُقلب الفاء ثاء، والثاء فاء لتقارب مخرجيهما -والله أعلم ."-

وقال آخرون: الفوم: الحنطة، وهو: البُر الذي يُعمل منه الخبز .

قالوا: وفي اللغة القديمة: فَوِّمُوا لنا، بمعنى: اخْتَبِزُوا .

)وقال الجوهري: "الفوم: الحنطة". وقال ابن دريد" :الفوم: السنبلة". وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة: أن الفوم: كلّ حبّ يُختبز. قال: وقال بعضهم: هو الحمص، لغة شامية. ومنه يقال لبائعه: "فاميّ"، مغيّر عن: "فوميّ .("

وقال البخاري: "وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلّها فوم ."

قال الآلوسي:" والقول بأنه الخبز يبعده الإنبات من الأرض وذكره مع البقل وغيره ."

قلت: من قال: الخبز، إنما فسره بما يؤول إليه، وهو واضح .

وقوله تعالى{ :قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ }فيه تقريع لهم، وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنية، مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع .

وأُريد بالذي هو خير: المن والسلوى، ومعنى خيرية هذا المأكول بالنسبة إلى ذلك: غلاء قيمته، وطيب لذته، والنفع الجليل في تناوله، وعدم الكلفة في تحصيله، وخلوه عن الشبهة في حلّه .

وقوله{ :اهْبِطُوا مِصْراً- }هكذا هو منوّن مصروف، مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصّرف-. قال ابن جرير: "ولا أستجيز القراءة بغير ذلك، لإجماع المصاحف على ذلك ."

وقال ابن جرير: "وقع في قراءة أُبيّ بن كعب وابن مسعود{ :اهْبِطُوا مِصْرَ }من غير إجراء،

يعني: من غير صرف."

قال ابن جرير: "ويحتمل أن يكون المراد: مصر فرعون، على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الاتّباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى{ :قَوَارِيرَا } قَوَارِيرَ}، ثم توقف في المراد ما هو؟ أمصر فرعون، أم مصر من الأمصار؟ ."

وهذا الذي قاله فيه نظر. والحق أن المراد: مصر من الأمصار؛ والمعنى على ذلك، لأن موسى –عليه السلام– يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أيّ بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه .

ولهذا قال{ :أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ}، أي: ما طلبتم.

ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر، ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه –والله أعلم .– يقول تعالى{ :وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}، أي :وُضعت عليهم، وألزموا بها شرعاً وقدَراً، أي: لا يزالون مستذَلّين، مَن وَجدهم استذلّهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون .

والمعنى: جُعلت الذّلّة محيطة بهم، مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة مَن ضُربت عليه، أو ألصقت بهم حتى لزمتْهم ضربة لازب، كما يُضرب الطين على الحائط فيلزمه .

فاليهود صاغرون أذلاّء، أهل مسكنة ومَدْقَعَة، إمّا على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتَفَاقُرِهم خيفة أن تُضاعف عليهم الجزية.

وقال ابن جرير" :يعني بقوله{ :وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ :}انصرفوا ورجعوا ."

ولا يُقال: "باء" إلاّ موصولاً إمّا بخير وإمّا بشرّ، يقال منه: باء فلان بذنبه، يبوء به بوءاً وبواءً، ومنه قوله تعالى{ :إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ}، يعني: تنصرف متحمّلهما، وترجع بهما قد صارا عليك دوني. فمعنى الكلام إذاً: رجعوا منصرفِين مُتحمِّلين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط .

وقوله تعالى{ :ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم؛ فانْتَقَصوهم

إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا. إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء في الحديث المتّفق على صحته: أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :الكِبْر: بَطَرُ الحقّ وغَمْط الناس.((

عن ابن مسعود، قال: كنت لا أُحجب عن النجوى، ولا عن كذا، ولا عن كذا، فأتيت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وعنده مالك بن مُرارة الرَّهاوِي، فأدركته من آخر حديثه وهو يقول: يا رسول الله، قد قُسِم لي من الجمال ما ترى، فما أُحِب أنّ أحداً من الناس فضلني بِشِراكيْن فما فوقهما، أليس ذلك هو البغْي؟ فقال)) :لا! ليس ذلك من البغي. ولكن البغي مَنْ بَطِر((، أو قال)) :سَفِه الحقَّ وغَمِطَ النَّاسَ((، يعني: ردّ الحق وانتقاص الناس، والازدراء بهم، والتعاظم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه مِن الكفر بآيات الله وقتْلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرَدّ، وكساهم ذلاًّ في الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة جزاءً وفاقاً .

والآيات: إما المعجزات مطلقاً، أو التّسع التي أتى بها موسى –عليه السلام–، أو ما جاء به من التّسع وغيرها، أو آيات الكتب المتلُوَّة مطلقاً، أو التوراة، أو آيات منها، كالآيات التي فيها صفة رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم–، أو التي فيها الرجم، أو القرآن.

وقَيَّد القتل بغير الحق مع أنّ قتل الأنبياء لا يكون إلاّ كذلك، للإيذان بأنّ ذلك بغير الحق عندهم، إذ لم يكن أحد معتقداً أحقّيّة قتْل أحد منهم –عليهم السلام–، وإنما حملهم عليه حب الدنيا واتباع الهوى والغلوّ في العصيان والاعتداء. فاللام في{ :الْحَقّ }على هذا: للعهد، وقيل الأظهر أنها للجنس؛ والمراد: بغير حق أصلاً، إذ لام الجنس المبهم كالنكرة. ويؤيده ما في (آل عمران){ :بِغَيْرِ الْحَقِّ}؛ فيفيد أنه لم يكن حقاً باعتقادهم أيضاً. ويمكن أن يكون فائدة التقييد :إظهار معايب صنيعهم، فإنه قتْل لنبي، ثم جماعة منهم، ثم كونه بغير الحق.

وقوله تعالى{ :ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}، وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جُوزوا به: أنهم كانوا يعصون ويعتدون؛ فالعصيان: فعْل المناهي، والاعتداء: المجاوزة في حدّ المأذون فيه والمأمور به –والله أعلم.–

المعنى الإجمالي.

يَذْكُر سبحانه موقفاً آخر مِن مواقف إنعامه على هؤلاء الجاحدين من بني إسرائيل، وذلك حين استسقى موسى -عليه السلام- لهم، حينما احتاجوا إلى الماء في التّيه، فأمره سبحانه أن يضرب بعصاه التي يحملها معه حجَراً مربعاً جعله الله بين ظهرانيهم؛ فانفجرت من جوانبه الأربعة اثنتا عشرة عيناً، من كل جانب ثلاث عيون، لكل سِبْطٍ من أسباطهم عيْن يشربون منها لا يشركهم فيها غيرهم، منعاً للتنازع ودرءاً للشحناء. فيسّر لهم الشراب والطعام بهذه المعجزات الباهرات، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بتعدّي حدود الله وكفْر نعمته. ولكنهم بطروا، ولم يقدروا نعمة الله عليهم، وتذمّروا من استمرارهم على هذا الطعام الطيب مِن المنّ والسلوى، وطالبوا نبيهم موسى -عليه السلام- بوقاحة وفظاظة أن يطلب من ربه أن يُنْبِت لهم في تيههم ما عهدوه من البقول، والقثاء، والثوم، والعدس، والبصل. فما كان منه- عليه السلام- إلا أن وَبَّخَهُم ولامهم على استبدالهم الطعام المبارك الطيب النافع بما هو دونه بكثير، وأخبرهم أنّ طلبهم وسُؤْلَهم موجود بأيّ مصر من الأمصار ينزلوه إذا خرجوا من هذا التِّيه. وقد عاقبهم الله تعالى بأن جعل الذلة والصغار والمسكنة ملازماً لهم في صور شتى، من احتقار الأمم لهم، وضرب الجزية عليهم، وتشرذمهم في المعمورة، وانطوائهم على أنفسهم، وبغض الناس لهم. وأنزل الله غضبه بهم، بسبب كفرهم بكل هذه الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات، وقتلهم أنبياءه الكرام، وانهماكهم في شتّى المعاصي وأنواع الاعتداء.

مسائل الآيتيْن.

الأولى :

أنكر بعض الطبعيّين هذه الواقعة، وقالوا: كيف يُعقل خروج الماء العظيم الكثير من الحجَر الصغير؟ وهذا المنكِر مع أنه يتصور قدرة الله تعالى في تغيير الطبائع والاستحالات، فقد ترك النظر على طريقتهم، إذ تقرر عندهم أمور من أسرار الطبيعة، ومنها: أن حجَر المغناطيس يجذب الحديد مثلاً؛ وإذ لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم، فليس يمتنع أن يخلق في حجَر آخر قوّة جذب الماء من تحت الأرض، ويكون خلْق تلك القوة عند ضرب العصا أو غير ذلك؛ والله تعالى على كل شيء قدير .

الثانية:

زعم بعض الملحدين: أنّ بين آية قتل الأنبياء وما أشبهها، وقوله تعالى{ :إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } تناقضاً. وأجيب بأنّ المراد بالرّسل: المأمورون بالقتال، وأجيب بأجوبة أخرى ذكَرها الآلوسي.

والأقوى: أن يقال: العاقبة تكون لهؤلاء الرّسل سواءً في حياتهم أو على يد أتباعهم.

الثالثة:

اليهود -عليهم لعائن الله المتتالية إلى يوم القيامة -وإن ظهر لهم شيء من الصَّولة، إلاّ أنهم أحقر الناس في نظر الأمم، وقد قال تعالى{ :إِلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ .}ولولا ضعف المسلمين، وتَرْكُهم للجهاد، وبُعدهم عن دينهم، لما كانت لهؤلاء -إخوان القردة والخنازير- قائمة. نسأل الله تعالى أن يُعيد لهذه الأمّة عزّها -والله الموفِّق.-

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأسئلة :

١. قرأ نافع النبيين وهذه المادة كلها بالهمزة على الأصل لأنها من النبأ وهو الخبر وقرأ الباقون بدون همز تخفيفا أو على أن الأصل ليس من النبأ وإنما من النباوة وهي الرفعة ، باعتبار رفعة مكانه عند الله أو تكون مشتقة من النبي وهو الطريق الواضح باعتبار كونه طريقا إلى الله (صح) .

٢. ورد الحديث عن النبي ﷺ بالنهي عن قول : نبيء الله بالهمز ، وهذا يدل على ضعف قراءة نافع (خطأ) .

٣. الاستسقاء طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته (صح) .

٤. والمشرب : إما اسم مكان أي محل الشرب أو مصدر ميمي بمعنى الشرب وحمله بعضهم على المشروب وهو الماء ، وحمله على المكان أولى عند أبي حيان (صح) .

٥. تعثوا : العثو عند بعض المحققين مجاوزة الحد في الفساد خاصة (خطأ) .

٦. مفسدين : أي : أشد الفساد والمعنى لا تتمادوا في الفساد حال إفسادكم (صح) .

٧. البقل : ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها (صح) .

٨. الفوم هو الثوم ويدل عليه قراءة ابن مسعود المتواترة وثومها (خطأ) .

٩. ورد عن ابن عباس أن الفوم هو الخبز (صح) .

١٠. أدنى من الدنو وهو القرب ، أي : القريب منكم الذي لا تنالونه بكلفة (خطأ) .

١١. قال بعضهم : أدنى من الدناءة واستدل بقراءة الكسائي (أدنأ) وهي قراءة شاذة (خطأ) .

١٢. المصر : البلد العظيم ، وأصله من الحاجز والحد بين الشيئين ، قيل له ذلك لأنه ممصور أي محصور (صح) .

١٣. وباءوا : أصلها من مساواة الشيء (صح) .

١٤. حصل هذا معهم ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها (صح) .

١٥. الذلة من الذل ، والمقصود به دفع الجزية (صح) .

١٦. قوله تعالى قد علم كل أناس مشربهم هي جملة مستأنفة مفهمة على أن كل سبط منهم قد صار له مشرب يعرفه فلا يتعدى لمشرب غيره ، وإنما وصفها به لأنه معجزة أخرى حيث يحدث مع حدوث الماء جداول يتميز بها مشرب كل من مشرب آخر (صح) .

١٧. جعل الله لكل سبط منهم مشرباً خاصاً لأنهم كانوا متنافرين متحاسدين متباغضين (صح) .

١٨. اختلفت الأقوال في تحديد الحجر وشكله ومن أين جاء به وهو مما لا فائدة فيه لنا (صح) .

١٩. قال بعضهم : اللام في الحجر للجنس ، والمقصود : أن يضرب أي حجر كان وليس حجراً محدداً (صح) .

٢٠. جاء الإخبار عن هذه القصة في سورة الأعراف بضمير الغائب لأنها سورة مكية وهنا بضمير المخاطب لأن السورة مدنية (صح) .

٢١. في الآية دليل على أن الفساد والعصيان والمخالفات سبب للقحط ونزع البركات (صح)

٢٢. وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى من باب تحقيرهم وتقليلهم لهذا الطعام الذي جاءهم من عند الله (خطأ) .

٢٣. قالوا ادع لنا ربك ، ولم يقولوا ربنا ، بسبب سوء أدبهم مع نبيهم ومع ربهم (صح) .

٢٤. قوله فإن لكم ما سألتم ، أي : هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه (صح) .

٢٥. لما كان سؤالهم من باب البطر والأشر أعطاهم الله ما طلبوا استدراجاً وانتقاماً (خطأ)

٢٦. ضربت عليهم الذلة ، أي : وضعت عليهم وأحاطت بهم فلا يزالون أذلاء مهانين (صح) .

٢٧. وقيد القتل بغير الحق مع أن قتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك للإيذان بأنهم كانوا يزعمون بأن هذا حق عندهم (خطأ) .

٢٨. العصيان فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به (صح) .

٢٩. ليس بين قتلهم الأنبياء وبين قوله تعالى (إنا لننصر رسلنا) تناقض لأنه لا يلزم من ذكر النصر هنا نصر الجميع بل قد يبتلي الله بعضهم بضد ذلك (خطأ) .

٣٠. اليهود عليهم لعائن الله المتتالية إلى يوم القيامة وإن ظهر لهم شيء من الصولة إلا أنهم أحقر الناس في نظر الأمم وقد قال تعالى : إلا بحبل من الله وحبل من الناس . ولولا ضعف المسلمين وتركهم للجهاد وبعدهم عن دينهم لما كانت لهؤلاء إخوان القردة والخنازير قائمة (صح) .

المحاضرة الثلاثون

***

تفسير الآيات: من (٦٢) إلى (٦٦) من سورة) البقرة.(

التلاوة، و القراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ.}

قراءات:

لا توجد أوْجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة :

فما زال الحديث مع بني إسرائيل، إلاّ أن قوله تعالى{ :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا }...إلخ، قد توسّط ذلك، وذلك لأنه لما انجرّ الكلام إلى ذكْر وعيد أهل الكتاب قُرِن به ما يتضمّن الوعد، جرياً على عادته سبحانه مِن ذكْر الترغيب والترهيب. وهذا وجه توسيط هذه الآية وما قبلها بين تعداد النِّعم .

لغويّات.

{ هَادُوا :}أي: تَهَوَّدُوا، يُقال: هاد وتَهَوَّد، إذا دخل في اليهودية، وهو: هائِد، والجمع: هُود ويَهود .

ويهود :إمّا عربي من: "هاد" إذا تاب، والتَّهود: التوبة، كقول موسى –عليه السلام{ :–إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}، أي: تُبْنَا .فكأنهم سُمُّوا بذلك في الأصل لِتوبتهم، لما تابوا من عبادة العجل.

ووجه التخصيص: كون توبتهم أشقّ الأعمال، كما مرّ. وقيل: مِن: "الهوادة" وهي: المودّة،

لمودّتهم في بعضهم لبعض. وقال أبو عمرو بن العلاء: "لأنهم يتهوّدون، أي : يتحرّكون عند قراءة التوراة ."

وإمّا معرب: "يَهُوذا" -بذال معجمة وألِف مقصورة-، كأنهم سُمُّوا بأكبر أولاد يعقوب -عليه السلام.-

{وَالنَّصَارَى :}جمع: نَصْران، كنَشَاوَى: جمع نَشْوان، وسكارى: جمع سَكْران .

وورد ذلك في كلام العرب -وإن أنكره البعض-، كقوله:

تراه إذا دار العَشِيُّ مُحَنِّفا	ويَضْحَى لَدَيْه وهو نَصْرَان شَامِسُ

ويُقال في المؤنث: نَصْرانة، كنَدْمَان ونَدْمانَة، قاله سيبويه وأنشد:

... كما سَجَدَت نَصْرَانة لم تَحَنَّفِ

وياء "نصرانيّ" للمبالغة، كما يُقال للأحمر: أَحْمَرِيّ، إشارة إلى أنه عريق في وصْفه، وقيل: إنها للفرق بين الواحد والجمْع، كزِنْجٍ وزنِجِيّ، وروم وروميّ.

وسُمّوا بذلك، لتناصرهم فيما بينهم. وقد يقال لهم :أنصار أيضاً، كما قال عيسى -عليه السلام{ :-مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ .}

وقيل: إنهم إنما سموا بذلك مِن أجْل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: الناصرة .

{وَالصَّابِئِينَ :}مِن" :صَبَأَ" إذا خرج مِن الدِّين، وهم: قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية، وعبدوا الملائكة، على قول .

وقيل: هم قوم مدار مذاهبهم على التعصب للروحانيّين، واتخاذهم وسائط. ولما لم يتيسّر لهم التقرب إليها بأعيانها والتلقي منها بذواتها، فزعت جماعة منهم إلى هياكلها؛ فصابئة الروم مَفزعها: السيارات، وصابئة الهند مفزعها: الثوابت. وجماعة نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أحد شيئاً. فالفرقة الأولى هم: عبدة الكواكب، والثانية هم: عبدة الأصنام. وكلّ من هاتيْن الفرقتيْن أصناف شتّى مختلفون في الاعتقادات والتعبدات .

والإمام أبو حنيفة يقول: إنهم ليسوا بعبَدة أوثان، وإنّما يعظِّمون النجوم كما تعظّم الكعبة.

وقيل: هم قوم موحِّدون يعتقدون تأثير النجوم، ويقرّون ببعض الأنبياء، كيحيى- عليه السلام-. وقيل: إنهم يقرّون بالله تعالى، ويقرؤون الزبور، ويعبدون الملائكة، ويصلّون إلى

الكعبة، وقيل: إلى مهب الجنوب. وقد أخذوا مِن كلّ دِين شيئاً. وفي جواز مناكحتهم وأكل ذبائحهم كلام للفقهاء، يُطلب في محلّه .

واخْتُلف في اللفظ، فقيل: غير عربي، وقيل: عربي مِن" :صَبَأ "بالهمز إذا خرج، أو مِن: "صبَا" مُعتلاًّ بمعنى: مال، لخروجهم عن الدِّين الحق وميْلهم إلى الباطل. وقرأ نافع وحده بالياء، وذلك إمّا على الأصل أو الإبدال للتخفيف.

و{السَّبْتِ :}اسم لليوم المعروف، وهو مأخوذ مِن" :السّبت" الذي هو: القطع، لأنه سُبِتَ فيه خلْق كل شيء وعمله، وقيل: مِن" :السُّبُوت" وهو: الراحة والدّعة. والمراد به هنا: اليوم . والكلام على حذف مضاف، أي: في حكم السبت، لأن الاعتداء والتجاوز لم يقع في اليوم بل وقع في حُكمه بناء على ما حُكي: أن موسى– عليه السلام– أراد أن يجعل يوماً خالصاً للطاعة، وهو يوم الجمعة، فخالفوه وقالوا: نجعله يوم السبت، لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً. فأوحى الله تعالى إليه أن دعْهم وما اختاروا. ثم امتحنهم فيه، فأمَرهم بترْك العمل، وحرّم عليهم فيه صيْد الحيتان. ويأتي في الآثار بيان القصة.

وقيل المراد بالسبت هنا: مصدر: سَبَتَتِ اليهود، إذا عَظّمت يوم السبت، وليس بمعنى اليوم؛ فحينئذ لا حاجة إلى تقدير مضاف، إذ يؤول المعنى إلى أنهم اعتدوا في التعظيم، وهتكوا الحرمة الواجبة عليهم. وقد ذكر بعضهم: أنّ تسمية العرب للأيام بهذه الأسماء المشهورة حدثت بعد عيسى –عليه السلام–، وأن أسماءها قبل غير ذلك، وهي التي في قوله:

أُؤَمِّلُ أنْ أعيش وأنَّ يومي	بأوَّلَ أو بأَهْوَن أو جُبارِ
أو التَّالي دُبارِ فإن أَفُتْه	فَمُؤْنِسِ أو عَروبة أو شَيارِ

وشيار: السبت، وأول الأحد .

{قِرَدَةً :}جمْع قرْد، وهو معروف، ويجمع فعل الاسم قياساً على" :فُعُول"، وقليلاً على: "فِعَلَة" يعني: قرود وقِرَدة .

{خَاسِئِينَ :}الخُسُوء: الصغار والذلة، ويكون متعدياً ولازماً .ومنه قولهم للكلب: اخْسَأ. وقيل الخُسُوء والخَسَاء: مصدر: خَسُأَ الكلب: بَعُدَ. وبعضهم ذكَر الطرد عند تفسير الخسوء، كالإبعاد، فقيل: هو لاستيفاء معناه لا لبيان المراد، وإلا لكان الخاسئ بمعنى الطارد.

والتحقيق: أنه معتبر في المفهوم، إلاّ أنه بالمعنى المبني للمفعول، وكذلك الإبعاد؛ فالخاسئ : الصاغر المبعَد المطرود.

{نَكَالاً :}عِبْرة تَنكل مَن اعتبر بها، أي: تمنعه. ومنه: النِّكْل :القيد، ونَكَّل به: فعَل به ما يعتبر به غيره فيمتنع عن مثله .

الآثار.

أخرج ابن أبي عمر العدني في "مسنده"، ومِن طريقه ابن أبي حاتم في "تفسيره" عن سلمان – رضي الله عنه–، قال: "سألت النبي –صلى الله عليه وسلم– عن أهل دِين كنت معهم، فذكرت مِن صلاتهم وعبادتهم، فنزلت{ :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ "}...إلى آخر الآية.

وأخرج الواحدي وغيره، عن مجاهد، قال: سأل سلمان الفارسي النبي –صلى الله عليه وسلم– عن أولئك النصارى، وما رأى أعمالهم، قال)) :لم يموتوا على الإسلام .((قال سلمان: فأظلمت عليّ الأرض، وذكرت اجتهادهم، فنزلت هذه الآية{ :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا}، فدعا سلمان فقال)) :نزلت هذه الآية في أصحابك، ثم قال: مَن مات على دين عيسى قبل أن يسمع بي، فهو على خير، ومَن سمع بي ولم يؤمن فقد هلك .((

وقال السدي{ :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً }...الآية: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بينا هو يحدّث النبي –صلى الله عليه وسلم– إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصلّون، ويصومون، ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً. فلما فرغ سلمان مِن ثنائه عليهم، قال له نبي الله –صلى الله عليه وسلم)) :–يا سلمان، هم مِن أهل النار .((فاشتدّ ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود: أنه مَن تمسّك بالتوراة وسنّة موسى –عليه السلام– حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان: مَن تمسّك بالتوراة وأخذ بسنّة موسى فلم يدعْها، ولم يتّبع عيسى، كان هالكاً .وإيمان النصارى: أنّ مَن تمسّك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد –صلى الله عليه وسلم–؛ فمن لم يتّبع محمداً –صلى الله عليه وسلم– منهم، ويَدَع ما كان عليه مِن سنّة عيسى والإنجيل، كان هالكاً .

وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا .

ورواه السدي بلفظ مطوّل جداً بقصّة إسلام سلمان والشاهد فيه، بلفظ: فاشتد ذلك على سلمان. وقد كان قال له سلمان :لو أدركوك صدّقوك واتّبعوك؛ فأنزل الله هذه الآية{ :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .}

وعن ابن عباس، في قوله{ :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا }...الآية، قال: فأنزل الله بعد هذا{ :وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.}

وعن علي، قال: "إنما سُمِّيت اليهود، لأنهم قالوا{ :إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ."}

وعن عبد الله بن مسعود، قال: "نحن أعلم الناس مِن أين تسمّت اليهود باليهودية، ولِمَ تسمّت النصارى بالنصرانية؛ إنما تسمّت اليهود باليهودية بكلمة قالها موسى{ :إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}، فلمّا مات قالوا: هذه الكلمة كانت تعجبه، فتسمّوا" :اليهود". وإنّما تسمّت النصارى بالنصرانية لكلمة قالها عيسى{ :مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}، فتسمّوا بالنصرانية ."

وعن ابن عباس، قال: "إنّما سُمِّيت النصارى، لأن قرية عيسى كانت تُسمّى: ناصرة ."

وعن ابن جريج نحوه.

وعن قتادة، قال: "إنّما سموا: "نصارى"، بقرية يقال لها" :ناصرة"، ينزلها عيسى بن مريم؛ فهو اسم تسمّوا به ولم يُؤمَروا به ."

وسئل ابن عباس عن الصابئين، فقال: "هم قوم بين اليهود والنصارى والمجوس، لا تحلّ ذبائحهم ولا مناكحهم."

وعن مجاهد، قال: "الصابئون: قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دِين ."

وروي عن عطاء نحو ذلك .

وعن مجاهد، قال: "الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى، هم قوم من المشركين لا كتاب لهم ."

وعن سعيد بن جبير، قال: "ذهبت الصابئون إلى اليهود، فقالوا: ما أمركم؟ قالوا: نبيّنا موسى جاءنا بكذا وكذا، ونهانا عن كذا وكذا. وهذه التوراة؛ فمن تابعنا دخل الجنة .ثم أتوا النصارى فقالوا في عيسى ما قالت اليهود في موسى، وقالوا: هذا الإنجيل؛ فمن تابعنا دخل الجنة.

فقالت الصابئون: هؤلاء يقولون: نحن ومَن اتّبعنا في الجنة، واليهود يقولون: نحن ومَن اتّبعنا في

الجنة، فنحن به لا ندين؛ فسماهم الله: الصابئين."

و عن سعيد بن جبير، قال: "الصابئون: منزله بين النصرانية والمجوسية ."

وفي لفظ: منزلة بين اليهود والنصارى .

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والسدي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك: "الصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور."

وقال مطرف: "كنا عند الحَكم بن عتبة، فحدّثه رجل من أهل البصرة، عن الحسن: أنه كان يقول، في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك؟ ."

وقال الحسن: "هم قوم يعبدون الملائكة ."

وعن الحسن، قال: "أُخبر زياد: أن الصابئين يصلّون إلى القبلة ويصلّون الخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فأخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة ."

وقال أبو جعفر الرازي: "بلغني أنّ الصابئين: قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلّون للقبلة ."

وعن قتادة، قال: "الصابئون: قوم يعبدون الملائكة، ويصلّون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور ."

وعن وهب بن منبه، قال: "الصابئ: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً ."

و عن أبي الزناد، قال: "الصابئون: قوم ممّا يلي العراق، وهم بكَوْثَى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون مِن كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلّون إلى اليمن كلّ يوم خمس صلوات ."

وقال عبد الرحمن بن زيد: "الصابئون: أهل دِين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، إلا: قول لا إله إلا الله. قال: ولم يؤمنوا برسول؛ فمن أجْل ذلك كان المشركون يقولون للنبي –صلى الله عليه و سلم– وأصحابه : "هؤلاء الصابئون"، يشبّهونهم بهم، يعني في قول: لا إله إلا الله."

وعن قتادة في قوله{ :وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}، فقال" :جبل نزلوا بأصله فرُفع فوقهم، فقال: لتأخذنّ أمري أو لأَرْمِيَنَّكم ."!

و عن ابن عباس قال: "الطور الذي أنزلت عليه التوراة، وكان بنو إسرائيل أسفل منه ."

وفي حديث الفتون: عن ابن عباس: "أنهم لما امتنعوا عن الطاعة، رفع عليهم الجبل ليسمعوا ."

وقال السدي: "فلمّا أبوْا أن يسجدوا، أمَر الله الجبل يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيَهم، فسقطوا سُجّدا؛ فسجدوا على شقّ، ونظروا بالشّقّ الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم .فقالوا: والله ما سجدة أحبّ إلى الله مِن سجدة كشف بها العذاب عنًّا، فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى{ :وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ."}

وعن ابن عباس، قال: "الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور ."

وعن مجاهد قال: "الطور: الجبل بالسريانية ."

و عن الضحاك قال: "النبْط يسمون الجبل: الطور ."

وقد نص على أنّ الطور جبل أيضاً: عطاء، وعكرمة، والحسن، والربيع بن أنس، وغير واحد؛ قال ابن كثير: وهذا ظاهر .

وعن ابن عباس، في قوله{ :خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}، قال" :بجِدّ."

وقال الحسن، في قوله{ :خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ" :}يعني :التوراة ."

وقال أبو العالية والربيع بن أنس{" :بِقُوَّةٍ}، أي: بطاعة ."

وقال مجاهد{" :بِقُوَّةٍ :}بعمل بما فيه ."

وقال قتادة{" : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}، القوة: الجِدّ، وإلاّ قذفْتُه عليكم! قال: فأقرّوا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوّة ."

ومعنى قوله: "وإلاّ قذفْتُه عليكم!" أي: أُسقِطه عليكم، يعني: الجبل .

وقال أبو العالية والربيع{ :وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ" :}يقول: اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به ."

و عن ابن عباس، في قوله{ :لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، قال" :لعلكم تنزعون عمّا أنتم عليه ."

وعن ابن عباس{ :وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ}، قال: "عرفتم؛ وهذا تحذير لهم من المعصية. يقول: احذروا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت، إذ عصوني اعتدوا. يقول: اجترؤوا في السبت بصيد السمك{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم. يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلاّ ثلاثة أيام. قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ."

و عن ابن عباس{ :فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ :}فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أنّ شباب القوم صاروا قردة، وأن المشيخة صاروا خنازير .

و عن قتادة، في الآية قال: "أُحلّت لهم الحيتان، وحُرِّمت عليهم يوم السبت، ليعلم مَن يطيعه ممّن يعصيه. فكان القوم فيهم ثلاثة أصناف: أمّا صنف: فأمسك ونهى عن المعصية، وأمّا صنف :فأمسك عن حرمة الله، وأمّا صنف: فانتهك المعصية ومرن على المعصية. فلما أبوْا إلا عُتُوّاً عما نهاهم الله عنه، قلنا لهم{ :كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، وصار القوم قروداً تَعاوَى لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساء."

وقال عطاء الخراساني: "نودوا: يا أهل القرية{ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، فجعل الذين نهوْهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم نَنْهكم؟. فيقولون برؤوسهم أي: بلى ."

وعن ابن عباس، قال: "إنما كان الذين اعتدوْا في السبت فجُعلوا قردة فَوَاقاً ثم هلكوا؛ ما كان للمسخ نسْل ."

و عن ابن عباس من وجه آخر، قال: "القردة والخنازير مِن نسل الذين مُسخوا ."

و عن الحسن، قال: "انقطع ذلك النسل."

وعن ابن عباس: "إنّ الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم يوم الجمعة، فخالفوا إلى السبت فعظّموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوْا إلاّ لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرّم عليهم ما أحلّ لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أَيْلَة والطور، يُقال لها: مَدْين. فحرم الله عليهم في السبت الحيتان :صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شُرّعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبْن، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتى إذا كان يوم السبت أتيْن سراً، حتى إذا ذهب السبت ذهبْن. فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد، وقَرِمُوا إلى الحيتان، عمد رجل منهم فاخذ حوتاً سراً يوم السبت، فَخَزَمَه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتداً في الساحل فأوثقه، ثم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه؛ أي: إني لم آخذه في يوم السبت .فانطلق به فأكله، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك. ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية :والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعَل، وصنعوا سراً زماناً طويلاً، لم يُعجِّل الله عليهم العقوبة، حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق. فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم! اتقوا الله! ونهوهم عما كانوا يصنعون. فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تَنْهَ القوم عما صنعوا{ :لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى

رَبِّكُمْ }بسخطنا أعمالهم،{ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .}قال ابن عباس" :فبينما هم على ذلك، أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم فقدوا الناس فلم يروهم. قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس شأناً !فانظروا ما هو؟ فذهبوا ينظرون في دُورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم، كما يُغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة. وإنهم ليعرفون الرجل بعيْنه وإنه لَقرْد، والمرأة بعيْنها وإنها لقرْدة، والصبي بعيْنه وإنه لقرْد. قال: قال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه نجَّى الذين نهوْا عن السوء، لقد: أهلك الله الجميع منهم. قال: وهي القرية التي قال –جل ثناؤه –لمحمد –صلى الله عليه وسلم{ :–وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ }...الآية ."

وقال السدي، في قوله تعالى{ :وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، قال:"هم أهل أَيْلَة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر. فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت –وقد حرّم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً– لم يبق في البحر حوت إلاّ خرج، حتى يُخرجن خراطيمهن من الماء. فإذا كان يوم الأحد، لزمْن مَقْلَ البحر فلم يُر منهن شيء، حتى يكون يوم السبت؛ فذلك قوله تعالى{ :وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ .}فاشتهى بعضُهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحُفَيْرة، ويجعل لها نهراً إلى البحر؛ فإذا كان يوم السبت فتح النهر، فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحُفَيْرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلّة ماء النهر، فيمكث فيها. فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره روائحه، فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره، حتى فشا فيهم أكْل السمك .فقال لهم علماؤهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحلّ لكم، فقالوا : إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال الفقهاء: لا، ولكنّكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخَل. قال: وغَلَبُوا أن ينتهوا. فقال بعض الذين نهوْهم لبعض : {لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً}، يقول: لم تعظوهم، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم{ :مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .}فلمّا أبوْا، قال المسلمون: والله لا نُساكِنكم في قرية واحدة. فقسموا القرية بجدار، فتح المسلمون باباً، والمعتدون في السبت باباً. ولعنهم داود– عليه السلام–. فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من

بابهم. فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم. فلما أبطؤوا عليهم، تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض. ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى{ :فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، وذلك حين يقول{ :لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }...الآية؛ فهم القردة ."

وعن مجاهد{ :فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، قال" :مُسِخت قلوبهم، ولم يُمسخوا قردة، وإنما هو مَثَل ضربه الله{ :كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ."}

وعن ابن عباس، في قوله{ :خَاسِئِينَ}، قال: "ذليلين."

وعن ابن عباس، في قوله{ :خَاسِئِينَ}، قال: "صاغرين ."

وعن مجاهد، مثله.

وعن أبي العالية، في قوله{ :كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، قال" :يعني: أذلّة صاغرين ."

ورُوي عن قتادة، والربيع، وأبي مالك، نحوه .

وعن ابن عباس{ :فَجَعَلْنَاهَا" :}يعني: الحيتان،{ نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا }مِن الذنوب التي عملوا قبل وبَعد ."

وعن ابن عباس{ :فَجَعَلْنَاهَا}، قال" :فجعلنا تلك العقوبة –وهي: المسخة{ :–نَكَالاً :} عقوبة{ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا}، يقول: ليحذر مَن بعدَهم عقوبتي،{ وَمَا خَلْفَهَا}، يقول: للذين بقُوا معهم،{ وَمَوْعِظَةً :}تذكرة وعبرة{ لِلْمُتَّقِينَ.}

وعن ابن عباس{ :لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا }مِن القُرى،{ وَمَا خَلْفَهَا }مِن القُرى ."

وقال سعيد بن جبير،{ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا}، قال: "مَن بحضرتها من الناس يومئذٍ ."

وروي عن إسماعيل بن أبي خالد، وقتادة، وعطية العوفي{ :فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا}، قال: "ما قبْلها من الماضين في شأن السبت ."

وقال أبو العالية، والربيع، وعطية{ :وَمَا خَلْفَهَا" :}لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مِثْل عملهم."

وعن أبي العالية{ :فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا }أي: "عقوبة لما خلا من ذنوبهم ."

ورُوى عن عكرمة، ومجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والفراء ابن عطية :
{"لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا }مِن ذنوب القوم،{ وَمَا خَلْفَهَا :}لِمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب ."
و عن ابن عباس{ :وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ" :}الذين من بعدهم إلى يوم القيامة ."
وقال الحسن وقتادة{ :وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ" :}بعدَهم، فيتّقون نقمة الله ويحذرونها ."
وقال السدي وعطية العوفي{ :وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}، قال: "أمة محمد –صلى الله عليه وسلم
و عن سفيان في قوله{ :نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا}، قال" :مِن الذنوب{ ."وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}، قال" :لأمّة محمد –عليه السلام."–

أقوال المفسّرين.

لما بيَّن تعالى حالَ مَن خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدّى في فعل ما لا إذن فيه وانتهاك المحارم، وما أحلّ بهم مِن النّكال، نبّه تعالى على أنّ مَن أحسن مِن الأمم السالفة وأطاع، فإنّ له جزاء الحسنى؛ وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كلّ مَن اتّبع الرسول النبي الأمّي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلّفونه، كما قال تعالى{ :أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}، وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله{ :إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .}
قال ابن كثير، تعليقاً على الآثار في أصحاب سلمان" :وهذا لا ينافي ما روى عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس{ :إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ }...الآية، قال: "فأنزل الله بعد ذلك{ :وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ . "}
فإنّ هذا الذي قاله ابن عباس: إخبار عن أنه لا يقبل مِن أحد طريقة ولا عملاً، إلاّ ما كان موافقاً لشريعة محمد– صلى الله عليه وسلم –بعد أن بعثه بما بعثه به، فأمّا قبل ذلك فكلّ مَن اتّبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة. فاليهود أتباع موسى –عليه السلام–، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم، فلما بُعث عيسى –عليه السلام– وجب على بني إسرائيل اتّباعه والانقياد له؛ فأصحابه وأهل دِينه هم: النصارى.

فلما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- خاتماً للنبيّين ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عمّا عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

وسُمِّيت أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-: مؤمنين، لكثرة إيمانهم، وشدّة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية ."

قال الآلوسي: "وفي المراد بـ{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا }هنا أقوال، والمرويّ عن سفيان الثوري: أنهم المؤمنون بألسنتهم، وهم المنافقون، بدليل انتظامهم في سلْك الكفرة. والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق، للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عُبر عنها بالإيمان، لا تُجديهم نفعاً ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً . وعن السدي: أنهم الحنيفيون ممّن لم يلحق الرسول -صلى الله تعالى عليه وسلم-، كزيد بن عمرو بن نفيل، وقسّ بن ساعدة، وورقة بن نوفل، ومَن لحِقه كأبي ذر، وبحيرا، ووفد النجاشي الذين كانوا ينتظرون البعثة. وعن ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما-: أنهم المؤمنون بعيسى قبل أن يُبعث الرسول -صلى الله تعالى عليه وسلم-. وروى السدي عن أشياخه :أنهم المؤمنون بموسى إلى أن جاء عيسى -عليهما السلام -فآمنوا به. وقيل: إنهم أصحاب سلمان... وقيل: إنهم المتديّنون بدين محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم- مخلصين أو منافقين، واختاره القاضي. وكان سبب الاختلاف: قوله تعالى فيما بعْد : {مَنْ آمَنَ }...إلخ، فإن ذلك يقتضي أن يكون المراد مِن أحدهما غير المراد مِن الآخر. وأقل الأقوال مؤونة أوّلها."

وأمّا{ وَالصَّابِئِينَ :}فقد اختلف فيهم؛ فذكر ابن كثير جملة من الآثار المتقدّمة، وذكر عن إسحاق بن راهويه قوله: "والصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ."

قال: "ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم ."

ثم قال: "وقال الخليل: هم قوم يشبه دينُهم دِين النصارى، إلاّ أنّ قِبلتهم نحو مهبّ الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح -عليه السلام ."-

وحكى القرطبي، عن مجاهد، والحسن، وابن أبي نجيح" :أنهم قوم تَرَكَّب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تُؤكل ذبائحهم، ولا تُنكح نساؤهم ."

قال القرطبي: "والذي تحصّل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء: أنهم موحِّدون، ويعتقدون

تأثير النجوم، وأنها فاعلة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم، للقادر بالله حين سأله عنهم."

واختار الرازي: أن الصابئين: قوم يعبدون الكواكب، بمعنى: أنّ الله جعلها قِبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى :أن الله فوّض تدبير أمْر هذا العالَم إليها ."

قال: "وهذا القول هو المنسوب إلى الكِشْدَانيِّين الذين جاءهم إبراهيم –عليه السلام– راداً عليهم مُبطلاً لقولهم ."

وأظهرُ الأقوال –والله أعلم–: قول مجاهد، ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دِين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرّر لهم يتّبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يَنْبُزُون مَن أسلم بـ"الصابئ"، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك ."

وقال بعض العلماء: الصابئون: الذين لم تبلغهم دعوة نبي– والله أعلم.–

ثم يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل، ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتّباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم، ليقرّوا بما عُوهِدوا عليه، ويأخذوه بقوة وجزم، وامتثال كما قال تعالى{ :وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.}

فالطور هو: الجبل، كما فسره به في) الأعراف.(

وقوله تعالى{ :ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ}، يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكّد العظيم تولّيتم عنه، وانثَنَيتم ونقضتموه،{ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ}، أي: بتوبته عليكم وإرساله النبيِّين والمرسلين إليكم، لكنتم من الخاسرين، بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

ثم يقول تعالى{ :وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ }يا معشر اليهود، ما أحلّ من البأس بأهل القرية التي عصتْ أمْر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم، فتحيّلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشُّصُوص والحَبَائِل والبِرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك؛ فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت .

فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة؛ فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم .

وهذه القصة مبسوطة في سورة (الأعراف) حيث يقول تعالى{ :وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، القصة بكمالها .

وقال السدي: "أهل هذه القرية هم: أهل أَيْلة". وكذا قال قتادة.

وموضع أقوال المفسِّرين في ذلك بالتفصيل عند آية (الأعراف).

وقوله تعالى{ :فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً}، قال بعضهم: الضمير في{ :فَجَعَلْنَاهَا }عائد على: القردة، وقيل: على: الحيتان .وقيل: على: العقوبة. وقيل: على{ :الْقَرْيَة .}حكاها ابن جرير .

والصحيح: أن الضمير عائد على{ :الْقَرْيَة}، أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد: أهلها، بسبب اعتدائهم في سبتهم،{ نَكَالاً}، أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها عبرة، كما قال الله عن فرعون{ :فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى}، وقوله تعالى{ :لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا}، أي: من القرى. قال ابن عباس: "يعني: جعلناها- بما أحللنا بها من العقوبة- عبْرة لما حولها من القرى .كما قال تعالى{ :وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ."}ومنه: قوله تعالى{ :أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا }...الآية على أحد الأقوال، فالمراد: لِما بين يديها وما خلفها في المكان.

وقال البعض: "المراد بـ}لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا }في الزمان ."

قال ابن كثير: "وهذا مستقيم بالنسبة إلى مَن يأتي بعدهم من الناس، أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم. وأمّا بالنسبة إلى مَن سلف قبلهم من الناس، فكيف يصح هذا الكلام أن تُفسّر الآية به، وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم؟! وهذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوّره، فتعين أنّ المراد: بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى، كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير –والله أعلم ."–

وحكى الرازي ثلاثة أقوال :

"أحدها: أن المراد بـ}لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا {مَن تقدّمها مِن القرى بما عندهم مِن العلْم بخبرها بالكتب المتقدِّمة ومَن بعدَها .

والثاني: المراد بذلك: مَن بحضرتها مِن القُرى والأمم .

والثالث: أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه مِن قبْل هذا الفعل وما بعده، وهو قول الحسن."

قال ابن كثير: "وأرجح الأقوال: المراد بما بين يديها وما خلفها: مَن بحضرتها مِن القرى ومَن يبلغهم خبرُها وما حل بها، كما قال تعالى{ :وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى }...الآية.

وقال تعالى{ :وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ }...الآية .

وقال تعالى{ :أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}، فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم، وموعظة لمن يأتي بعْدَهم بالخبر المتواتر عنهم؛ ولهذا قال{ :وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ."}

وقوله تعالى{ :وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}، قال ابن كثير" :المراد بالموعظة ها هنا: الزاجر. أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنَّكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيّلوا به من الحيل؛ فليحذر المتقون صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم."

المعنى الإجمالي.

يقرّر الله سبحانه: أنّ مَن آمن مِن جميع الطوائف إيماناً حقيقياً بالله واليوم الآخر، وعمل عملاً صالحاً يُصدِّق إيمانه، موافقاً لما جاء به النبي المرسل، سواء من الذين أظهروا الإيمان من هذه الأمة، أو من اليهود وهم أتباع موسى –عليه السلام–، أو من النصارى وهم أتباع عيسى –عليه السلام–، أو من الصابئين وهم غير اليهود والنصارى أياً كان اعتقادهم، فإن لهم أجْرهم عند ربهم كاملاً يوم القيامة، لا يخافون أن يزول عنهم ما هم فيه من نعيم الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

ثم يُذكّر الله تعالى بني إسرائيل بموقف آخر مِن مواقفهم، حيث لم يقرّوا بأخذ أحكام التوراة، ويتعهّدوا بالعمل بها بجد وإخلاص ليتقوا عذاب الله ونقمته، إلاّ بعد أن رفَع فوقهم جبل الطور فأصبح على رؤوسهم كالظلة؛ ولكنهم لم يُوفوا بذلك، فتولَّوا، فكانوا ممن خسروا أجرهم ولم يربحوا .

ثم أخبر تعالى: أنهم قد علموا ما حلّ مِن غضب الله بقوم منهم، وهم الذين تجاوزا حد الله وانتهكوا حرمة يوم السبت، حيث نهاهم الله عن الصيد في ذلك اليوم، فتحايلوا على أمر الله ونصبوا شباكهم يوم الجمعة وجمعوا الصيد يوم الأحد؛ فعاقبهم الله بأن مسخهم على صورة قبيحة لحيوانات مستقذرة؛ فجعلهم قردة جزاء لهم على فِعلتهم القبيحة، وجعل الله هذه القرية وما حلّ بها من عقوبة رادعاً لمن كانوا في هذا الزمان حول هذه القرية ولمن أتوْا بعدها ممّن سمع بخبرها؛ فكان في ذلك التذكير والزجر لمن اتقى الله وخاف عقابه.

من مسائل الآيات.

الأولى:

استُشكل في قوله تعالى{ :وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}...الآية، بأنّ هذا يجري مجرى الإلجاء إلى الإيمان، فينافي التكليف.

وأجيب: بأنه لا إلجاء، لأن الأكثر فيه خوف السقوط عليهم، فإذا استمر في مكانه مدة – وقد شاهدوا السماوات مرفوعة بلا عماد– جاز أن يزول عنهم الخوف، فيزول الإلجاء ويبقى التكليف.

وقيل: كأنه حصل لهم بعد هذا الإلجاء قبول اختياري، أو كان يكفي في الأمم السالفة مثل هذا الإيمان .

قال الآلوسي: "الحق أنه إكراه لأنه حمل الغير على أن يفعل ما لا يرضاه ولا يختاره لو خلي ونفسه؛ فيكون معدماً للرضى لا للاختيار، إذ الفعل يصدر باختياره كما فُصّل في الأصول... وهذا كالمحاربة مع الكفار. وأما قوله{ :لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، وقوله سبحانه : {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، فقد كان قبل الأمر بالقتال، ثم نُسخ به.

الثانية:

استُدل بقوله تعالى{ :وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ }...الآية، على تحريم الحِيل في الأمور التي لم تُشرع، كالربا. وإلى ذلك ذهب الإمام مالك، فلا تجوز عنده بحال. قال بعضهم: وجوّزها أكثرهم، ما لم يكن فيها إبطال حقّ أو إحقاق باطل. وأجابوا عن التمسك بالآية، بأنها ليست حيلة وإنما هي عين المنهيّ عنه، لأنهم إنما نُهوا عن أخذها. قال الآلوسي:

"ولا يخفى ما في هذا الجواب، وتحقيقه في كتب الفقه."

قلت: قد جاء عن أبي هريرة: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :لا ترتكبوا ما ارتكبتْ اليهود، فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحِيَل .((

قال ابن كثير: إسناده جيد .

وتحريم الحِيَل أدلّته متوافرة، ومن ذلك: حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– في دعائه على اليهود، لأن الله حرّم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها. وهو قول جمهور العلماء. وإنما تساهل في باب الحيَل الأحناف– والله أعلم.–

الثالثة:

ظاهرُ القرآن: أنهم مُسخوا قِرَدة على الحقيقة، وعلى ذلك جمهور المفسّرين؛ وهو الصحيح. وذكر غير واحد منهم: أنهم بعد أن مُسخوا، لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا، ولم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام. وزعم مقاتل: أنهم عاشوا سبعة أيام، وماتوا في اليوم الثامن. واختار أبو بكر بن العربي: أنهم عاشوا، وأن القرَدة الموجودين اليوم مِن نسْلهم؛ ويردّه ما رواه مسلم عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: أن رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم –قال لِمن سأله عن القردة والخنازير: أهي ممّا مُسخ؟)) :إنّ الله تعالى لم يُهلك قوماً أو يعذِّب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإنّ القردة والخنازير كانوا قبْل ذلك.((

قال ابن كثير: "وقد خلق الله القرَدة والخنازير وسائر الخلْق في الستة الأيام التي ذكَرها الله في كتابه. فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوّله كما يشاء."

وذكر أثر مجاهد، وقال: سنده جيّد، وهو قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره. قال الله تعالى{ :قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ }...الآية .

ثم ساق طائفة من الآثار في مسْخهم حقيقة، وقال: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة: بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد –رحمه الله– مِن أنّ مسْخهم، إنما كان معنوياً لا صورياً؛ بل الصحيح: أنه معنويّ صوريّ –والله تعالى أعلم .–

قلت: والقول بظاهر النصوص هو الذي لا يحلّ خلافه، ما لم يصحّ صارف معتبَر، وإلا لفُتح باب التأويل على مصراعيْه؛ وفي هذا ضياع للشريعة.

الأسئلة :

١. هادوا أي : تهودوا ، وهي كلمة عربية بمعنى تابوا بدليل قوله تعالى (إنا هدنا إليك) وأخطأ من ظن أنها كلمة أعجمية أصلها يهوذا أكبر أولاد يعقوب (خطأ) .

٢. النصارى جمع نصران سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم أو نسبة لبلدة الناصرة (صح) .

٣. الياء في نصراني عنده للمبالغة كما يقال للأحمر أحمري إشارة إلى أنه عريق في وصفه (صح) .

٤. الصابئين من صبأ أي خرج عن الدين (صح) .

٥. الإمام أبو حنيفة يقول في الصابئين : إنهم ليسوا بعبدة أوثان وإنما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة (صح) .

٦. قيل في الصابئين هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء كيحيي عليه السلام وقيل إنهم يقرون بالله تعالى ويقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة وقيل إلى مهب الجنوب وقد أخذوا من كل دين شيئا (صح) .

٧. قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا ..) الآية جاء بين آيات ذكر النعم على بني إسرائيل من باب إقامة الحجة عليهم وتذكيرهم بأهل الإيمان وما يجب عليهم أن يفعلوه تجاه الحق الذي جاءهم وتعريض بعدم إيمانهم (خطأ) .

٨. هذه الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي ﷺ (صح) .

٩. والسبت : اسم لليوم المعروف وهو مأخوذ من السبت الذي هو القطع والفصل (صح)

١٠. قوله (الذين اعتدوا في السبت) فيه حذف مضاف أي : حكم السبت لأن الاعتداء والتجاوز لم يقع في اليوم بل وقع في حكمه بناء على ما حكى أن موسى عليه السلام أراد أن يجعل يوما خالصا للطاعة وهو يوم الجمعة فخالفوه وقالوا نجعله يوم السبت (صح) .

١١. خاسئين : الخسوء الصغار والذلة والطرد والإبعاد ويكون متعديا ولازما (صح) .

١٢. النكال : العذاب والذلة والهوان كما قال تعالى في فرعون فأخذه الله نكال الآخرة والأولى (خطأ) .

١٣. الطور : جبل معروف وهو الذي في سيناء (صح) .

١٤. قال بعضهم : الطور أي جبل كان (صح) .

١٥. قوله (ورفعنا فوقكم الطور) أي : جبل عظيم لهم مرتفع كأنه سقف وكان من آيات الله (خطأ) .

١٦. قوله (ورفعنا فوقكم الطور) : لما امتنعوا عن طاعة الله رفع الله الطور فوقهم ليسمعوا ويطيعوا (صح) .

١٧. اليهود يسجدون على جانب الوجه لأنهم لما رفع فوقهم الطور سجدوا خوفاً ونظروا إليه من جانب وجوههم (صح) .

١٨. في قصة أصحاب السبت دليل على تحريم الحيل التي توصل إلى أكل الحرام وترك الواجب (صح) .

١٩. اختلف العلماء في المسخ الذي أصاب بني إسرائيل هل هو مسخ حقيقي للأجساد أم هو مسخ معنوي للقلوب ، والثاني هو الأصح (خطأ) .

٢٠. اختلف العلماء في الممسوخ هل يعيش ويولد له أم يموت ولا يولد له والصحيح أنه لا يكون لمسخ عقب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام (صح) .

٢١. ثبت الحديث أن الفأرة مسخ قوم من بني إسرائيل وأنها لذلك لا تشرب اللبن مثل اليهود ، وهذا دليل على أن المسخ قد يعيش ويولد له (خطأ) .

٢٢. الآيات فيها دليل على أن من آمن من جميع الطوائف إيماناً حقيقياً لا ينفعه ذلك حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم (خطأ) .

٢٣. قوله (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم) فيه إقامة حجة عليهم بأنهم يعلمون عقوبة من فعل ذلك ولكنهم لا يعتبرون (صح) .

٢٤. المقصود بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى ومن يبلغهم خبرها ممن لم يشاهدوها (صح) .

٢٥. قوله وموعظة للمتقين ، أي : تهديداً وتخويفاً وزاجراً (صح) .

٢٦. المقصود بالاعتداء في السبت ما فعلوه من التحيل على اصطياد السمك الذي منعوا منه يوم السبت (صح) .

٢٧. خذوا ما آتيناكم بقوة أي : بجد وعدم تلاعب واحتيال (صح) .

٢٨ . قوله (واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) أي : لعلكم تتركون ما أنتم عليه من المخالفة (صح) .

٢٩. في قصة أصحاب السبت دليل على أن العذاب إذا نزل لا ينجو منه إلا من كان ينهى عن المنكر وأن الذين يسكتون على المنكر وإن كانوا لا يفعلونه على خطر من عدم النجاة (صح) .

٣٠. الحيلة التي فعلها بنو إسرائيل يوم السبت أنهم كانوا يحفرون الحفر للسمك يوم السبت فإذا سقط فيها السمك تركوه فيها وأخذوه يوم الأحد وقالوا : نحن لم نصطد يوم السبت (صح) .

المحاضرة الحادية والثلاثون

***

تفسير الآيات من (٦٧) إلى (٧٣) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.}

القراءات:

ليس فيها أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

لا زال الحديث عن بني إسرائيل، وفي الآيات بيان نوع مِن مساويهم، مِن غير تعديد النِّعم؛ وصحّ العطف لأنّ ذكر النِّعم سابقاً كان مشتملاً على ذكر المساوي أيضاً، مِن المخالفة للأنبياء والتكذيب لهم وغير ذلك... وقد يُقال: هو على نمط ما تقدّم، لأن الذّبح نعمة دنيوية لرفعه التشاجر بين الفريقيْن، وأخروية لكونه معجزة لموسى -عليه السلام-.

لغويّات .

{بَقَرَةٌ :}واحدة البقَر، وهو: اسم جنس جَمْعي يفرّق بينه وبين واحده بالتاء، ومثله يجوز تذكيره وتأنيثه، مثل{نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}،{ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ .}وجمعه: أَبَاقِر، ويُقال فيه: بَيْقور،

وجمعه: باقر .وفي "البحر": إنما سُمِّى هذا الحيوان بذلكن لأنه يَبْقُر الأرض، أي: يَشُقُّها للحرث.

{ هُزُوًا :}الهزّء والهزُء: السّخرية، مِن: هَزَأَ يَهْزَأ، هُزْءاً ومَهْزَأَةً، وتَهَزَّأَ واسْتَهْزَأَ بِهِ: سَخِر.

{لاَ فَارِضٌ :}الفارض: اسم للمُسنَّة التي انقطعت ولادتها مِن الكِبر. والفعل: فَرَضَت – بفتح الراء وضمّها–، ويقال لكلّ ما قدم وطال أمْره: فارض، ومنه قوله:

يَا رُبَّ ذِي ضَغَنٍ على فَارِض	له قُرُوءُ كَقُرُوءِ الحَائِض

وقال خِفَافُ بن نُدْبَة :

لعَمْرِي لقد أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضاً	تُسَاق إليه ما تَقُومُ على رِجْلِ

وكأنها سُمِّيتْ" :فارضاً" لأنها فرضت سِنَّها،أي: قطعتها وبلغت آخرها.

والبِكْر :اسم للصغيرة، وزاد بعضهم: التي لم تلد مِن الصِّغر .وقال ابْنُ قُتَيْبَة: هي التي ولدت ولداً واحداً. والبِكْر من النساء: التي لم يمسّها الرجال، وقيل: هي التي لم تحمل .والبكر مِن الأولاد: الأوّل، ومن الحاجات: الأولى. والبَكْر– بفتح الباء–: الفتى مِن الإبل، والأنثى: بَكْرة، وأصله مِن التقدم في الزمان ومنه البُكْرَة والبَاكُورَة.

{عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ :}أي: النَّصَف متوسطة السّنّ، وقيل: هي التي ولدت بطناً أو بطنيْن، وقيل: مرة بعد مرة، ويُجمع على فُعْلٍ كقوله:

طُوَالٌ مِثْلُ أَعْنَاق الهَوَادِي	نَوَاعِمُ بين أَبْكارٍ وعُون

ويجوز ضَمُّ عين الكلمة في الشّعر، وفائدة هذا بعد{ :لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ :}نفْي أن تكون عجلاً أو جنيناً.

فإن قلتَ{ :بَيْنَ }يقتضي شيئيْن فصاعداً، فمن أين جاز دخوله على{ :ذَلِكَ}؟

قلتُ: لأنه في معنى شيئيْن، حيث وقع مُشاراً به إلى ما ذكر مِن الفارض والبِكر .

فإن قلتَ: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنّثيْن، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكّر؟ قلتُ: جاز ذلك على تأويل ما ذُكر وما تقدم، للاختصار في الكلام .

وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا، قال أبو عبيدة: "قلت لرُؤْبَة في قوله:

فيها خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ	كَأَنَّهُ فِي الجِلْدِ تَوْلِيعِ البَهَق

إن أردت الخطوط، فقل:"كأنها"، وإن أردت السواد والبَلَق فقل" :كأنهما". فقال: أردت: "كأنّ ذاك"، ويلك"!

الفُقُوع في قوله{ :فَاقِعٌ لَوْنُهَا :}أشدّ ما يكون من الصُّفْرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع وَوَارِس،كما يقال: أبيض ناصع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، وأخضر ناضر.

والسرور :لذّة في القلب عند حصول نفْع أو توقّعه، أو رؤية أمر معجب رائق.

وبيْن السرور والحُبُور والفرح تقارب، لكن السرور هو الخالص المنْكَتِم، سُمِّي بذلك اعتباراً بالإسرار، والحُبُور ما يرى حِبْره، أي: أثره في ظاهر البشرة. وهما يُستعملان في المحمود. وأما الفرح: فما يحصل بطراً وأشراً، ولذلك كثيراً ما يُذمّ، كما قال تعالى{ :إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ .}

والذَّلُول :الرَّيِّض الذي زالت صعوبته، يقال: دابّة ذَلُول، بَيِّنَة الذِّلِ –بالكسر–، ورجل ذَلُول: بَيِّن الذُّل –بالضم .–

{لاَ ذَلُولٌ :}غير ذلول، يعني: لمْ تُذَلَّل للحِرَاث وإثارة الأرض، ولا هي مِن النواضح التي يُسْنَى عليها لسقْي الحروث. و{لاَ }الأولى للنّفْي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقي، على أنّ الفعليْن صفتان لـ{ذَلُول .}كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية.

والإثارة :قلْب الأرض للزراعة، مِن: أَثَرْتُه إِذَا هَيَّجْتُه .

و{الْحَرْثَ :}الأرض المهيّأة للزرع، أو هو: شقّ الأرض ليُبْذَرَ فيها. ويُطْلَق على ما حُرث وزُرع، وعلى نفْس الزرع أيضاً.

{ مُسَلَّمَةٌ :}سَلَّمها الله مِن العيوب، أو مُعْفَاة من العمل سَلَّمَهَا أهلها منه، أو مُخْلَصة اللون، مِن: سلم له كذا، إذا خَلُص له، لم يشب صفرتَها شيء من الألوان.

{لا شِيَةَ فِيهَا :}الشِّيَة: مَصْدُر: وَشِيتُ الثَّوب، أَشِيَه وَشْياً، إذا زيّنته بخطوط مختلفة الألوان. فحذف فاؤه كـ"عِدَة" وَ"زِنَة". ومنه :الواشي للنَّمّام. قيل: ولا يقال له: "واش" حتى يغيّر كلامه ويزيّنه. ويقال: ثور أَشْيَه، وفَرَسٌ أَبْلَق، وكَبْش أَخْرَج، وتَيْسٌ أَبْرَق، وغراب أَبَقْعْ؛ كلّ ذلك بمعنى البَلَقَة. ومنه: ثَورٌ مُوشَى القوائم .

والمراد: لا لُمْعَة فيها من لون آخر سوى الصَّفْرَة، فهي صفراء كلّها حتى قرنها وظِلْفها.

{فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا :}أصله: تَدَارَأْتُم، مِن: الدَّرْءِ وهو: الدَّفْع؛ فاجتمعت التاء والدال مع تقارب مخرجيْهما، وأريد الإدغام، فقُلبت التاء دالاً وسُكنت للإدغام، فاجتُلِبَت همزة الوصل للتوصّل إلى الابتداء بها. والمراد: فاختلفتم واختصمتم في شأنها، لأن المتخاصمين يَدْرَأ بعضهم بعضاً، أي: يَدْفَعُه ويُزحمه.

الآثار.

عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قال: "كانت مدينتان في بني إسرائيل، وإحداها حصينة ولها أبواب، والأخرى خرِبة. فكان أهل المدينة الحصينة إذا أمسوْا أغلقوا أبوابها، فإذا أصبحوا قاموا على سُور المدينة فنظروا هل حدث فيما حولها حادث .فأصبحوا يوماً فإذا شيخ قتيل مطروح بأصل مدينتهم. فأقبل أهل المدينة الخربة، فقالوا: قتلتم صاحبنا. وابن أخ له شاب يبكي عليه، ويقول: قتلتم عمي! قالوا: والله ما فتحنا مدينتنا منذ أغلقناها، وما لدينا مِن دم صاحبكم هذا .فأتوا موسى، فأوحى الله إلى موسى{ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً }إلى قوله{ :فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .}

قال :وكان في بني إسرائيل غلام شاب يبيع في حانوت له، وكان له أب شيخ كبير، فأقبل رجل من بلد آخر يطلب سلعة له عنده فأعطاه بها ثمناً، فانطلق معه ليفتح حانوته فيعطيه الذي طلب، والمفتاح مع أبيه. فإذا أبوه نائم في ظل الحانوت، فقال: أيقظْه! قال ابنه: إنه نائم، وأنا أكره أن أُرَوِّعه مِن نومته. فانصرفا. فأعطاه ضِعف ما أعطاه، على أن يوقظه، فأبى. فذهب طالب السلعة، فاستيقظ الشيخ فقال له ابنه: يا أبت، والله لقد جاء ها هنا رجل يطلب سلعة كذا، فأعطى بها من الثمن كذا وكذا، فكرهت أن أُرَوِّعك من نومك . فلامه الشيخ. فعوّضه الله مِن برِّه بوالده أن نتجت مِن بقَره تلك البقرة التي يطلبها بنو إسرائيل. فأتوه فقالوا له :بعناها. فقال: لا. قالوا: إذاً نأخذ منك. فأتوْا موسى، فقال :اذهبوا فأرْضوه مِن سلعته. قالوا: حكمك. قال: حكمي أن تضعوا البقرة في كفّة الميزان، وذهباً صامتاً في الكفّة الأخرى، فإذا مال الذهب أخذْته. ففعلوا، وأقبلوا بالبقرة حتى انتهوا بها إلى قبر الشيخ. واجتمع أهل المدينتيْن، فذبحوها؛ فضُرب ببضعة مِن لحمها القبْر، فقام الشيخ ينفض رأسه، يقول: "قتلني ابن أخي، طال عليه عمري وأراد أخذ مالي"، ومات.

وعن ابن عباس في قوله: -في شأن البقرة-: وذلك أنّ شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى -عليه السلام- كان مكثراً من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم .وكان الشيخ لا ولد له، وكان بنو أخيه ورثته، فقالوا: ليت عمّنا قد مات فورثْنا ماله. وإنه لما تطاول عليهم ألاّ يموت عمّهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلى أن تقتلوا عمّكم، فترثوا مالَه، وتغرموا أهل المدينة التي لستم بها دِيتَه؟ وذلك أنهما كانتا مدينتيْن، كانوا في إحداهما، وكان القتيل إذا قتل وطُرح بين المدينتيْن قِيس ما بيْن القتيل والقريتيْن، فأيّتهما كانت أقرب إليه غُرِّمت الدّية، وأنهم لما سوّل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم أن لا يموت عمّهم عمدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها .فذكر نحوه مختصراً.

عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يُولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله، ثم احتمله ليلاً فوضَعه على باب رجل منهم. ثم أصبح يَدَّعيه عليهم، حتى تسلّحوا وركب بعضهم إلى بعض. فقال ذوو الرأي منهم والنُهى: علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟! فأتوْا موسى- عليه السلام- فذكروا ذلك له. فقال : {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدّدوا فشُدِّد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها .فقال: والله لا أنقصها مِن ملء جلْدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً. فذبحوها، فضربوه ببعضها، فقام .فقالوا: مَن قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتاً. فلم يُعط مِن مالِه شيئاً، فلم يُورَّث قاتل بعْد .

و عن عبيدة قال: "أوّل ما قُضي أنه لا يرث القاتل، في صاحب بني إسرائيل."

و عن ابن سيرين، قال: "أوّل ما مُنع القاتل الميراث لكان صاحب البقرة."

وعن أبي العالية، في قول الله تعالى{ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، قال: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق. وأتى موسى،- عليه السلام-، فقال له: إنّ قريبي قُتل، وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحداً يُبيّن لي مَن قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادى موسى في الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علْم إلاّ يُبيّنه لنا! فلم يكن عندهم علْم، فأقبل القاتل على موسى -عليه السلام-، فقال له :أنت نبيّ الله فسل لنا ربّك أن يبيّن لنا! فسأل ربه، فأوحى

الله{ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، فعجبوا مِن ذلك، فقالوا{ : أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ}، يعني: لا هَرِمَة،{ وَلا بِكْرٌ }يعني: ولا صغيرة،{ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}، أي: نصف بيْن البكر والهرمة{ .قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا}، أي :صافٍ لونها،{ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}، أي: تُعجب الناظرين{ .قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ}، أي: لم يُذلِّلها العمل،{ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ}، يعني: وليست بذلول{ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ}، يعني: ولا تعمل في الحرث{ .مُسَلَّمَةٌ}، يعني :مُسلَّمة من العيوب،{ لاَ شِيَةَ فِيهَا}، يقول: لا بَياض فيها{ .قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .}قال: ولو أنّ القوم حين أُمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر، فذبحوها لكانت إياها، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. ولولا أنّ القوم استثنوا فقالوا{ :وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}، لما هُدوا إليها أبداً .فبلَغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نُعتت لهم إلاّ عند عجوز، وعندها يتامى وهي القيّمة عليهم. فلمّا علمت أنه لا يزْكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن. فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلاّ عند فلانة، وأنها سألت أضعاف ثمنها، فقال موسى: إنّ الله قد خفّف عليكم فشدّدتم على أنفسكم، فأعطوها رضاها وحكمها؛ ففعلوا واشتروها. فذبحوها، فأمرهم موسى –عليه السلام– أن يأخذوا عظماً منها فيضربوا به القتيل. ففعلوا، فرجع إليه روحه، فَسَمَّى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان . فأُخِذ قاتله، وهو الذي كان أتى موسى –عليه السلام– فشكا إليه، فقتلَه الله على أسوإ عمله .

وقال السدي{ :وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، قال: كان رجل من بني إسرائيل مُكثراً من المال، فكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج. فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوّجه، فغضب الفتى، وقال :والله لأقتلنّ عمي، ولآخذنّ ماله، ولأنكحنّ ابنته، ولآكلنّ ديته. فأتاه الفتى وقد قدم تجّار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عمّ، انطلق معي فخذْ لي من تجارة هؤلاء القوم، لعلي أن أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوْني. فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتلَه الفتى، ثم رجع إلى

أهله. فلما أصبح، جاء كأنه يطلب عمّه كأنه لا يدري أين هو، فلم يجدْه. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمي، فأدّوا إليّ ديتَه! فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه، وينادي: واعمّاهّ. فرفعهم إلى موسى، فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع لنا ربك حتى يبيّن لنا مَن صاحبه، فيؤخذ صاحب القضية. فو الله إنّ ديته علينا لهيّنة، ولكن نستحي أن نُعَيَّر به. فذلك حين يقول تعالى{ :وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .}فقال لهم موسى{ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، قالوا :نسألك عن القتيل وعمّن قتَلَه وتقول: اذبحوا بقرة .أتهزأ بنا؟{ !قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .}قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شدّدوا وتعنّتوا على موسى، فشدّد الله عليهم. فقالوا{ : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}، والفارض: الهرمة التي لا تُولّد. والبكر: التي لم تلد إلاّ ولداً واحداً. والعوان: النصف التي بين ذلك، التي قد ولدت وولد ولدها . {فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا}، قال :نقيّ لونها{ .تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}، قال: تعجب الناظرين{ .قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا}، من بياض ولا سواد ولا حمرة{ .قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}، فطلبوها فلم يقدروا عليها .

وكان رجل في بني إسرائيل، مِن أبرّ الناس بأبيه، وإنّ رجلاً مرّ به معه لؤلؤ يبيعه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت، حتى يستيقظ أبي فآخذه منك بثمانين ألفاً. قال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفاً. فجعل التاجر يحطّ له حتى بلغ ثلاثين ألفاً. وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ، حتى بلغ مائة ألْف. فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يوقظ أباه. فعوّضه الله مِن ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرّت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة، فأبى. فأعطوه ثنتيْن فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشراً، فقالوا : والله لا نتركك حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى – عليه السلام– فقالوا: يا نبي الله، إنا وجدناها عند هذا، وأبى أن يعطيَناها وقد أعطيناه ثمناً.

فقال له موسى :أعْطهم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالي .فقال: صدقت. وقال للقوم: أرْضوا صاحبكم. فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها. فذبحوها، قال :اضربوه ببعضها. فضربوه بالبَضعة التي بين الكتفيْن، فعاش، فسألوه: مَن قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي. قال :أقتله فآخذ مالَه، وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه .

وعن عكرمة، قال: كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً، لكل سبط منهم باب يدخلون منه ويخرجون، فوُجد قتيل على باب سبط من الأسباط، قُتل على باب سبط وجُرّ إلى باب سبط آخر. فاختصم فيه أهل السبطيْن، فقال هؤلاء: أنتم قتلتم هذا. وقال الآخرون: بل أنتم قتلتموه ثم جررتموه إلينا .فاختصموا إلى موسى، فقال{ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً }...الآية{ .قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ .}قال: فذهبوا يطلبونها، فكأنها تعذرت عليهم، فرجعوا إلى موسى، فقالوا{ :قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}، ولولا أنهم قالوا{ :إِنْ شَاءَ اللَّهُ }ما وجدوها{ .قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ}، ألاَ وإنما كانت البقرة يومئذ بثلاثة دنانير، ولو أنهم أخذوا أدنى بقرهم فذبحوها كفتْهم، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم. فذهبوا يطلبونها فيجدون هذه الصفة عند رجل، فقالوا: تبيعنا هذه البقرة؟ قال: أبيعها. قالوا: بِكم تبيعها؟ قال: بمائة دينار. فقالوا: إنها بقرة بثلاثة دنانير. فأبوا أن يأخذوها. فرجعوا إلى موسى، فقالوا: وجدناها عند رجل، فقال: لا أنقصكم من مائة دينار. وإنها بقرة بثلاثة دنانير. قال: هو أعلم، هو صاحبها، إن شاء باع وإن لم يشأ لم يبع. فرجعوا إلى الرجل فقالوا: قد أخذناها بمائة دينار. فقال: لا أنقصها عن مائتيْ دينار. فقالوا: سبحان الله قد بعتنا بمائة دينار ورضيت، فقد أخذناها. قال: ليس أنقصها من مائتي دينار. فتركوها ورجعوا إلى موسى، فقالوا له: قد أعطاناها بمائة دينار، فلما رجعنا إليه، قال: لا أنقصها من مائتَي دينار. قال: هو أعلم، إن شاء باعها وإن شاء لم يبعها. فعادوا إليه فقالوا: قد أخذناها بمائتيْ دينار. فقال: لا أنقصها من أربعمائة دينار. قالوا: قد كنت أعطيتناها بمائتي دينار، فقد أخذناها. فقال: ليس أنقصها من أربعمائة دينار. فتركوها، وعادوا إلى موسى، فقالوا: قد أعطيناه مائتي دينار فأبى أن يأخذها، وقال: لا أنقصها من أربعمائة دينار. فقال: هو أعلم،

هو صاحبها، إن شاء باع وإن شاء لم يبع. فرجعوا إليه، فقالوا: قد أخذناها بأربعمائة دينار. فقال: لا أنقصها من ثمانمائة دينار. فلم يزالوا يعودون إلى موسى ويعودون عليه، فكلّما عادوا إليه أضعف عليهم الثمن، حتى قال: ليس أبيعها إلاّ بملء مسكها. فأخذوها فذبحوها، فقال: اضربوه ببعضها. فضربوه بفخذها، فعاش فقال :قتلني فلان؛ فإذا هو رجل كان له عمّ، وكان لعمه مال كثير، وكان له ابنة، فقال: أقتل عمّي هذا، وأرث مالَه، وأتزوج ابنته. فقتل عمّه، فلم يرث شيئاً، ولم يُورَّث قاتل منذ ذلك شيئاً. قال موسى: إنّ لهذه البقرة لشأناً، ادعوا إليّ صاحبَها .فدعوْه، فقال: أخبرني عن هذه البقرة، وعن شأنها. قال: نعم .كنت رجلاً أبيع في السوق وأشتري، فسامني رجل بضاعة عندي فبعتُه إياها، وكنت قد أشرفت منها على فضل كبير، فذهبت لآتيه بما قد بعتُه، فوجدت المفتاح تحت رأس والدتي، فكرهت أن أوقظها من نومها، ورجعت إلى الرجل فقلت: ليس بيني وبينك بيع. فذهب، ثم رجعت. فنُتجت لي هذه البقرة، فألقى الله عليها منّي محبة، فلم يكن عندي شيء أحب إليّ منها .فقيل له: إنما أصبت هذا ببِرِّ والدتك.

وعن مجاهد، ومحمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس –دخل حديث بعضهم في حديث بعض–، قالوا: إنّ سبطاً من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوْا مدينة فاعتزلوا شرور الناس. فكانوا إذا أمسوْا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلاّ أدخلوه، وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة؛ فكانوا مع الناس حتى يُمسوا. قال: وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وراث غير أخيه، فطال عليه حياته فقتَله ليرثه. ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمَن في مكان هو وأصحابه. قال: فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر، فلم ير شيئاً ففتح الباب. فلما رأى القتيل ردّ الباب، فناداه أخو المقتول وأصحابه: هيهات !أقتلتموه ثم تردّون الباب. وكان موسى لما رأى القتل كثيراً في بني إسرائيل، كان إذا رأى القتيل بين ظهراني القوم أخَذهم. فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض. فأتوا موسى فذكروا له شأنهم. قالوا: يا موسى، إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردّوا الباب. قال أهل المدينة: يا رسول الله، قد عرفت اعتزالنا الشرور، وبنيْنا مدينة كما رأيت، نعتزل شرور الناس. والله ما

قتلنا، ولا علمْنا قاتلاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى{ :إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً .}

وعن وهب بن منبه، قال: إن فتى من بني إسرائيل كان بَراً بوالدته، وكان يقوم ثلث الليل يصلي، ويجلس عند رأس والدته ثلث الليل، فيذكِّرها بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد، ويقول: يا أمّه، إن كنت ضعفت عن قيام الليل، فكبِّري الله وسبِّحيه وهلِّليه. فكان ذلك عملهما الدهر كله .فإذا أصبح، أتى الجبل فاحتطب على ظهره، فيأتي به السوق فيبيعه بما شاء الله أن يبيعه. فيتصدّق بثلثه، ويُبقي لحاجته ثلثاً، ويُعطي الثلث أمّه. وكانت أمّه تأكل النصف وتتصدق بالنصف. وكان ذلك عملهما الدهر كله. فلما طال عليها، قالت: يا بُني، أعلم أني قد ورثت من أبيك بقرة، وختمت عنُقها، وتركتها في البقر على اسم إله إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب. قالت: وسأبيّن لك ما لونها وهيئتها، فإذا أتيت البقر فادْعُها باسم إله إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب. فإنها تفعل. وقالت: إن علامتها ليست بهرمة ولا فتية، غير أنها بينهما. وهي صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين؛ إذا نظرت إلى جلدها يُخيَّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها. وليست بالذلول، ولا صعبة تثير الأرض ولا تسقي الحرث، مسلّمة لا شية فيها، ولونها واحد .فإذا رأيتها فخذْ بعنقها، فإنها تتبعك بإذن إله إسرائيل .فانطلق الفتى، وحفظ وصية والدته، وسار في البرية يوميْن أو ثلاثاً، حتى إذا كان صبيحة ذلك اليوم، انصرف فصاح بها، فقال: بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، إلاّ ما أتيتني! فأقبلت البقرة عليه، وتركت الرعي، فقامت بين يدي الفتى. فأخذ بعنقها، فتكلّمت البقرة وقالت: يا أيها الفتى البَر بوالدته، اركبني! فإنه أهون عليك. قال الفتى: لم تأمرني والدتي أن أركب عليك، ولكنها أمرتْني أن أسوقك سوقاً، فأحب أن أبلغ قولها.

فقالت: بإله إسرائيل لو ركبتني ما كنت لتقدر عليّ. فانطلقْ يا أيها الفتى البّر بوالدته !لو أنك أمرت هذا الجبل أن ينقلع لك من أصله، لانقلع لِبِرّك بوالدتك ولطاعتك إلهك. فانطلق حتى إذا كان من مسيرة يوم مِن منزله، استقبله عدو الله إبليس، فتمثّل له على صورة راعٍ من رعاة البقر، فقال: يا أيها الفتى، من أين جئت بهذه البقرة؟ ألا تركبها؟ فإني أراك قد أَعييت، أظنك لا تملك من الدنيا مالاً غير هذه البقرة. فإني أعطيك الأجر ينفعك ولا يضرّها. فإني رجل من رعاة البقر اشتقت إلى أهلي، فأخذت ثوراً من ثيراني فحملت عليه طعامي وزادي،

حتى إذا بلغت شطر الطريق أخذني وجع بطني، فذهبت لأقضي حاجتي، فعدا وسط الجبل وتركني. وأنا أطلبه ولست أقدر عليه. فأنا أخشى على نفسي الهلاك، وليس معي زاد ولا ماء .فإن رأيتَ أن تحملني على بقرتك، فتبلغني مراعي، وتنجيني من الموت، وأعطيك أجرها بقرتيْن .

قال الفتى: إن بني آدم ليس بالذي يقتلهم اليقين، وتهلكهم أنفسهم، فلو علِم الله منك اليقين لبَلَّغك بغير زاد ولا ماء. ولست براكب أمراً لم أومر به؛ إنما أنا عبد مأمور .ولو علم سيدي أني عصيته في هذه البقرة لأهلكني وعاقبني عقوبة شديدة. وما أنا بمؤثر هواك على هوى سيدي. فانطلقْ يا أيها الرجل بسلام! فقال له إبليس: أعطيك بكل خطوة تخطوها إلى منزلي درهماً، فذلك مال عظيم، وتفدي نفسي من الموت في هذه البقرة. قال الفتى: إنّ سيدي له ذهبُ الأرض وفضّتها، فإن أعطيتني شيئاً منها علم أنه مِن ماله، ولكن أعطني من ذهب السماء وفضّتها، فأقول: إنه ليس هذا مِن مالك .فقال إبليس: وهل في السماء ذهب وفضة؟ أو هي يقدر أحد على هذا؟ قال الفتى: أو هل يستطيع العبد بما لم يأمر به سيده، كما لا تستطيع أنت ذهب السماء وفضتها. قال له إبليس :أراك أعجز العبيد في أمرك. قال له الفتى: إنّ العاجز من عصى ربه. قال له إبليس: ما لي لا أرى معك زاداً ولا ماء؟ قال الفتى: زادي التقوى، وطعامي الحشيش، وشرابي من عيون الجبال. قال إبليس: ألا آمرك بأمر يرشدك؟ قال: مُر به نفسك، فإني على رشاد، إن شاء الله. قال له إبليس: ما أراك تقبل نصيحة. قال له الفتى: الناصح لنفسه مَن أطاع سيّده، وأدّى الحق الذي عليه. فإن كنت شيطاناً فأعوذ بالله منك، وإن كنت آدمياً فاخرجْ فلا حاجة لي في صحبتك. فجمد إبليس عند ذلك ثلاث ساعات مكانه، ولو ركبها له إبليس ما كان الفتى يقدر عليها، ولكن الله حبسه عنها. فبينما الفتى يمشي إذ طار طائر من بين يديه، فاختلس البقرة. ودعاها الفتى، وقال :بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، إلاّ ما أتيتِني .فأتت البقرة إليه، وقامت بين يديه، فقالت: يا أيها الفتى ألم تر إلى ذلك الطائر الذي طار من بين يديك، فإنه إبليس عدو الله اختلسني، فلما ناديتني بإله إسرائيل، جاء ملك مِن الملائكة فانتزعني منه، فردّني إليك ببِرِّك بوالدتك وطاعتك إلهك؛ فانطلقْ! فلست ببارحتك حتى تأتي أهلك إن شاء الله. قال: فدخل الفتى إلى أمّه يخبرها الخبر، فقالت: يا بنيّ، إني أراك تحتطب على ظهرك الليل والنهار

فتشخص، فاذهب بهذه البقرة فبعْها وخُذْ ثمنها فتقوَّ به، وودِّعْ به نفسك. قال الفتى: بكَم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير على رضًى مني. فانطلق الفتى إلى السوق، فبعث الله إليه ملَكاً من الملائكة ليُري خلْقه قدرته، فقال للفتى: بكم تبيع هذه البقرة، أيها الفتى؟ فقال: أبيعها بثلاثة دنانير على رضى من والدتي. قال: لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك. فقال :لو أعطيتني زنتها لم أبعها، حتى أستأمرها. فخرج الفتى فأخبر والدته الخبر، فقالت: بعْها بستة دنانير على رضى مني. فانطلق الفتى، وأتاه الملَك، فقال: ما فعلت؟ فقال :أبيعها بستّة دنانير على رضى من والدتي. قال: فخذ اثني عشر ديناراً ولا تستأمرها. قال: لا. فانطلق الفتى إلى أمّه، فقالت: يا بني إن الذي يأتيك ملَك من الملائكة في صورة آدمي، فإذا أتاك، فقل له: إنّ والدتي تقرأ عليك السلام، وتقول: بكم تأمرني أن أبيع هذه البقرة؟ قال له الملَك: يا أيها الفتى، يشتري بقرتك هذه موسى بن عمران، لقتيل يُقتل من بني إسرائيل، وله مال كثير ولم يترك أبوه ولداً غيره، وله أخ له بنون كثيرون، فيقولون: كيف لنا أن نقتل هذا الغلام، ونأخذ ماله. فدعوا الغلام إلى منزلهم، فقتلوه، فطرحوه إلى جانب دارهم. فأصبح أهل الدار فأخرجوا الغلام إلى باب الدار، وجاء بنو عم الغلام، فأخذوا أهل الدار، فانطلقوا بهم إلى موسى. فلم يدر موسى كيف يحكم بينهم، من أجل أنّ أهل الدار برآء من الغلام. فشق ذلك على موسى، فدعا ربه، فأوحى الله إليه: أن خُذْ بقرة صفراء فاقعاً لونها، فاذبحها، ثم اضرب الغلام ببعضها. فعمدوا إلى بقرة الفتى فاشتروها على أن يملؤوا جلْدها دنانير. ثم ذبحوها، ثم ضربوا الغلام ببعضها، فقام يخبرهم، فقال: إنّ بني عمي قتلوني، وأهل الدار مني برآء. فأخذهم موسى –عليه السلام–. ، فقالوا: يا موسى أتتّخذنا هزواً، قد قتلنا ابن عمنا مظلوماً، وقد علموا أن سيُفضحوا، فعمدوا إلى جلد البقرة فملؤوه دنانير، ثم دفعوه إلى الفتى. فعمد الفتى فتصدّق بالثلثين على فقراء بني إسرائيل، وتقوّى بالثلث{ .كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .}

وأخرج البزار، عن أبي هريرة، عن النبي– صلى الله عليه وسلم–، قال)) :إن بني إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأهم ذلك، أو لأجزأت عنهم.((

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال :قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–لولا أنّ بني إسرائيل قالوا{ :وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}، ما أُعطوا أبداً. ولو أنهم

اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها، لأجزأت عنهم؛ ولكن شدّدوا، فشدّد الله عليهم.((

قال ابن كثير: "وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة، كما تقدم مثله عن السدي- والله أعلم."-

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عكرمة مرسلاً، نحو ذلك .

وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج، مرسلاً أيضاً، نحو ذلك.

وأخرج ابن جرير، عن قتادة، مرسلاً، نحو ذلك .

وعن ابن عباس، موقوفاً عليه، نحو ذلك .

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عكرمة يبلغ به النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال)) :لو أنّ بني إسرائيل أخذوا أدنى بقرة فذبحوها، أجزأت عنهم؛ ولكنهم شدّدوا. ولولا أنهم قالوا{ :وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}، ما وجدوها .((

وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-إنما أُمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم. ولو لم يستثنوا، ما بُيِّنت لهم آخر الأبد .((

وأخرج ابن جرير، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن نبي الله- صلى الله عليه وسلم-كان يقول :))إنما أمر القوم بأدنى بقرة، ولكنهم لما شدّدوا على أنفسهم شدّد عليهم. والذي نفس محمد بيده! لو لم يستثنوا ما بُيّنتْ لهم .((

و عن ابن عباس، قال: "لو أخذوا أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شدّدوا وتعنّتوا موسى فشدّد الله عليهم."

وقال وهب بن منبه: "إذا نظرت إلى جلدها تخيّلت أنّ شعاع الشمس يخرج من جلدها."

وعن ابن عباس، في قوله{ :لاَ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}، قال: الفارض: الهرمة، والبكر: الصغيرة، والعوان: النّصَف.

وذكر نحوه أبو العالية، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، ووهب بن منبه، والضحاك، والحسن، وقتادة .

وأخرج الطِسْتي في مسائله، عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله -عز

وجل{ :–لَاَ فَارِضٌ}، قال: الكبيرة الهرمة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت الشاعر وهو يقول:

لَعَمْرِي لقد أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضاً	تُساقُ إِلَيه ما تقوم على رِجْلِ

قال: أخبرني عن قوله{ :صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا}، الفاقع: الصافي اللون من الصفرة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول:

سُدُما قليلاً عهده بأنيسه	من بين أَصْفَر فَاقِعٍ ودِفَان

وعن سعيد بن جبير: أنه كان يستحبّ أن يسكت على{ بِكْرٌ}، ثم يقول{ :عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ .}

وعن ابن عباس{ :عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}، يقول: نَصَف بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما تكون .

ورُوي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، والضحاك نحو ذلك .

وقال السدي: "العوان: النَّصَف التي بين ذلك، التي قد ولدت، وولد ولدها ."

وعن الحسن:"كانت بقرة وحشية ."

وعن ابن عباس{ ":فَاقِعٌ لَوْنُهَا :}شديد الصفرة، تكاد من صفرتها تبيَضّ ."

وكذا قال مجاهد، ووهب بن منبه: "كانت صفراء ."

وعن ابن عمر: "كانت صفراء الظلف ."

وعن سعيد بن جبير: "كانت صفراء القرن والظلف ."

وعن الحسن في قوله تعالى{ :صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا }قال: "سوداء شديدة السواد ."

وقال عطية العوفي{ ":فَاقِعٌ لَوْنُهَا :}تكاد تسود من صفرتها ."

وقال سعيد بن جبير{" :فَاقِعٌ لَوْنُهَا}، قال: صافية اللون ."

وروي عن أبي العالية، والربيع بن أنس، والسدي، والحسن، وقتادة، نحوه.

و عن ابن عمر{ :فَاقِعٌ لَوْنُهَا :}قال: "صاف."

وعن ابن عباس: من لبس نعلاً صفراء، لم يزل في سرور ما دام لابسها، وذلك قوله تعالى :

{تَسُرُّ النَّاظِرِينَ .}

وقال السدي{" :تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}، أي: تُعجب الناظرين ."

وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس.

وعن أبي العالية في قوله{ :إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ}، أي: لم يُذلّها العمل{ .تُثِيرُ الأَرْضَ}، يعني: ليست بذلول فتثير الأرض{ .وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ}، يقول: ولا تعمل في الحرث{ .مُسَلَّمَةٌ}، قال: من العيوب.

وعن قتادة في قوله{ :لا ذَلُولٌ}، يقول: لم يُذلّها العمل{ .مُسَلَّمَةٌ}، قال: من العيوب{ .لا شِيَةَ فِيهَا}، قال: لا بياض فيها.

وعن مجاهد في قوله{ :بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِير}، يقول: ليست بذلول فتفعل ذلك،{ مُسَلَّمَةٌ}، قال :من الشية. قال{ :لاَ شِيَةَ فِيهَا}، قال: لا بياض ولا سواد .

وعن قتادة{ :مُسَلَّمَةٌ }يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع .

وقال عطاء الخراساني{" :مُسَلَّمَةٌ :}القوائم والخلق ."

وقال عطاء الخراساني أيضاً{" :لاَ شِيَةَ فِيهَا}، قال: لونها واحد بهيم ."

وروي عن وهب بن منبه، وإسماعيل بن أبي خالد، نحو ذلك .

وقال أبو العالية والربيع، والحسن: "ليس فيها بياض ."

وقال السدي{" :لاَ شِيَةَ فِيهَا }من بياض ولا سواد ولا حمرة."

وعن ابن عباس{ :مُسَلَّمَةٌ}، قال: لا عوار فيها .

و عن عطية{ :لاَ شِيَةَ فِيهَا}، قال: لونها واحد ليس فيها لون سوى لونها .

و عن قتادة، في قوله{ :قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}، قال :الآن بيّنت لنا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "وقبْل ذلك، والله جاءهم الحق!

وعن ابن عباس{ :فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}، كادوا أن لا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها .

وعن محمد بن كعب في قوله{ :فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}، لغلاء ثمنها.

وقال محمد بن قيس{ :فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}، لكثرة ثمنها .

وعن عكرمة قال: ما كان ثمنها إلاّ ثلاثة دنانير.

وعن ابن عباس: "أن أصحاب البقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة، حتى وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تعجبه، فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مسكها دنانير. فذبحوها فضربوه بعضو منها، فقام تَشْخُبْ أَوْدَاجُه دماً، فقالوا له: مَن قتلك؟ قال: قتلني فلان ."

وعن عطاء قال: الذبح والنحر في البقر سواء، لأن الله يقول{ :فَذَبَحُوهَا.}

و عن مجاهد، قال: "كان لبني إسرائيل الذبح، وأنتم لكم النحر، ثم قرأ{ :فَذَبَحُوهَا}، {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ."}

وعن مجاهد، أنه قال في قوله تعالى{ :وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا" :}اختلفتم ."

وقال عطاء الخراساني، والضحاك: "اختصمتم فيها ."

وقال ابن جريج{ :وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا}، قال" :قال بعضهم: أنتم قتلتموه!، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه ."!

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وعن مجاهد،{ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" :}ما تُغيّبون ."

وعن المسيب بن رافع يقول: "ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله. وتصديق ذلك في كلام الله{ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ."}

وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم)) :-لو أن رجلاً عمل في صخرة صمّاء لا باب فيها ولا كُوَّة، خرج عمله إلى الناس، كائناً ما كان .((

و عن عثمان بن عفان، قال: "مَن عمل عملاً، كساه الله رداءه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ."

وأخرج البيهقي من وجه آخر، عن عثمان، قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم :-))مَن كانت له سريرة صالحة أو سيئة، أظهر الله عليه منها رداءً يُعرف به .((

قال البيهقي: والموقوف أصح .

وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي وضعّفه، عن أنس، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-

لأصحابه)) :من المؤمن .((قالوا: الله رسوله أعلم. قال)) :المؤمن الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه ممّا يحب. ولو أنّ عبداً اتّقى الله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً، على كل بيت باب من حديد، لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون .((قالوا: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال)) :لأنّ التقي لو يستطيع أن يزيد في برِّه لزاد .((ثم قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–من الكافر؟ .((قالوا: الله ورسوله أعلم. قال)) :الكافر الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه ممّا يكره. ولو أنّ فاجراً فجر في جوف بيت إلى سبعين بيتاً، على كل بيت باب من حديد، لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون .((قالوا: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال)) :لأنّ الفاجر لو يستطيع أن يزيد في فجوره لزاد.((

وأخرج ابن عدي، عن أنس: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم –قال)) :إن الله مُرْدٍ كلَّ امرئ رداء عمله .((

وعن ثابت، قال: "كان يقال: لو أن ابن آدم عمل بالخير في سبعين بيتاً، لكساه الله تعالى رداء عمله حتى يُعرف به ."

وعن سعيد بن المسيّب، قال: "الناس يُعرف أعمالهم مِن تحت كَنَفِ الله؛ فإذا أراد الله بعبد فضيحة أخرجه من تحت كنفه، فبدت عورته ."

وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي، عن أبي إدريس الخولاني رفعه، قال: "لا يهتك الله عبداً وفيه مثقال حبة من خير."

و عن إبراهيم، قال: "لو أن عبداً اكْتَتَمَ بالعبادة كما يَكْتَتِم بالفجور، لأظهر الله ذلك منه ."

وعن ابن عباس، قال: "فضربوه– يعني: القتيل– بعضو منها، فقام تَشْخُب أَوْدَاجُه دماً، فقالوا له : من قتلك؟ قال :قتلني فلان ."

وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أنه ضُرِب ببعضها .

وعن عبيدة: "ضربوا القتيل ببعض لحمها ."

وعن ابن عباس قال: "ضُرب بالعظم الذي يلي الغضروف."

و عن قتادة قال: "ذُكر لنا: أنهم ضربوه بفخذها، فلما فعلوا أحياه الله حتى أنبأهم بقاتله الذي قتله، وتكلّم؛ ثم مات."

وفي لفظ: "ضربوه بلحم فخذها فعاش. فقال: قتلني فلان ."

و عن عكرمة، قال: "ضربوه بفخذها فحيّ، فما زاد على أن قال: قتلني فلان. ثم عاد فمات ."

و عن مجاهد في الآية قال: "ضُرب بفخذ البقرة، فقام حياً، فقال: قتلني فلان. ثم عاد في ميتته."

وعن السدي: "فضربوه بالبَضعة التي بين الكتفين، فعاش فسألوه، فقال: قتلني ابن أخي ."

وقال أبو العالية: "أمَرهم موسى -عليه السلام- أن يأخذوا عظماً من عظامها، فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمّى لهم قاتله؛ ثم عاد ميتاً كما كان ."

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "فضربوه ببعض آرابها. وقيل: بلسانها. وقيل: بعجب ذنبها."

الأسئلة :

١. البقرة واحدة البقر ، وسميت بذلك لأنها تبقر الأرض للحرث (صح) .

٢. الفارض : اسم للكبيرة التي تلد (خطأ) .

٣. البكر : اسم للصغيرة التي لم تلد (صح) .

٤. قال ابن قتيبة : البكر من البقر : التي ولدت ولداً واحداً (صح) .

٥. الفقوع : أشد ما يكون من اللون أي لون كان (خطأ) .

٦. (عوان بين ذلك) : هي التي ولدت بطناً أو بطنين ، فهي متوسطة السن ليست بكبيرة ولا صغيرة (صح) .

٧. تقييد وصف البقرة بقوله تعالى (عوان بين ذلك) فيه فائدة مهمة وهي نفي توهم أن يكون المراد عجلاً ذكراً أو جنيناً (صح) .

٨. الفرق بين السرور والفرح : أن السرور هو الفرح الظاهر الذين يحدث أشراً وبطراً والفرح هو الذي الخالص المنكتم (خطأ) .

٩. الفرق بين السرور والحبور والفرح : أن السرور هو الخالص المنكتم ، والحبور هو الظاهر ، والفرح ما يحصل بطراً وأشراً (صح) .

١٠. لا ذلول : ليست مذللة للحرث والسقي (صح) .

١١. (لا ذلول تثير الأرض) أي : ليست مذللة للركوب عليها ، وإنما تقوم بحرث الأرض فقط (خطأ) .

١٢. إثارة الأرض : إثارة ما فيها من الغبار بسبب البطر والمرح (صح) .

١٣. مسلمة : أي : مستسلمة لسيدها منفذة لما يطلب منها (خطأ) .

١٤. لا شية فيها : لا لمعة فيها من لون آخر سوى الصفرة فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها (صح) .

١٥. لا شية فيها : بمعنى لا شيء فيها ، أي : ليست بحامل فليس في بطنها شيء (خطأ)

١٦. فادارأتم فيها : أي : احتميتم فيها من هذه الجريمة وأخفيتم حقيقتها (خطأ) .

١٧. فادارأتم فيها : أي : اختلفتم واختصمتم بشأنها ، لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدفعه ويزحمه (صح) .

١٨. الآيات فيها دليل أن من شدد على نفسه شدد الله عليه لأن بني إسرائيل لو ذبحوا بداية أي بقرة لقبل منهم (صح) .

١٩. الآيات فيها ذكر الرجل الذي قتل عمه ليرثه وألقى التهمة على غيره فأنطق الله الميت لما ضرب ببعض البقرة فذكر قاتله ثم مات (صح) .

٢٠. أول قاتل لم يرث قتيله كان هذا القاتل ثم صارت سنة بعد (صح) .

٢١. الآيات فيها بيان سوء أدب بني إسرائيل مع أنبيائهم حيث قالوا لنبيهم (أتتخذنا هزواً) (صح) .

٢٢. قال ابن عباس : لو لم يقولوا : إن شاء الله لما اهتدوا إليها (صح) .

٢٣. ما ذكر من أن صاحب البقرة كان رجلاً باراً بأمه فجزاه الله بأن اشترى منه بنو إسرائيل البقرة بوزنها ذهباً غير صحيح (خطأ) .

٢٤. قولهم (الآن جئت بالحق) فيه سوء أدب مع نبيهم وكأنه قبل ذلك لم يأتهم بالحق (صح) .

٢٥. قولهم : (وإنا إن شاء الله لمهتدون) اللام في لمهتدون لام العاقبة والصيرورة بمعنى : أن نصير من المهتدين (خطأ) .

٢٦. قوله (وما كادوا يفعلون) أي : كادوا أن لا يذبحوها لغلاء ثمنها (صح)

٢٧. قوله : (والله مخرج ما كنتم تكتمون) : المراد بالكتمان ما كانوا يكتمونه من الرد والرفض لأن القاتل كان واحداً فقط لا يعلمونه (خطأ) .

٢٨. استدل بعض العلماء بقوله تعالى : (والله مخرج ما كنتم تكتمون) أن الإنسان مهما كتم من عمله من خير أو شر فلا بد من أن يظهره الله (صح) .

٢٩. اختلف المفسرون في البعض الذي ضرب به القتيل وهو من العلم الذي لا ينفع علمه ولا يضر جهله (صح) .

٣٠. في الآيات دليل على أن البقر تذبح ولا تنحر وهكذا ثبت في سنة نبينا محمد ﷺ (خطأ) .

المحاضرة الثانية والثلاثون

***

استكمال تفسير الآيات من (٦٧) إلى (٧٣) من سورة (البقرة)، المتعلقة بقصة بقرة بني إسرائيل.

أقوال المفسرين.

يقول الله تعالى: واذكروا -يا بني إسرائيل- نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياء الله المقتول ونصّه على مَن قتله منهم.

قال ابن كثير، معلقاً على الآثار الواردة في تفسير الآيات: "وهذه السياقات عن عبيدة، وأبي العالية، والسدي، وغيرهم، فيها اختلاف ما. والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مِمّا يجوز نقلها، ولكن لا تُصدّق ولا تُكذب؛ فلهذا لا يُعتمد عليها إلاّ ما وافق الحق عندنا- والله أعلم.-

قلت: اتفقت الآثار جميعها عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين على قدر معيّن مِن القصة، وهو القدر المطلوب لفهم معنى الآيات، ولم يذكر أحد منهم أنه أخذ ذلك عن كتب بني إسرائيل؛ ولو افترُض صحة أخذهم هذه المعلومات عنهم، فاتفاقهم على تفسير كتاب الله تعالى بذلك لا بغيره، وجزمهم به مع ما هم فيه من أعلى درجات الورع ومعرفة ما يليق بتفسير كتاب الله، لا يعني إلاّ تصديق ما ذكروه، وأنه المراد من كلام الله هنا -والله أعلم.-

قوله تعالى{ : قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً :}قالوا ذلك إمّا بعد أن أمرهم موسى- عليه السلام- بذبح بقرة دون ذكر الإحياء بضربها، وإما بعد أن أمرهم وذكر لهم، استبعاداً لما قاله واستخفافاً به، كما يدل عليه الاستفهام؛ إذ المعنى: أتسخر بنا؟ فإن جوابك لا يطابق سؤالنا ولا يليق. وأين ما نحن فيه مِمّا أنت آمر به. ولا يأبى ذلك انقيادهم له، لأنه بعد العلم بأنه جدّ وعزيمة؛ ومن هنا قال بعضهم: إن إجابتهم نبيّهم حين أخبرهم عن أمر الله تعالى بأن يذبحوا بقرة بذلك، دليل على سوء اعتقادهم بنبيّهم وتكذيبهم له؛ إذ لو علموا أنّ ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى لَمَا استفهموا هذا الاستفهام، ولا كانوا أجابوا هذا الجواب. فهم قد كفروا بموسى -عليه السلام-. ومن الناس من قال: كانوا مؤمنين مصدِّقين، ولكن جرى

هذا على نحو ما هم عليه من غلظ الطبع والجفاء والمعصية. والعذر لهم: أنهم لما طلبوا من موسى -عليه السلام- تعيين القاتل، فقال ما قال، ورأوا ما بين السؤال والجواب، توهّموا أنه -عليه السلام- داعبهم، أو ظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء؛ فأجابوا بما أجابوا. وقيل: استفهموا على سبيل الاسترشاد لا على وجه الإنكار والعناد. قلت: وهو بعيد.

{قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، أي: مِن أن أُعَدّ في عدادهم. والجهل -كما قال الراغب- له معان: عدم العلْم، واعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، وفعْل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً. وهذا الأخير هو المراد هنا، وقد نفاه -عليه السلام- عن نفسه، قصداً إلى نفي ملزومه الذي رُمِيَ به، وهو: الاستهزاء على طريق الكناية.

ثم أخبر تعالى عن تعنّت بني إسرائيل، وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيّقوا على أنفسهم ضيّق الله عليهم؛ ولو أنهم ذبحوا أيّ بقرة كانت، لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فَشُدِّد عليهم. فقالوا{ :ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ}، أي: ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ}، أي: لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل.

{فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ}، أي: مِن ذبْح البقرة، ولا تكرِّروا السؤال، ولا تتعنّتوا .وهذه الجملة يحتمل أن تكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أن تكون من قول موسى -عليه السلام-، حرّضهم على امتثال ما أمروا به شفقةً منه عليهم .

قوله تعالى{ :قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ.}

ذكر ابن كثير هنا قول الحسن بأنّ معناها: سوداء، ثم قال :وهذا غريب، والصحيح الأول؛ ولهذا أكّد صفرتها بأنه{ فَاقِعٌ لَوْنُهَا .}

قال: وفي التوراة أنها كانت حمراء، فلعل هذا خطأ في التعريب، أو كما قيل : إنها كانت شديدة الصفرة، تضرب إلى حمرة وسواد -والله أعلم .-

وقوله تعالى{ :إِنّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا}، أي: لكثرتها، فميّزْ لنا هذه البقرة، وصِفْها وحلّها لنا، {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ}، إذا بيّنْتَها لنا{ لَمُهْتَدُونَ }إليها .

{وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}، أي: إلى عين البقرة المأمور بذبحها، أو لِمَا خفي مِن أمْر القاتل، أو إلى الحكمة التي مِن أجلها أمرنا .

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ}، أي: إنها ليست مُذلَّلة بالحراثة، ولا مُعدَّة للسقي في السانية، بل هي مُكرّمة حسنة صبيحة،{ مُسَلّمَةٌ }صحيحة لا عيب فيها،{ لاَ شِيَةَ فِيهَا}، أي :ليس فيها لون غير لونها.

وتحصيلها كان بشرائها من الشاب البار بأبويه، كما تضافرت عليه أقوال أكثر المفسرين، والقصة مشهورة. وقيل: كانت وحشية فأخذوها. وقيل: لم تكن من بقر الدنيا، بل أنزلها الله تعالى من السماء .قال الآلوسي: "وهو قول هابط إلى تخوم الأرض."

وقد قال الحسن: كانت هذه البقرة وحشية، ولهذا وصفت بأنها لا تثير الأرض... إلخ.

وذهب قوم إلى أنّ{ :تُثِيرُ }مثبت لفظاً ومعنىً، وأنه أثبت للبقرة أنها تثير الأرض، وتحرثها، ونفى عنها سقي الحرث. ورُدَّ بأنّ ما كان يحرث لا ينتفي عنه كونه ذلولاً. وقال بعض: المراد أنها تثير الأرض بغير الحرث بطراً ومرحاً؛ ومن عادة البقر إذا بطرت تضرب بقرونها وأظلافها فتثير تراب الأرض، فيكون هذا من تمام قوله{ :لاَ ذَلُولٌ}، لأنّ وصفها بالمرح والبَطَر دليل على ذلك. قال الآلوسي :وليس عندي بالبعيد.

وقال ابن كثير في الآثار المفسّرة لقوله{ :لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ :}وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وقد زعم بعضهم أن المعنى في ذلك قوله تعالى{ :إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ}، ليست بمذلَّلة بالعمل، ثم استأنف فقال{ :تُثِيرُ الأَرْضَ}، أي: يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقي الحرث، وهذا ضعيف لأنه فَسَّر الذلول التي لم تذلّل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث؛ كذا قرره القرطبي وغيره...

وقوله{ : مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا}، أي: سلّمها الله تعالى من العيوب؛ قاله: ابن عباس، أو أعفاها أهلها من سائر أنواع الاستعمال؛ قاله: الحسن، أو مطهّرة من الحرام، لا غصب فيها ولا سرقة؛ قاله: عطاء، أو أُخلص لونها من الشّيات؛ قاله: مجاهد. والأوْلى: ما ذهب إليه ابن

عباس –رضي الله تعالى عنهما–، لأن المطلق ينصرف إلى الكامل، ولكونه تأسيساً. وعلى آخر الأقوال، يكون{ لاَ شِيَةَ فِيهَا}، أي :لا لون فيها يخالف لونها تأكيداً.

{قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}، أي: أظهرت حقيقة ما أُمرنا به، فالحق هنا بمعنى: الحقيقة. وقيل: بمعنى :الأمر المقضي، أو اللازم. وقيل: بمعنى: القول المطابق للواقع. ولم يريدوا أن ما سبق لم يكن حقاً، بل أرادوا أنه لم يظهر الحق به كمال الظهور، فلم يجئ بالحق بل أومأ إليه. فعلى هذه الأقوال، لم يكفروا بهذا القول .وأجراه قتادة على ظاهره، وجعله متضمناً: أن ما جئت به من قبل كان باطلاً؛ فقال: إنهم كفروا بهذا القول. قال الآلوسي: والأوْلى عدم الإكفار.

قوله{ :فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ:}

يعني: أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح، ما ذبحوها إلاّ بعد الجهد؛ وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلاّ التّعنّت، فلهذا ما كادوا يذبحونها .

وقال ابن كثير مُعَلِّقاً على قول من قال: لكثرة ثمنها :وفي هذا نظر، لأن كثرة الثمن لم يثبت إلاّ مِن نقْل بني إسرائيل، كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي .

ورواه العوفي عن ابن عباس .

وقال عبيدة، ومجاهد، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنهم اشتروها بمال كثير، وفيه اختلاف. ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك ...

ثم ذكر أثر عكرمة في أنها بثلاثة دنانير، وقال: وهذا إسناد جيّد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً .

قلت: وهم الحافظ ابن كثير –رحمه الله–، وكأنه ظن أنّ عكرمة يُثبت شراءهم لها بالدنانير الثلاثة، والصحيح :أنه إنما ذكر قيمتها الحقيقية في ذلك الوقت، كما هو ظاهر من روايته التي سقناها مطولة، والتي صرح فيها بشرائهم لها بملء جلدها ذهباً، فوافق ما اتفق عليه غيره من السلف.

وقال ابن جرير: "وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه. ولم يسنده عن أحد. ثم اختار أن الصواب في ذلك: أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة .وفي هذا نظر؛ بل الصواب –والله أعلم–: ما تقدّم من رواية الضحاك، عن ابن عباس، على ما وجّهناه –وبالله التوفيق ."–

قلت: لا أريد أن أطيل في التعليق على هذا الموضع، لضيق المقام، ولكن اتفق السلف على غلاء ثمنها. وظاهر القصة يؤيد ذلك حتى بالسياق القرآني، لأن هذه الصفات الدقيقة نادرة ولا يمكن أن يدفعها صاحبها لطالبيها إلاّ بثمن عال، خاصة مع حب بني إسرائيل المشهور للمال. وليس شرطاً أن تكون القصة كلّها عن بني إسرائيل، بل إن اتفاق السلف عليها يُرجِّح وجود مجال للرفع، فإنه لا يعقل ألاّ يسأل أحد عنها النبي –صلى الله عليه وسلم–، وابن عباس كان يستنكر سؤال أهل الكتاب، كما ثبت في الصحيح.

وقد تقدم في الآثار: أنهم لو ذبحوا أي بقرة كانت أجزأتهم، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم.

وعن بعض الخلفاء: أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم، فكتب إليه بأيهما أبدأ؟ فقال: إن قلت لك بقطع الشجر سألتني بأي نوع منها أبدأ .

وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاة سألتني أَضائِن أم ماعز؟ فإن بيّنت لك، قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك. قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء، فلا تراجعني !

وفي الحديث)) :أعظم الناس جُرْماً: من سأل عن شيء لم يُحرَّم، فحُرِّم لأجل مسألته .((

قال البخاري{ :فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا :}اختلفتم .

والتَّدَارُؤ هنا إمّا مجاز عن: الاختلاف والاختصام، أو كناية عنه؛ إذ المتخاصمان يدفع كل منهما الآخر، أو مستعمل في حقيقته، أعني: التدافع بأن طرح قتْلها كلّ عن نفسه إلى صاحبه، فكل منهما من حيث إنه مطروح عليه يدفع الآخر من حيث إنه طارح. وقيل: إنّ كلاًّ منهما يدفع الآخر عن البراءة إلى التهمة، فإذا قال أحدهما: أنا بريء وأنت متهم. يقول الآخر: بل أنت المتهم وأنا البريء.

{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا :}هذا البعض: أيّ شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن؛ وقد كان معيّناً في نفس الأمر. فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدِّين أو الدنيا، لبيَّنه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نُبهمه كما أبهمه الله .

وقال الآلوسي: "واختُلف بِمَ ضربوه، فقيل: بلسانها، أو بأصغريها، أو بفخذها اليمنى، أو بذنبها، أو بالغضروف، أو بالعظم الذي يليه، أو بالبَضْعة التي بين الكتفيْن، أو بالعجب، أو

بعظم من عظامها .ونقل: أن الضرب كان على جِيد القتيل، وذلك قبل دفنه .وقيل: إن الضرب على القبر بعد الدفن."

قال الماوردي: "وإنما كان الضرب بميت لا حياة فيه، لئلا يلتبس على ذي شبهة أنّ الحياة إنما انقلبت إليه ممّا ضرب به؛ فلإزالة الشبهة وتأكّد الحجة كان ذلك ."

وقوله تعالى{ :كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}، أي: فضربوه فحيي .

ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى، بما شاهدوه من أمْر القتيل، جعل –تبارك وتعالى– ذلك الصنيع حجّة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد. والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ممّا خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع{ :ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ}، وهذه القصة، وقصة{ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ}، وقصة {كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}، وقصة إبراهيم –عليه السلام– والطيور الأربعة .

ونبّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً، كما روى أبو داود الطيالسي، عن أبي رزين العُقيلي –رضي الله عنه–، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال)) :أما مررتَ بواد مُمْحِل ثم مررت به خَضِراً؟ .((قال: بلى. قال :))كذلك النشور .((أو قال{)) :كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى.((}

وشاهد هذا: قوله تعالى{ :وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ } لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ .}

قوله{ :وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ}، الظاهر: أن الآيات جمْع في اللفظ والمعنى، والمراد بها: الدلائل الدالة على أن الله تعالى على كل شيء قدير، ويجوز أن يُراد بها هذا الإحياء. والتعبير عنه بالجمع، لاشتماله على أمور بديعة مِن ترتب الحياة على الضرب بعضو ميت، وإخبار الميت بقاتله، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادات. وفي" المنتخب": أن التعبير عن الآية الواحدة بالآيات، لأنها تدلّ على وجود الصانع القادر على كلّ المقدورات، العالِم بكل المعلومات، المختار في الإيجاد والإبداع، وعلى صدق موسى –عليه السلام–، وعلى براءة ساحة مَن لم يكن قاتلاً، وعلى تَعَيُّنْ تلك التهمة على من باشر القتل .

{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، أي: لكي تعقلوا الحياة بعد الموت والبعث والحشر، فإنّ مَن قَدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلّها، لعدم الاختصاص{ :مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، أو لكي يكمل عقلكم، أو لعلّكم تمتنعون من عصيانه.

قيل: ووجه الحكمة في جعل البقرة آلة دون غيرها من البهائم: أنهم كانوا يعبدون البقر والعجاجِيل، وحُبِّبَ ذلك في قلوبهم، لقوله تعالى{ :وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ}، ثم بعد ما تابوا أراد الله تعالى أن يمتحنهم بذبح ما حُبِّبَ إليهم ليكون حقيقة لتوبتهم .وقيل: لعله ألطف وأولى أنّ الحكمة في هذا الأمر: إظهار توبيخهم في عبادة العجل، بأنكم كيف عبدتم ما هو في صورة البقرة؟ مع أن الطبع لا يقبل أن يخلق الله تعالى فيه خاصية يحيا بها ميت بمعجزة نبي، وكيف قبلتم قول السامري: إنه إلهكم؟ وها أنتم لا تقبلون قول الله سبحانه إنه يحيا بضرب لحمة منه الميت.

المعنى الإجمالي.

يذكر تعالى موقفاً آخر من مواقف تعنّتهم، وسوء أدبهم مع نبي الله موسى –عليه السلام–، وما تضمّنه من نعمة عليهم ومعجزة باهرة، ومع ذلك لم تُجْد فيهم نفعاً. فقد أمر الله –عز وجل– موسى –عليه السلام –أن يطلب من قومه، عندما سألوه عن أمر قتيل اختلفوا فيمن قتله على ما جاء ذكره في الآثار، أن يذبحوا بقرة، فما كان منهم إلاّ أن ظنوا في نبيّهم أنه يهزأ بهم ويسخر؛ فهم يسألونه عن قاتل القتيل، ويجيبهم بأمرهم أن يذبحوا بقرة! فبيّن لهم –عليه السلام– أنّ الاستهزاء بالناس هو مِن فعْل الجاهلين، وقد استعاذ بالله أن يكون منهم، وهو نبي الله ورسوله وكليمه. ومع ذلك لم يسارعوا في تحقيق ما أمر الله به، ولو سارعوا لأجزأهم وكان خيراً لهم، ولكنهم شدّدوا على أنفسهم بسبب تلكّئهم في تقديم الطاعة لله، وطلبوا وصفاً لهذه البقرة يبيّنه الله لهم .فأعطاهم موسى –عليه السلام– الوصف الموحى إليه من الله، وفيه: أنها بقرة ليست بالكبيرة المسِنّة، ولا بالصغيرة البكر التي لم تلد، وإنما هي وسط ونصَف بين هذيْن الوصفيْن، وهي أقوى وأفضل ما يكون. وأمرهم أن يسارعوا لفعْل ما أمروا به، ولا يزدادوا في هذا العنت. فما كان منهم إلاّ أن طالبوه بأن يسأل الله تعالى أن يبيّن لهم لون هذه البقرة، فجاء التشديد من الله بأن قال لهم :إنها بقرة لونها لون أصفر فاقع صاف،

تُدخل البهجة والسرور والإعجاب على مَن نظر إليها من جمالها. فما كان منهم إلاّ أن زادوا في التشديد على أنفسهم، فطالبوا نبيّهم أن يدعو الله أن يبيّن لهم ما وصْف هذه البقرة، حيث زعموا أن البقر قد اختلط عليهم تشابهه، ولم يتبيّنوا البقرة المطلوبة، وأنه تعالى إن شاء سوف يهديهم إلى ما يريده منهم. فذكر لهم موسى –عليه السلام– أن الله تعالى بَيَّنَ لهم وصفاً آخر لها، وهو: أنها بقرة غير مذلّلة بالعمل، فهي لا تثير أرضاً للحراثة، ولا تسقي زرعاً بسانية، ولا غيرها؛ وهي مبرّأة من كل عيب، سليمة الخلقة، لا خلط في لونها بلون آخر حتى ظِلْفها وقرنها. فما وجدوا هذه الأوصاف مجتمعة إلاّ في بقرة واحدة، فقالوا لنبيهم –على عادتهم في سوء الأدب{ :–الآنَ جِئْتَ بِالْحَقّ}، حيث وجدوا الوصف بعيْنه، وقد كان جاءهم بالحق من قبْلُ،– عليه السلام–. فأرادوا شراءها فلم يرض صاحبها إلاّ بأضعاف ثمنها، فاشتروها على مَضَضٍ وذبحوها، وقد كادوا ألاّ يفعلوا ذلك لأسباب عدّة، منها: ظنهم أن نبيهم يستهزئ بهم. ومنها: تعنّتهم في طلب وصْفها. ومنها: غلاء ثمنها.
ثم أمرهم نبيّهم في قصة الرجل الذي قُتل فيما بينهم، فاختلفوا وتنازعوا فيمن قتَله وأزهق نفْسه، وأراد الله أن يخرج الحقيقة المكتومة المخفاة: أن يضربوا القتيل ببعض هذه البقرة، فإن الله قد جعل ذلك آية لهم لإحياء الموتى. فلما ضربوه ببعض هذه البقرة، دَبَّت فيه الحياة، فأخبر بمَن قتَله، ثم عاد ميتاً كما كان. فكانت لهم في هذه القصة آيات عدّة أراهم الله تعالى إياها،{ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }أمره ونهيه، وينتفعوا بذلك لآخرتهم .

مسائل الآيات .

قال الآلوسي: "وقد ذكَر المفسّرون أحكاماً فقهيّة انتزعوها واستدلّوا عليها من قصّة هذا القتيل، ولا يظهر ذلك من الآية، ولا أرى لذِكْر ذلك طائلاً سوى الطول."

قلت: مِن تلك المسائل، وليست كما قال الآلوسي، بل يمكن انتزاعها من الآيات:

الأولى :السَّلَم في الحيوان:

استُدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعيّنت أو تمّ تقييدها بعد الإطلاق، على صحّة السَّلَم في الحيوان، كما هو مذهب مالك، والأوزاعي، والليث، والشافعي، وأحمد، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي –صلى الله عليه وسلم–

)) :لا تَنْعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها((، وكما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- إبل الدّية في قتل الخطإ وشبه العمد، بالصفات المذكورة بالحديث. وقال أبو حنيفة، والثوري، والكوفيون: لا يصح السّلَم في الحيوان، لأنه لا تنضبط أحواله. وحكي مثله عن ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم...

الثانية :الذَّبْح والنحر:

الإبل تُنحر، والغنم تُذبح، واختلفوا في البقر، فقيل: تُذبح، وقيل: تُنحر، والذبح أوْلى لنصّ القرآن، ولقُرب منحرها من مذبحها.

قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافاً في حِلِّ ما ذُبح ممّا يُنحر، أو نُحِرَ ما يُذبح، غير أن مالكاً كره ذلك، وقد يكره الإنسان ما لا يُحرّمه.

الثالثة :اللَّوْثُ في القتل:

مسألة: استُدلّ لمذهب الإمام مالك، في كون قول الجريح: فلان قتلني، لَوثاً بهذه القصة، لأن القتيل لما حيي سُئل: عمن قتله؟ فقال: فلان قتلني. فكان ذلك مقبولاً منه، لأنه لا يخبر حينئذ إلاّ بالحق، ولا يُتّهم والحالة هذه. ورجّحوا ذلك، لحديث أنس: "أنّ يهوديا قتل جارية على أوضاح لها، فَرَضَخَ رأسها بين حجريْن. فقيل :من فعل بكِ هذا؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودي، فأومأت برأسها. فأُخذ اليهودي فلم يُزل به حتى اعترف،)) فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أن يُرَضَّ رأسه بين حجريْن."((

وعند مالك: إذا كان لوثا حلَف أولياء القتيل قسامة، وخالف الجمهور في ذلك، ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثاً.

قلت: الفرق بين قصة البقرة واللّوث واضح: فقصة البقرة مُعجزة ظاهرة، وحكم قاض بتعيين القاتل، وأمّا اللوث فهو مجرد تهمة لها مبرر؛ وبناء عليه، تكون القسامة كما في قصة حُوَيِّصة ومُحَيِّصة في الصحيح، حيث اعتُبِر وجود القتيل في أرض اليهود لوثاً .ولا يخفى على المتأمل أن إخبار المقتول بقاتله أشدّ تهمة مِن مجرّد وجوده في أرض ما. فقول مالك قويّ في هذه المسألة .

قيل: وكان نزول قصة البقرة على موسى -عليه السلام- في أمْر القتيل قبل نزول القسامة في التوراة.

قلت: ليس هناك دليل يُثبت وجود القسامة في التوراة، وإنما كانت عند أهل الجاهلية وأقرها الإسلام، وهي: أن يحلف أربعون رجلاً من أولياء الدم على القاتل فيستحقّون دمهم، أو يحلف لهم مثلهم من الطرف الآخر أنهم لم يقتلوا صاحبهم، فيكون براءة لهم.

وفي الآيات مسائل أخرى، ومنها:

أولاً :إن قلت: كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرة مِن شق البقر غير مخصوصة، ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات، فذبحوا المخصوصة، فما فعل الأمر الأول؟

قلت: رجع منسوخاً، لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة؛ والنسخ قبل الفعل جائز.

على أنّ الخطاب كان لإبهامه متناولاً لهذه البقرة الموصوفة كما تناول غيرها، ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالاً له، فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص.

وقال الآلوسي: "ومن الناس مَن أنكروا ذلك، وادّعوْا أنّ المراد بها بقرة من نوع البقر بلا تعيين، وكان يحصل الامتثال لو ذبحوا أيّ بقرة كانت، إلاّ أنها انقلبت مخصوصة بسؤاله. وإليه ذهب جماعة من أهل التفسير، وتمسّكوا بظاهر اللفظ –فإنه مطلق فيُترك على إطلاقه–، وبأنه لو كانت معيّنة لما عنّفهم على التمادي، وزجَرهم عن المراجعة إلى السؤال؛ واللازم حينئذ: النسخ قبل الفعل، بناء على مذهب من يقول الزيادة على الكتاب نسْخ."...

وقيل: إنّ عود الضمائر المذكورة في السؤال والجواب، وإجراء تلك الصفات على بقرة، يدلّ على أن المراد بها معيّنة، لأنّ الأوّل يدل على أنّ الكلام في البقرة المأمور بذبحها، والثاني يفيد أن المقصد تعيينها وإزالة إبهامها بتلك الصفات، كما هو شأن الصفة، لا أنها تكاليف متغايرة؛ واللازم على هذا: تأخير البيان عن وقت الخطاب، وليس بممتنع؛ والممتنع تأخيره عن وقت الحاجة، إذ لا دليل على أن الأمر هنا للفور.

ثانيا :إن قلت هلّا أحياه ابتداءً؟ ولِمَ شرط في إحيائه ذبْح البقرة وضرْبه ببعضها؟

قلت: في الأسباب والشروط حِكم وفوائد.

وإنما شرط ذلك لِما في ذبْح البقرة من التّقرّب، وأداء التكاليف، واكتساب الثواب، والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، وما في التشديد عليهم لتشديدهم مِن اللطف لهم ولآخرين في ترك التشديد، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى، وارتسامها على الفور من غير تفتيش

وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والدلالة على بركة البِرّ بالوالديْن والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كُنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء، وبيان أنّ مِن حق المتقرّب إلى ربه أن يَتَنَوَّق في اختيار ما يتقرّب به وأن يغالى بثمنه، كما يروى عن عمر– رضي الله عنه– أنه ضحّى بنجيبة بثلاثمائة دينار، وأنّ الزيادة في الخطاب نسخ له، وأن النسخ قبل الفعل جائز، وليُعلم بما أمر من مسّ الميت بالميت وحصول الحياة عقب ذلك: أن المؤثِّر هو المسبِّب لا الأسباب، لأن الموتيْن الحاصليْن في الجسميْن لا يعقل أن تتولّد منهما حياة.

ثالثاً :إن قلت: فما للقصة لم تُقَص على ترتيبها؟ وكان حقّها أن يُقدَّم ذكْر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: "وإذا قتلتم نفْساً فادّارأتم فيها، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها."

قلت: كلّ ما قُصَّ مِن قصص بني إسرائيل إنّما قصّ تعديداً لِما وُجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولِمَا جُدِّد فيهم من الآيات العظام؛ وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلّة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتيْن متّحدتيْن .

فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك .

والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرّمة، وما يتبعه من الآية العظيمة .

وإنما قُدِّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكْر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تثنية التقريع .

الأسئلة :

١. تنوع السياق في قصة بقرة بني إسرائيل يدل على أنها مأخوذة من كتب أهل الكتاب ، وهي مما لا يجوز نقلها ولا الاعتماد على شيء منها كما قال ابن كثير (خطأ) .

٢. الأخبار المنقولة عن كتب أهل الكتاب لا يعتمد إلا على ما وافق الحق الذي عندنا منها (صح) .

٣. اتفاق الآثار عن السلف في تفسير آيات البقرة بما ذكروا من القصة إجمالاً يدل على أنه المعنى المراد لِله تعالى ولو كان مأخوذاً أصلاً عن بني إسرائيل (صح) .

٤. قولهم (أتتخذنا هزواً) فيه تنزيه منهم لموسى النبي أن يظهر منه ما فيه استهزاء بهم (خطأ) .

٥. قولهم (أتتخذنا هزواً) فيه استخفاف منهم واستهزاء بنبيهم حيث جاءهم بأمر لا تعلق له بما سألوه عنه (صح) .

٦. ذكر بعض أهل العلم أن إجابتهم نبيهم حين أخبرهم عن أمر الله تعالى بأن يذبحوا بقرة بقولهم (أتتخذنا هزواً) دليل على سوء اعتقادهم بنبيهم وتكذيبهم له وأنهم قد كفروا بموسى عليه السلام (صح) .

٧. المقصود بالجهل في قوله (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أو فاسدا (صح) .

٨. قوله (فافعلوا ما تؤمرون) من قول الله موسى عليه السلام لهم ولا يجوز أن يكون من قول الله تعالى الذي أخبر به موسى (خطأ) .

٩. قوله (مسلمة) أي : سالمة (صح) .

١٠. قوله (لا شية فيها) أي : لا عيب فيها (خطأ) .

١١. قوله (لا ذلول) أي : ليست مذللة للعمل ، وقوله (تثير الأرض) جملة استئنافية أي : يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقي الحرث ، وقد ضعف هذا القول ابن كثير (صح) .

١٢. قولهم (الآن جئت بالحق) استدل به بعض المفسرين أنه يتضمن أن ما قاله قبلاً كان باطلاً وأنهم كفروا بذلك (صح) .

١٣. وهم ابن كثير في نقله عن عكرمة أنهم اشتروا البقرة بثلاثة دنانير ورده ما ورد من أنهم اشتروها بثمن كبير كونه لم يرد إلا عن أهل الكتاب (صح) .

١٤. قوله (وما كادوا يفعلون) أي بعد بيان الأمر فيها لم يكادوا يفعلون ذبحها إلا بعد جهد لغلاء ثمنها وهو الذي عليه أكثر المفسرين (صح) .

١٥. (وما كادوا يفعلون) أي : خوفاً من الفضيحة كما رجحه الطبري ونقله عن أكثر المفسرين (خطأ) .

١٦. لم يأت في طريق صحيح تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا به الميت من البقرة وليس في تعيين ذلك فائدة لنا (صح) .

١٧. جاء الأمر بأن يضربوه بجزء من حيوان ميت لا حياة فيه لئلا يلتبس على ذي شبهة أن الحياة إنما انقلبت إليه مما ضرب به فلإزالة الشبهة وتأكد الحجة كان ذلك (صح) .

١٨. قوله (كذلك يحيي الله الموتى) أي : ضربوه فحيي فكذلك يحيي الله الموتى (صح) .

١٩. قوله (كذلك يريكم الله آياته) أي : الدلائل الدالة على أن الله على كل شيء قدير ، ولا يصح أن يكون المراد بذلك الآية التي شاهدوها بإحياء هذا الميت لأنها آية واحدة والتعبير هنا بالجمع (خطأ) .

٢٠. (لعلكم تعقلون) فتتركون مخالفة أمر الله لأن العقل هو الربط والضبط (صح) .

٢١. في الآيات بيان تعنت بني إسرائيل مع أنبيائهم وعدم المسارعة في طاعتهم فيما أمروهم به (صح) .

٢٢. من الأحكام الفقهية المأخوذة من قصة البقرة جواز السلم في الحيوان ، وقد رد الألوسي هذا وأنه لا يظهر ذلك من الآية (صح) .

٢٣. استدل العلماء بهذه الآية على صحة ذبح البقر ونحرها (صح) .

٢٤. استدل بهذه القصة على مذهب مالك بأن قول الجريح : فلان قتلني يعتبر لوثاً (صح)

٢٥. اللوث هو اتهام البعض بالقتل من غير بينة ولا مبرر (خطأ) .

٢٦. القسامة هي : أن يحلف أربعون رجلا من أولياء الدم على القاتل فيستحقون دمهم أو يحلف لهم مثلهم من الطرف الآخر أنهم لم يقتلوا صاحبهم فيكون براءة لهم (صح) .

٢٧. قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تثنية التقريع (صح) .

٢٨. شرط الله لإحياء هذا القتيل هذه الشروط ولو يحيه ابتداء لحكم كثيرة جداً ، منها بركة بر الوالدين (صح) .

٢٩. في القصة دليل على أن الزيادة في الخطاب نسخ له وأن النسخ قبل الفعل جائز (صح)

٣٠. في القصة دليل على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وأن الأسباب وحدها لا قدرة لها على ذلك إذ لا سبب بين إحياء القتيل وبين ضربه بجزء من البقرة (صح) .

المحاضرة الثالثة والثلاثون

***

تفسير الآيتين (٧٤) :و(٧٥) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.}

قراءات:

قرأ ابن كثير{ :يَعْمَلُونَ- }بالياء التحتانية- ضمًا إلى ما بعده من قوله سبحانه{ :أَنْ يُؤْمِنُوا}، و{يَسْمَعُونَ} ، و{فَرِيقٌ مِنْهُمْ .}

وقرأ الباقون: بالتاء الفوقانية لمناسبة{ :وَإِذْ قَتَلْتُمْ} ، و{ادَّارَأْتُمْ}، و{تَكْتُمُونَ }إلخ.

المناسبة:

لا زال الحديث متصلاً مع بني إسرائيل، وذكْر فضائحهم من بعد تعداد النِّعم عليهم .والآية الأولى مُكملة لقصّة القتيل -على قول من أقوال المفسرين-، ومرتبطة بها وبما سبقها من آيات -على القول الآخر.-

لغويّات.

التَّفَجُّر :التَّفَتُّح بالسّعة والكثرة، وانفجر الماء والدم ونحوهما مِن: السَّيَال، وتَفَجَّر: انبعث سائلاً.

والتَّشَقُّق :التَّصَدُّع بطول أو بعرض، والشَّقُ: الصَّدْع في عود، أو حائط، أو زجاجة، أو غير ذلك...

والخَشْيَة :الخوف. خشِي الرجل يَخْشَى خشية، أي: خاف.

{أَفَتَطْمَعُونَ :}الاستفهام للاستبعاد، أو للإنكار التوبيخي. والطمع: تعلّق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قوياً؛ وهو أشدّ من الرجاء، لا يحدث إلاّ عن قوة رغبة، وشدّة إرادة.

{يَهْبِطُ :}يَتَرَدَّى من أعلى الجبل، مِن: هَبَطَ يَهْبِط؛ كنَزَل يَنْزِل. والهُبُوط :النُّزُول والانْحِدَار.

الآثار.

روى الترمذي، وابن مردويه، وغيرهما، عن ابن عمر: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: قال)) :لا تُكثروا الكلام بغير ذكْر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإنّ أبعد الناس من الله القلب القاسي .((

قال الترمذي: غريب. وفي بعض النسخ: حسن غريب.

وروى البزار عن أنس، مرفوعاً)) :أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا.((

وعن ابن عباس: لما ضُرب المقتول ببعض البقرة، جلس أحْيا ما كان قط، فقيل له: مَن قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني. ثم قُبض. فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه. فكذّبوا بالحق بعد أن رأوه. فقال الله{ :ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، يعني: أبناء أخي الشيخ.

عن قتادة، في قوله{ :ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، قال :مِن بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى، ومِن بعد ما أراهم من أمْر القتيل{ .فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}، ثم عذر الله الحجارة ولم يَعذر شَقِيَّ ابن آدم، فقال{ :وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.}

وعن ابن عباس{ :وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ }...الآية، أي: وإن من الحجارة لألْين من قلوبكم لِمَا تُدعَوْن إليه من الحق.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}، قال: إن الحجر ليقع على الأرض، ولو اجتمع عليه كثير من الناس ما استطاعوه، وإنه ليهبط من خشية الله.

وعن مجاهد، أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردّى من رأس جبل، لَمِن خشية الله؛ نزَل بذلك القرآن .

وعن يحيي بن أبي طالب، يعني: يحيى بن يعقوب، في قوله تعالى{ :وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ}، قال: كثرة البكاء{ .وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ}، قال : قليل البكاء{ .وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}، قال :بكاء القلب من غير دموع العيْن .

وعن ابن عباس، أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وسلم–، ولِمَن معه من المؤمنين، يؤيّسهم منهم{ :أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ .}وليس قوله{ :يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ :}سمعوا التوراة –كلهم قد سمعها–، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم، فأخذتهم الصاعقة فيها.

وعن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلْم فيما حدثه: أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلّمك. فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى، فقال: نعم، مُرهم فلْيتطهّروا، وليطهّروا ثيابهم، ويصوموا. ففعلوا. ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيَهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، (فوقعوا سجوداً). وكلّمه ربه تعالى، فلما سمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عقلوا عنه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاءوهم حَرَّفَ فريق منهم ما أمرهم به) .وقالوا –حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله–: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله –عز وجل– لهم)؛ فهم الذين عَنَى الله لرسوله –صلى الله عليه وسلم .–

وقال السدي{ :وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}، قال: هي التوراة، حرّفوها .

وعن قتادة، في قوله{ :ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، قال: هم اليهود، كانوا يسمعون كلام الله، ثم يحرّفونه من بعْد ما عقلوه ووعوْه .

عن مجاهد، في قوله{ :أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ }...الآية، قال: فالذين يحرّفونه، والذين يكتبونه، هم: العلماء منهم. والذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم: هؤلاء كلّهم يهود .

وقال أبو العالية: "عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم مِن نعْت محمد –صلى الله عليه وسلم– فحرّفوه عن مواضعه."

وقال السدي{" :وَهُمْ يَعْلَمُونَ :}أي: أنهم أذنبوا ."

وعن ابن زيد في قوله{ :يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}، قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم،

يحرّفونها؛ يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً. إذا جاءهم المحقّ برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محقّ. وإن جاء أحد يسألهم) شيئاً) ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم{ :أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ.}

أقوال المفسّرين.

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى{ :ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ }التي لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال{ :أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.}

{فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً :}فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة، بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات؛ فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج لِلِينها، أو أشد قسوة من الحجارة. فإن من الحجارة ما يتفجّر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشّقّق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله؛ وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال{ :تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .}

قال الزمخشري: "فإن قلتَ: لِمَ قيل{ :أَشَدُّ قَسْوَة}، وفعل القسوة ممّا يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟

قلتُ: لكونه أبْين وأدلّ على فرط القسوة. ووجه آخر، وهو: أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصَد وصْف القسوة بالشدّة، كأنه قيل: اشتدّت قسوة الحجارة وقلوبهم أشدّ قسوة."

وقوله{ :وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ}، أي :كالعيون السارحة المشاهدة، تخرج من الأحجار عياناً{ .وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ}، كحجر موسى الذي كان إذا ضربه نبع منه اثنتا عشرة عيناً، بإذن الله في ذلك{ .وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}،

أي: من رؤوس شواهق الجبال؛ وهذا كقوله –صلى الله عليه وسلم)) :–أُحُد جبل يُحبُّنا ونُحبُّه.((

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ :}وعيد على ما ذُكر، كأنه قيل: إنّ الله تعالى لبالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم، حافِظ لأعمالهم، مُحْصٍ لها؛ فهو مجازيهم بها في الدنيا والآخرة.

قال الآلوسي: "و{ثُمَّ }لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها. وقيل: إنها للتراخي في الزمان، لأنهم قست قلوبهم بعد مدة، حين قالوا: إنّ الميت كذب عليهم، أو أنه عبارة عن قسوة عقِبهم."

والضمير في{ :قُلُوبُكُمْ }لورَثة القتيل، عند ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–، وعند أبي العالية وغيره: لبني إسرائيل{ .مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، أي: إحياء القتيل. وقيل: كلامه. وقيل: ما سبق من الآيات التي علموها، كمسخهم قِرَدة وخنازير، ورفع الجبل، وانْبِجَاس الماء، والإحياء؛ وإلى ذلك ذهب الزجاج. وعليه، تكون{ :ثُمَّ قَسَتْ }...إلخ عطفاً على مضمون جميع القصص السابقة والآيات المذكورة. وعلى سابقه، تكون عطفاً على قصة{ :وَإِذْ قَتَلْتُمْ}،{ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ}، أي: في القسوة وعدم التأثر.

وقال أبو علي الجُبّائي في تفسيره{ :وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ" :}هو: سقوط البرَد من السحاب ."

قال القاضي الباقلاني: "وهذا تأويل بعيد"، وتبعه في استبعاده: الرازي. وهو كما قال، فإن هذا خروج عن اللفظ بلا دليل –والله أعلم ."–

تنبيه :

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى{ :فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}، بعد الإجماع على استحالة كونها للشك .

فقال بعضهم{ :أَوْ }ها هنا بمعنى: الواو، تقديره :فهي كَالْحِجَارَةِ وأَشَدُّ قَسْوَةً، كقوله تعالى : {وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً}، وكقوله{ :عُذْراً أَوْ نُذْراً.}

وكما قال النابغة الذبياني:

قالت ألا لَيْتَمَا هذا الحمامُ لنا	إلى حمامتنا أو نصفُه فَقَدِ

تريد: ونصْفه؛ قاله ابن جرير .

وقال جرير بن عطية:

نال الخلافة أو كانت له قَدَراً	كما أتى ربَّه موسى على قدَرِ

قال ابن جرير" :يعني :نال الخلافة وكانت له قدَراً ."

وحكى القرطبي قولاً: أنها للتخيير، أي: مثلاً لهذا أو هذا.

وهذا مثل: جالسِ الحسن أو ابن سيرين .

وكذا حكاه الرازي في تفسيره، وزاد قولاً آخر: إنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطَب، كقول القائل: أكلتُ خبزاً أو تمراً، وهو يعلم أيهما أكل.

وكما قال أبو الأسود :

أحب محمداً حباً شديداً	وعباساً وحمزةَ والوَصيَّا
فإن يك حبُّهم رَشَداً أُصِبْه	ولستُ بمخطئ إن كان غَيّا

وقال ابن جرير: "قالوا: ولا شك أنّ أبا الأسود لم يكن شاكاً في أنّ حب مَن سمّى رشد، ولكنه أبهم على مَن خاطبَه. قال: وقد ذُكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله! ثم انتزع بقول الله تعالى{ :وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ . }فقال: أوَ كان شاكاً مَن أخبر بهذا في الهادي منهم من الضال؟."

وقال آخرون: أو ها هنا بمعنى: بل، فتقديره: فهي كالحجارة، بل أشد قسوة .وكقوله{ :إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}،{ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}،{ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .}

وقال آخرون معنى ذلك{ :فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً }عندكم، حكاه ابن جرير .

وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذيْن المثليْن: إمّا أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة .

قيل: إنها بمعنى قول القائل: كُل حلواً أو حامضاً. أي :لا يخرج عن واحد منهما. أي: وقلوبكم صارت كالحجارة، أو أشدّ قسوة منها، لا تخرج عن واحد من هذيْن الشيئيْن –والله أعلم .-

قال ابن جرير: "ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشدّ قسوة

من الحجارة ."

وقد رجّحه ابن جرير مع توجيه غيره .

قال ابن كثير: "وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى{ :مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً }مع قوله{ :أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ}، وكقوله{ :وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ } مع قوله{ :أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ }...الآية، أي: إنّ منهم مَن هو هكذا، ومنهم من هو هكذا –والله أعلم ."–

ثم يقول تعالى{ :أَفَتَطْمَعُونَ }أيها المؤمنون،{ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}، أي: ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البيّنات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك{ .وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ }يتأوّلونه على غير تأويله{ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ}، أي : فهموه على الجليّة، ومع هذا يخالفونه على بصيرة،{ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه مِن تحريفه وتأويله .

وهذا المقام شبيه بقوله{ :فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ .}

وقال الآلوسي{" :أَفَتَطْمَعُونَ :}الخطاب لرسول الله– صلى الله عليه وسلم –والمؤمنين، أو للمؤمنين؛ قاله أبو العالية، وقتادة، أو للأنصار؛ قاله النقاش. والمروي عن ابن عباس، ومقاتل :أنه لرسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– خاصّة، والجمْع للتعظيم{ .أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}، أي: يصدِّقوا مستجيبين لكم– فالإيمان بالمعنى اللّغوي والتّعدية باللام للتّضمين، كما في قوله تعالى{ :فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ–}، لأجل دعوتكم لهم .

وضمير الغيْبة لليهود المعاصرين له –صلى الله عليه وسلم–، لأنهم المطموع في إيمانهم{ .وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ}، أي: طائفة من أسلافهم، وهم :الأحبار،{ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}، أي: يسمعون التوراة ويؤولونها تأويلاً فاسداً حَسْب أغراضهم."

قال ابن كثير: والذي ذكره السدي أعمّ ممّا ذكره ابن عباس وابن إسحاق –وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق–، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه، كما سمعه الكليم موسى بن عمران –عليه الصلاة والسلام–، وقد قال الله تعالى{ :وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ}، أي :مبلِّغاً إليه.

قال الآلوسي: "والجمهور على أنّ تحريفهم بتبديل كلام الله من تلقائهم كما فعلوا ذلك في نعته -صلى الله تعالى عليه وسلم-، فإنه رُوِي أنّ من صفاته فيها: أنه أبيض ربعة، فغيّروه بأسمر طويل، وغيروا آية الرجم بالتَّسْخِيم وتَسْوِيد الوجه كما في البخاري.

وقيل: المراد بكلام الله تعالى: ما سمعوه على الطور؛ فيكون المراد من الفريق: طائفة من أولئك السبعين ."

وقد روى الكلبي: أنهم سألوا موسى -عليه السلام- أن يُسمعهم كلامه تعالى، فقال لهم: اغتسلوا والبسوا الثياب النظيفة. ففعلوا، فأسمعهم الله تعالى كلامه. ثم قالوا: سمعنا يقول في آخر: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا. والتحريف على هذا: الزيادة.

ومقتضى هذه الرواية: أنّ هؤلاء سمعوا كلامه تعالى بلا واسطة كما سمعه موسى -عليه السلام-، والمصحَّحُ: أنهم لم يسمعوا بغير واسطة، وأن ذلك مخصوص به -عليه السلام.-

وقيل: المراد به: الوحي المنزَل على نبينا -صلى الله تعالى عليه وسلم-؛ كان جماعة من اليهود يسمعونه فيحرفونه قصداً أن يُدخلوا في الدِّين ما ليس منه، ويحصل التضاد في أحكامه ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره .

{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، متعلّق العلم محذوف، أي: إنهم مبطلون كاذبون، أو ما في تحريفه من العقاب؛ وذلك كمال مذمّتهم. وبهذا التقرير يندفع توهّم تكرار ما ذُكر بعد ما عقلوه .

وحاصل الآية: استبعاد الطمع في أن يقع من هؤلاء السفلة إيمان، وقد كان أحبارهم ومُقَدَّموهم على هذه الحالة الشنعاء. ولا شك أنّ هؤلاء أسوأ خُلُقاً وأقل تمييزاً من أسلافهم، أو استبعاداً للطمع في إيمان هؤلاء الكفرة المحرِّفين وأسلافهم الذين كانوا زمن نبيّهم فعلوا ذلك، فلهم فيه سابقة؛ وبهذا يندفع ما عسى أن يختلج في الصدر من أنه كيف يلزم من إقدام بعضهم على التحريف حصول اليأس من إيمان باقيهم؟

المعنى الإجمالي.

يبين الله تعالى حالاً مِن أحوال بني إسرائيل السيئة، حيث غلبت القسوة وعدم الخوف من الله والتأثر بالمواعظ على قلوبهم، بعد ما رأوا من الآيات الباهرات، ومنها: إحياء هذا القتيل حتى

شهد على قاتله؛ فغدت قلوبهم في قسوتها مثل قسوة الأحجار وصلابتها، بل فاقت ذلك، لأن الحجارة على قساوتها تتفجّر بالماء الرقيق الذي يؤثر فيها تأثيراً بليغاً فيخرج من خلال صُدوعها أنهاراً، ومنها ما يتأثر تأثيراً أقل فيشقق الماء فيه شقوقاً صغيرة يخرج من خلالها، ومنها ما ينفصل عن بعضه فيتساقط من أماكنه العالية خشية من الله تعالى .

وهذه أمثلة لِما كان ينبغي أن تكون عليه قلوبهم مع المواعظ والآيات لو كانت حجارة، فأين قلوبهم من هذا التأثر؟! والله لا يغيب عنه أعمالهم السيئة هذه، وليس بغافل عنها.

ثم أنكر سبحانه على المؤمنين طمعهم في أن يصدِّقهم هؤلاء اليهود، ويُذعنوا لهم فيتبعوا دينهم وأسلافهم، بعد كل ما رأوه من آيات بينات لم ينتفعوا بها، حتى إنّ فريقاً منهم، وهم مَن ذهب لميقات موسى مع ربه قد سمع بنفسه كلام الله لموسى –عليه السلام– عند الطور، ثم لما عادوا لقومهم حرّفوا هذا الكلام، فزادوا فيه ما ليس منه مِن بعد ما وَعَوْه وضبطوا ألفاظه؛ فكان تحريفهم على علْم منهم بأنهم كَذَبة عصاة مفترون، ومع ذلك فعلوه.

مسائل الآيات.

الأولى:

المقصود بـ{كَلاَمَ اللهِ }هنا –كما ذكر المفسرون من السلف–: إمّا كلام الله لموسى –عليه السلام–، وإمّا المراد :التوراة.

والذي يظهر: أن القول الصواب هو: ما صح عن ابن عباس: أنّ المراد: كلام الله لموسى–عليه السلام–، وذلك لأمور، منها:

أولاً :أنهم جميعاً مُحرِّفون للتوراة: علماؤهم وعوامّهم.

ثانيًا :أن الأصل: حمل الكلام على ظاهره، وظاهر النص أنهم سمعوا كلام الله لموسى أي تكليمه، كما قال الله لموسى –عليه السلام{ :–إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي.}

ثالثًا :أنّ وصف التوراة بأنها كلام الله يترتب عليه لوازم نحن في غنًى عنها، ومنها:

التسوية بينها وبين القرآن في الفضل، لأن كلاً منهما كلام الله.

القول بالإعجاز فيها، لأن كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين.

القول بأنها غير مخلوقة، وأنها صفة من صفات الله، بناء على الفتنة المشهورة في خلْق القرآن؛ فإن من أعظم حجج جمهور أهل العلْم: الاستدلال على أن القرآن غير مخلوق، لأن الله وصَفه بأنه كلامه؛ ولو سلّمنا بهذا القول في التوراة لسقط هذا الدليل برمّته.

التناقض بين الاعتقاد بأن الله إنما كتب التوراة بيده وأنزلت في الألواح على موسى، وبين الاعتقاد بأنه تكلّم بها حقيقة كما تكلّم بالقرآن.

تقوية شبهة الأشعري، وابن كلاب، ومن وافقهما في: أن كلام الله معنى قائم بذاته، إن عُبِّر عنه بالعربية صار قرآناً أو بالعبرانية صار توراة.

التوسع بإدخال الإنجيل والزبور كذلك، ولا يوجد دليل ولا شِبه دليل عليه.

التسوية بين اللغة العربية والسريانية أو العبرانية في الفضل، لأن الله تكلم بالجميع.

ولبحث المسألة مجال آخر أوسع من مجالنا الحالي.

يبقى إشكال، وهو: قول الآلوسي باختصاص موسى –عليه السلام– بالتكليم. وهذا يدفع بأن التكريم بالتكليم لا بمجرد السماع؛ فإن الله لم يكلّمهم وإنما أذن لهم في سماع كلامه لموسى –عليه السلام–، والفرق واضح. وكما هو معلوم أن الله تعالى وإن كان سوف يكلّم الكافرين في الآخرة في بعض المواقف، إلاّ أن العبرة بكون الكلام كلام تشريف لا كلام تعنيف وتبكيت، كما في قوله: قال{ :قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ }...الآيات؛ فليست الفضيلة في مجرّد السماع –والله أعلم.–

الثانية:

قال الزمخشري: "والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أُمرت به."

قال ابن كثير: وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله{ :يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ .}قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة، كما في قوله تعالى{ :إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا}، وقال : {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ }...الآية .وقال{ :وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}،{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ }...الآية،{ قَالَتَا أَتَيْنَا

طَائِعِينَ}،{ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ }...الآية،{ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ }...الآية. وفي الصحيح)) :هذا جبل يُحبُّنا ونُحبُّه((، وكحنين الجذع المتواتر خبره. وفي صحيح مسلم)) :إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن .((وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن اسْتَلَمَه بحقّ يوم القيامة، وغير ذلك ممّا في معناه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله الفَيْجِي أو الفَتْحِي، قال: سمعت أحمد بن عاصم الأنطاكي يقول: تكلمت بشيء مِن الحكمة بين يدي هذا العمود الحجر، فقطر العمود دماء.

قال: وخرجنا مرة نريد دير مُرّان، ومعنا جماعة، منهم رجل معه في كُمّه مِحْبرة، فتكلّم رجل منا بشيء من الحكمة، فصاحت المِحْبرة صياحاً عالياً وانفلقت.

قلت: ليت الحافظ ابن كثير لم يذكر مثل هذه الأخبار عن هذا المجهول، فقد كان في الصحيح الثابت غُنْية عنها .

وقال الآلوسي: "والخشية اختلف في المراد منها: فذهب قوم –وهو المروي عن مجاهد وغيره–: أنها هنا حقيقة، وهي مضافة إلى الاسم الكريم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: من خشية الحجارة الله .ويجوز أن يخلق الله تعالى العقل والحياة في الحجَر، واعتدال المزاج والبنية ليسا شرطًا في ذلك، خلافاً للمعتزلة. وظواهر الآيات ناطقة بذلك، وفي الصحيح)) :إني لأعرف حجراً كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعَث((، و))أنه –صلى الله تعالى عليه وسلم– بعد مبعثه ما مرّ بحجر ولا مدر إلا سلّم عليه .((وورد في الحجر الأسود: أنه يشهد لمن استلمه، وحديث تسبيح الحصى بكفّه الشريف –صلى الله عليه وسلم– مشهور.

وقيل: هي حقيقة، والإضافة هي الإضافة، إلاّ أن الفاعل محذوف، هو: العباد، والمعنى: أنّ من الحجارة ما ينزل بعضه عن بعض عند الزلزال من خشية عباد الله تعالى إياه .وتحقيقه: أنه لما كان المقصود منها خشية الله تعالى، صارت تلك الخشية كالعلة المؤثرة في ذلك الهبوط، فَيُؤَوَّل المعنى: أنه يهبط من أجل أن يحصل خشية العباد لله تعالى. وذهب أبو مسلم، إلى أن الخشية حقيقة، وأن الضمير في{ :مِنْهَا لما يهبط }عائد على القلوب. والمعنى: أن مِن القلوب قلوباً تطمئن وتسكن وترجع إلى الله تعالى، وهي قلوب المخلصين، فَكَنَّى عن ذلك

بالهبوط. وقيل :إنها حقيقة، إلاّ أن إضافتها من إضافة المصدر إلى الفاعل، والمراد بالحجر: البرَد، وبخشيته تعالى: إخافته عباده بإنزاله. وهذا القول أبرد مِن الثلج، وما قبله أكثف من الحجَر، وما قبلهما بَيْن بَيْنَ."

قلت: ما أجمل تفسير السلف ومنهجهم ومذهبهم! وما أسلسه وأسهله وأوضحه وأظهره! وما أفلج حجّته! وبالله التوفيق.

الأسئلة :

١. قرأ الجمهور (يعملون) بالياء التحتانية ضماً إلى ما بعده من قوله سبحانه أن يؤمنوا ويسمعون وفريق منهم . وقرأ عاصم بالتاء الفوقانية لمناسبة وإذ قتلتم وادارأتم وتكتمون إلخ (خطأ) .

٢. التفجر : التفتح بالسعة والكثرة (صح) .

٣. التشقق : التكسر والتفتت من طول أو عرض (خطأ) .

٤. الطمع : تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قوياً وهو أقل من الرجاء رتبة لأن الرجاء لا يحدث إلا عن قوة رغبة وشدة إرادة والطمع أدنى منه (خطأ) .

٥. الهمزة في (أفتطمعون) للتقرير (خطأ) .

٦. في الصحيحين : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي » (خطأ) .

٧. في الآية بيان لقساوة قلوب بني إسرائيل حيث أنهم وبعد أن رأوا الآية العظيمة في إحياء القتيل ما زالت على قسوتها (صح) .

٨. وعن مجاهد انه كان يقول :كل حجر يتفجر منه الماء ، أو يتشقق عن ماء ، أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن (صح) .

٩. قوله (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) تيئيس للمؤمنين من إيمانهم (صح) .

١٠. فريق منهم : وهم علماؤهم وأحبارهم (صح) .

١١. المقصود بكلام الله القرآن الذي يسمعونه ولا يؤمنون به (خطأ) .

١٢. قوله (من بعد ما عقلوه) أي فهموه وعلموا أنه حق من عند الله (صح) .

١٣. الآيات فيها بيان أن الحجارة لها إحساس وإدراك بحسبها (صح) .

١٤. قال (أشد قسوة) ولم يقل (أقسى) لأن أفعل التفعيل (أقسى) لا تطلق إلا على العاقل المكلف (خطأ) .

١٥. قال (أشد قسوة) ولم يقل (أقسى) لأنه لا يقصد معنى القسوة وإنما قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة (صح) .

١٦. قوله (ثم قست قلوبهم) بحرف الفاء دليل على أن قسوة قلوبهم كانت بعد فترة من رؤيتهم الآيات (صح) .

١٧. قوله (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد ووعيد لهم (صح) .

١٨. قال أبو علي الجُبّائي في تفسيره : وإن منها لما يهبط من خشية الله هو سقوط البرد من السحاب ، وهو تفسير له وجه قوي يؤيده قوله تعالى : (ينزل من السماء من جبال فيها من برد) وقد قواه الرازي وغيره (خطأ) .

١٩. أو في قوله (أو أشد قسوة) بمعنى الواو بمعنى : كالحجارة وأشد قسوة (صح) .

٢٠. أو في قوله (أو أشد قسوة) للإبهام بالنسبة للمخاطَب (صح) .

٢١. أو في قوله (أو أشد قسوة) بمعنى : بل (صح) .

٢٢. أو في قوله (أو أشد قسوة) بمعنى قول القائل كل حلوا أو حامضا . أي : لا يخرج عن واحد منهما (صح) .

٢٣. أو في قوله (أو أشد قسوة) للشك (خطأ) .

٢٤. اختلف المفسرون في المراد بكلام الله هل و كلام الله لموسى أو التوراة ، والثاني هو الأصح والأرجح (خطأ) .

٢٥. في الآية دليل على أن الجمادات لها شعور وإرادة (صح) .

٢٦. ذكر كثير من المفسرين أن بعض بني إسرائيل سمع كلام الله مع موسى عليه السلام وأنهم المقصودون بهذه الآية ، وهذا القول ضعيف لأنه على فرض صحته لا يكون التكليم خصوصية لموسى عليه السلام (خطأ) .

٢٧. اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الجماد مخلوق من مخلوقات الله يجعل الله له شعوراً وإرادة ومحبة وغير ذلك ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً (صح) .

٢٨. الآية فيها دليل على سبب غضب الله على بني إسرائيل وهو أنهم كانوا يحرفون الحق قصداً وهم يعلمون أنهم مذنبون (صح) .

٢٩. وهم يعلمون متعلق العلم محذوف أي إنهم مبطلون كاذبون أو ما في تحريفه من العقاب وذلك كمال مذمتهم وبهذا التقرير يندفع توهم تكرار ما ذكر بعد ما عقلوه (صح) .

٣٠. التعبير باللام في قوله (يؤمنوا لكم) لتضمنها معنى الاستجابة (صح) .

المحاضرة الرابعة والثلاثون

***

تفسير الآيات من (٧٦) إلى (٧٩) من سورة (البقرة) .

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.}

القراءات:

لا يوجد أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

ما زال الحديث في سرد مخازي اليهود، وأنواع فُسَّاقِهِم وفُجَّارِهِم؛ وقد ذكر في الآيات العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلْم والاستيقان، ثم العوام الذين قلّدوهم، ونبّه على أنهم في الضلال سواء، لأن العالِمِ عليه أن يعمل بعلْمه، وعلى العامّيِّ أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكّن من العلْم.

لغويّات.

الأمّيّون :جمْع: أُمِّي، وهو: مَن لا يكتب ولا يقرأ، منسوب إلى أُمَّة العرب، الذين كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون، أو إلى الأمّ، بمعنى أنه كما ولدتْه أمّه، أو إلى أمِّ القرى، لأن أهلها لا يكتبون غالباً. والمراد أنهم جهلة.

و{الْكِتَابَ :}التوراة، كما يقتضيه سياق النّظم وسباقه؛ فاللام فيه إمّا للعهد، أو أنه من الأعلام الغالبة. وجعْله مصدر: كَتَبَ كِتَاباً، واللام للجنس، بعيد .

{أَمَانِيَّ :}جمْع: أُمْنِيَة. وأصلها: أُمْنونَة" أُفْعُولَة"، وهو في الأصل: ما يُقَدِّرُه الإنسان في نفسه. والاشتقاق مِن :مَنَى إذا قَدَّر، لأن المتَمَنِّي يُقَدِّر في نفسه ويحذر ما يتمنّاه، وكذلك المختلِق والقارئ يقدّر أن كلمة كذا بعد كذا؛ ولذلك تُطلق على الكذب، وعلى ما يُتَمنَّى، وما يُقْرأ.

الويل: الهلاك، والدمار. وهي كلمة مشهورة في اللغة.

وهي مصدر لا فعْل له مِن لفْظه، وما ذُكِرَ مِنْ قَوْلِهِم: وَالَ مصنوع. ولا يُثَنَّى ولا يجمع، ويقال: "وَيْلَة"، ويُجمع على: "وَيْلات". وإذا أُضِيف فالأحسن فيه النصب، ولا يجوز غيره عند بعض. وإذا أفردته اختير الرفع. ومعناه: الفضيحة والحسرة. وقال الخليل بن أحمد: "الوَيْل: شدة الشر". وقال سيبويه: "ويل: لمن وقع في الهلكة، وَوَيْح: لمن أشرف عليها". وقال الأصمعي: "الويل: تَفَجُّع، والويح: تَرَحُّم". وقال غيره: الوَيْل: الحزن. وقال الخليل: "وفي معنى وَيْل: وَيْح، وَوَيْس، وَوَيْه، وَوَيْك، وَوَيْب. ومنهم مَن فرّق بينها".

وقيل: هي كلمة تفجّع، وقد تكون تَرَحُّماً، ومنه قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((وَيْلَ أُمِّه! مُسَعِّر حرب!)).

وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها، وهي نكرة، لأنّ فيها معنى الدّعاء.

ومنهم مَن جوّز نصبها بمعنى: ألزمهم وَيْلاً. لكن لم يقرأ بذلك أحد.

الآثار.

عن ابن عباس{ :وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا}، أي: بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة{ .وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا :}لا تُحدِّثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم؛ فأنزل الله{ :وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}، أي: تُقرّون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق (عليكم) باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر، ونجد في كتابنا. اجْحدوه ولا تُقرّوا به! يقول الله تعالى{ :أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.}

وعن ابن عباس في قوله{ :وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا }...الآية، يعني: المنافقين من اليهود. كانوا

إذا لقوا أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- قالوا{ :آمَنَّا .}وقوله{ :بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }يعني :بما أكرمكم به .

وقال السدي: "هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ."

وكذا قال الربيع بن أنس، وغير واحد من السلف والخلف .

وعن قتادة، في قوله{ :وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا}، قال: هم اليهود، وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا :آمنا، فصانعوهم بذلك ليَرْضَوا عنهم{ .وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ }نهى بعضهم بعضاً أن يحدثوا بما فتح الله عليهم، وبيّن لهم في كتابه مِن أمْر محمد -عليه السلام- رفْعته ونبوّته، وقالوا: إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا عليكم بذلك عند ربكم، أفلا تعقلون؟ {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}، قال: ما يعلنون مِن أمْرهم وكلامهم إذا لقوا الذين آمنوا، وما يسرّون إذا خلا بعضهم إلى بعض مِن كفْرهم بمحمد- صلى الله عليه وسلم- وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم.

وروى ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد قال)) :لا يَدْخلنَّ علينا قصبةَ المدينة إلاّ مؤمنٌ .((فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق :اذهبوا، فقولوا{ :آمَنَّا}، واكفروا إذا رجعتم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبُكَر، ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى{ :وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .}وكانوا يقولون -إذا دخلوا المدينة-: نحن مسلمون، ليعلموا خبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمْره، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر .فلما أخبر الله نبيّه -صلى الله عليه وسلم-، قطع ذلك عنهم، فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون، فيقولون :أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم -(يعني الرؤساء)- قالوا{ :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }...الآية .

وقال أبو العالية{ :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}، يعني: بما أنزل عليكم في كتابكم مِن نعْت محمد -صلى الله عليه وسلم .-

وعن قتادة{ :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}، قال: كانوا يقولون: سيكون نبي. فخلا بعضهم ببعض، فقالوا{ :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .}

قول آخر في المراد بالفتح:

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله تعالى{:أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}، قال)) :قام النبي- صلى الله عليه وسلم- يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت((!، فقالوا: مَن أخبر هذا الأمرَ محمداً؟ ما خرج هذا القول إلاّ منكم{ .أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }بما حكم الله للفتح، ليكون لهم حجّة عليكم .

وعن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم علياً، فآذوْا محمداً –صلى الله عليه وسلم.-

وقال السدي{" :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }مِن العذاب،{ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ .} هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بما عُذِّبُوا به؛ فقال بعضهم لبعض{ :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }من العذاب، ليقولوا: نحن أحبّ إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم؟."

وقال عطاء الخراساني{" :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }يعني: بما قضى لكم وعليكم."

وقال الحسن البصري: "هؤلاء اليهود، كانوا إذا{ لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}، قال بعضهم: لا تحدِّثوا أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم{ –بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }ممّا في كتابكم{ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ }فيَخْصِمُونكم."

وقوله{ :أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}، قال أبو العالية: يعني ما أسرّوا من كفرهم بمحمد –صلى الله عليه وسلم- وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

وكذا قال قتادة.

وقال الحسن{" :أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ}، قال: كانوا ما أسرّوا أنهم كانوا إذا تولّوا عن أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم-، وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد- صلى الله عليه وسلم –بما فتح الله عليهم ممّا في كتابهم، خشية أن يحاجّهم أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم- بما في كتابهم عند ربهم{ .وَمَا يُعْلِنُونَ }يعني: حين قالوا لأصحاب محمد- صلى الله عليه وسلم{ :-آمَنَّا ."}

وكذا قال أبو العالية ، والربيع، وقتادة .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة: أنّ امرأة من اليهود أصابت فاحشة، فجاؤوا إلى النبي –

صلى الله عليه وسلم- يبتغون منه الحُكم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم –عالِمهم وهو: ابن صوريا، فقال له)) :احْكُم .((قال :جَبِّئُوه. والتَّجْبِئَة :يحملونه على حمار ويجعلونه على وجهه إلى ذنب الحمار .فقال له رسول الله –صلى الله عليه وسلم :-))أبِحُكم الله حكمْتَ؟ .((قال: لا. ولكن نساءنا كن حساناً فأسرع فيهن رجالنا، فغيَّرنا الحُكم. وفيه أنزلت{ :وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ }...الآية .

و عن أبي العالية، في قوله{ :أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ}، يعني: مِن كفرهم بمحمد وتكذيبهم به،{ وَمَا يُعْلِنُونَ }حين قالوا للمؤمنين{ :آمَنَّا.}

عن ابن عباس، في قوله{ :وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}، قال :الأمِّيّون: قوم لم يصدِّقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتابًا أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند الله. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سمّاهم أمِّيّين لجحودهم كتُب الله ورسُله .

قال ابن كثير، بعد أن ذكره بإسناده: في صحة هذا عن ابن عباس بهذا الإسناد نظَر –والله أعلم .-

قلت: وهو كما قال، فإن إسناده ضعيف.

وعن إبراهيم النخعي، في قوله{:وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ}، قال: منهم من لا يحسن أن يكتب .

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة، وغير واحد نحو ذلك...

وعن ابن عباس{ :لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ :}لا يدْرون ما فيه،{ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ } وهم يجحدون نُبوَّتك بالظن .

وعن مجاهد{ :وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}، قال: أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلّمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانيّ يتمنّوْنها .

وعن الحسن البصري نحوه .

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة{ :إِلاَّ أَمَانِيَّ :}يتمنّوْن على الله ما ليس لهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم{ :إِلاَّ أَمَانِيَّ }قال :تمنَّوْا، فقالوا: نحن من أهل الكتاب. وليسوا منهم .

وعن ابن عباس{ :إِلاَّ أَمَانِيَّ :}إلاّ أحاديث .

وعن ابن عباس، في قوله{ :إِلاَّ أَمَانِيَّ }يقول: إلاّ قولاً، يقولون بأفواههم كذباً .

و عن مجاهد، في قوله{ :إِلاَّ أَمَانِيَّ }قال: إلاّ كذباً،{ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}، قال: إلاّ يكذبون.

وقال قتادة، وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحق .

وأخرج أحمد، وهناد بن السري بن الزهد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن أبي الدنيا في "صفة النار"، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم في "المستدرك" وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في" البعث"، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، قال)) :ويْل: واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبْل أن يَبلغ قعْره .((

وقال الترمذي: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلاّ من حديث ابن لهيعة ."

قال ابن كثير: "لم ينفرد به ابن لهيعة، ولكن الآفة ممّن بعْده. وهذا الحديث بهذا الإسناد، مرفوعاً، منكر- والله أعلم ."-

قلت: يعني بذلك دَرَّاجاً أبا السمح، فإن روايته عن أبي الهيثم مناكير.

وروى ابن جرير عن عثمان بن عفان، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم{ :-فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}، قال)) :الوَيْل: جبل في النار. وهو الذي أُنْزل في اليهود، لأنهم حرّفوا التوراة: زادوا فيها ما أحبوا، ومَحَوْا منها ما يكرهون، ومَحَوا اسم محمد -صلى الله عليه وسلم- من التوراة؛ ولذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التوراة، فقال : {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.((}

قال ابن كثير: وهذا غريب أيضاً جداً .

وأخرج البزار، وابن مردويه، عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :-إنّ في النار حجَراً، يقال لها: ويل؛ يصعد عليه العُرفاء وينزلون فيه.((

وأخرج الحربي في "فوائده"، عن عائشة، قالت: قال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم :-))وَيْحَك يا عائشة! فجزعت منها .فقال لي: يا حُمَيْراء، إنّ "وَيْحَك" أو "وَيْك" رحمة؛ فلا تجزعي منها، ولكن اجزعي من الوَيْل.((

وهذان أيضًا لا يصحّان.

وقال أبو عياض: "ويل: صديد في أصل جهنم ."

وقال عطاء بن يسار: "الويل: واد في جهنم، لو سيّرت فيه الجبال لماعت ."

وعن ابن عباس: الويل: المشقة من العذاب.

وعن ابن عباس{ :فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}، قال: هم أحبار اليهود .

وعن قتادة: هم اليهود .

وعن ابن عباس، عن قوله{ :فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}، قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب.

وقال السدي: "كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، فيأخذوا به ثمناً قليلاً."

وعن قتادة، في الآية، قال: كان ناس من بني إسرائيل كتبوا كتاباً بأيديهم ليتأكّلوا الناس، فقالوا: هذه من عند الله، وما هي من عند الله.

وعن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أَحدثُ أخبار الله تقرؤونه غضاً لم يُشَبْ؟ وقد حدثكم الله أنّ أهل الكتاب قد بَدَّلُوا كتاب الله وغيّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو{ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً .}أفلا ينهاكم ما جاءكم مِن العلْم عن مُساءلتهم؟ ولا والله، ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أُنزل إليكم .

وعن ابن عباس، في قوله{ :لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً}، قال: عرَضاً من عرَض الدنيا{ .فَوَيْلٌ لَهُمْ}، يقول: فالعذاب عليهم، مِن الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب{ .وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}، يقول: ممّا يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل :الدنيا بحذافيرها .

وعن إبراهيم النَّخعي: أنه كره كتابة المصاحف بالأجر، وتلا هذه الآية{ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ }...الآية.

وعن الأعمش: أنه كره أن يُكتب المصاحف بالأجر، وتأوّل هذه الآية{ :فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.}

أقوال المفسّرين.

قوله{ :لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}، أي:ليحتجّوا عليكم بما أنزل ربّكم في كتابه؛ جعلوا محاجّتهم به، وقولهم: هو في كتابكم هكذا، محاجّة عند الله. ألا تراك تقول: هو في كتاب الله هكذا، وهو عند الله هكذا، بمعنى واحد؟

قوله{ :أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ :}الاستفهام فيه للإنكار مع التقريع، لأن أهل الكتاب كانوا عالمين بإحاطة علْمه تعالى. والمقصود: بيان شناعة فعْلهم بأنهم يفعلون ما ذُكر، مع علْمهم أن الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون. وفيه إشارة إلى أنّ الآتي بالمعصية مع العلْم بكونها معصية، أعظم وزراً.

والظاهر: حمْل ما في الموضعيْن على العموم، ويدخل فيه الكفر الذي أسرّوه والإيمان الذي أعلنوه؛ واقتصر بعض المفسرين عليهما. وقيل: العداوة والصداقة. وقيل: صفته- صلى الله تعالى عليه وسلم- التي في التوراة المنزلة، والصفة التي أظهروها افتراء على الله تعالى. وقَدَّم سبحانه الإسرار على الإعلان، إمّا لأنّ مرتبة السِّرِّ متقدّمة على مرتبة العلن؛ إذ ما من شيء يُعلَن إلاّ وهو قبل ذلك مُضمر في القلب، يتعلق به الإسرار غالباً، فتعلّقُ علْمِه تعالى بحالته الأولى متقدِّم على تعلّقِه بحالته الثانية. وإمّا للإيذان بافتضاحهم، ووقوع ما يحذرونه مِن أوّل الأمر. قيل: وإمّا للمبالغة في بيان شمول علْمه المحيط بجميع الأشياء، كأنّ علْمه بما يُسرّون أقدم منه بما يعلنونه، مع كونهما في الحقيقة على السّويّة.

وعكس الأمر في قوله تعالى{ :وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ}، لأن الأصل فيما تتعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية.

يقول تعالى{ :وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}، أي: ومن أهل الكتاب .والأمِّيّون: جمْع أمِّيّ، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة. وهو ظاهر في قوله تعالى{ :لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ}، أي :لا يدرون ما فيه. ولهذا في صفات النبي –صلى الله عليه وسلم- أنه أمِّيّ، لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى{ :وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}، وقال –عليه الصلاة والسلام)) :-إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّة، لا نكتب ولا نحسب. الشهر هكذا وهكذا وهكذا ((...الحديث. أي: لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا

حساب. وقال تعالى{ :هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ .}

وقال ابن جرير: نسبت العرب مَن لا يكتب ولا يخطّ مِن الرّجال، إلى أمّه في جهله بالكتاب، دون أبيه .

ثم قال ابن جرير معقباً عما رواه عن ابن عباس، في معنى الأمِّيّين: وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يُعرف من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أنّ الأمّيّ عند العرب : الذي لا يكتب .

{إِلاَّ أَمَانِيَّ:}

قال ابن جرير: "والأشبه بالصواب: أنّ الأمِّيّين: الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرّصون الكذب ويتخرّصون الأباطيل كذباً وزوراً .

والتمني في هذا الموضع هو: تَخَلُّق الكذب وتَخَرُّصه، ومنه :الخبر المروي عن عثمان بن عفان –رضي الله عنه–: "ما تَغَنَّيْتُ ولا تَمَنَّيتُ منذ أسلمتُ"، يعني: ما تخرّصت الباطل، ولا اختلقت الكذب .

]وقيل المراد بقوله{ :إِلاَّ أَمَانِيَّ– }بالتشديد، والتخفيف أيضاً–. أي: إلاّ تلاوة؛ فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً. واستُشهد على ذلك بقوله تعالى{ :إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى) }أي: تلا ({أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ }...الآية .

وقال كعب بن مالك الشاعر:

تَمَنَّى كتابَ الله أول لَيْلِه	وآخرَه لاقى حِمَامَ المَقَادِرِ

وقال آخر :

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أول لَيْلِه	تمنِّيَ داود الزبورَ على رِسْلِ

وقال الآلوسي: "إلاّ أكاذيب أخذوها تقليداً من شياطينهم المحَرِّفِين. وقيل: إلاّ ما هم عليه من أمانيِّهم أنّ الله تعالى يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آبائهم الأنبياء يشفعون لهم. وقيل: إلاّ مواعيد مُجَرَّدَة سمعوها من أحبارهم مِن أنّ الجنة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً، وأن النار لا تمسهم إلاّ أيامًا معدودة؛ والاستثناء على ذلك منقطع، لأن ما هم عليه من الأباطيل أو سمعوه من الأكاذيب ليس من الكتاب ."

وقيل: إلاّ ما يقرؤون قراءة عادية عن معرفة المعنى وتدبّره؛ فالاستثناء حينئذ متّصل بحسب الظاهر. وقيل: منقطع أيضاً، إذ ليس ما يُتلى من جنس علْم الكتاب .

واعترض هذا الوجه بأنه لا يناسب تفسير "الأمّيّ". وأجيب بأن معناه: أنه لا يقرأ من الكتاب ولا يعلم الخط، وإمّا على سبيل الأخذ من الغير؛ فكثيراً ما يقرؤون من غير علْم بالمعاني ولا بصوَر الحروف، وفيه تكلّف، إذ لا يُقال للحافظ الأعمى: إنه أمّيّ. نعم إذا فُسّر "الأمّيّ" بمن لا يحسن الكتابة والقراءة على ما ذهب إليه جمْع، لا ينافي أن يكتب ويقرأ في الجملة. واستُدل على ذلك بما روى البخاري ومسلم)) :أنّ رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– يومَ صُلْح الحديبية، أخذ الكتاب وليس يحسن الكَتْبَ، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ((...إلخ. ومَن فسّر "الأمّيّ" بما تقدم، أوّل الحديث بأن كتب فيه بمعنى: أمر بالكتابة. وأطال بعض شُرّاح الحديث الكلام في هذا المقام، وليس هذا محلّه.

وقوله{ :فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً }...الآية .هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم: الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل .

وقوله{ :فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}، أي: فويل لهم ممّا كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء! وويل لهم ممّا أكلوا به مِن السّحت !

قال الآلوسي: "قيل: المراد بـ{مَا يَكْسِبُونَ :}جميع الأعمال السيئة، ليشمل القول؛ ولا يخفى بُعدُه، وعدم التعرض للقول لِما أنه من مبادئ ترويج ما كتبت أيديهم. والآية نزلت في أحبار اليهود الذين خافوا أن تذهب رياستهم بإبقاء صفة النبي –صلى الله تعالى عليه وسلم– على حالها، فغيّروها .وقيل: خاف ملوكهم على ملْكهم إذا آمن الناس، فرشوْهم، فحرّفوا.

قال: والقول بأنها نزلت في الذين لم يؤمنوا بنبيّ ولم يتّبعوا كتاباً، بل كتبوا بأيديهم كتاباً وحلّلوا فيه ما اختاروا وحرّموا ما اختاروا، وقالوا: هذا من عند الله، غير مرضي، كالقول بأنها نزلت في عبد الله بن السرح كاتِب النبي– صلى الله تعالى عليه وسلم–، كان يغيّر القرآن فارتدّ.

المعنى الإجمالي.

يُعدِّد تعالى أصنافاً مِن مُجرمي اليهود الذين لم ينتفعوا بالمواعظ ولم تخشع قلوبهم للآيات؛ فقد كان بعضهم إذا التقوْا بالمؤمنين قالوا لهم إنهم يؤمنون ببعثة النبي- صلى الله عليه وسلم-، ولكن للعرب خاصة، وذلك هروباً منهم من الانقياد له. وقد كانوا يستفتحون به على الذين كفروا -كما سيأتي بيانه-، فإذا خرجوا من عند المؤمنين وخلا بعضهم إلى بعض، قال بعضهم مستنكراً على مَن فعَل ذلك: كيف تحدِّثونهم بأنه رسول من عند الله، وأنّ لديكم علْمه في كتابكم لكنه ليس لكم؟ ثم هو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، فيحتجّون عليكم بذلك ويلزمونكم باتّباعه من كتاب ربكم. اجحدوه ولا تُقرّوا به إن كنتم تعقلون!

وقد رد الله عليهم بأنه يعلم ما يُخفونه في أنفسهم وما يدور بينهم سراً، كما يعلم كذِبهم فيما يُعلنونه للمؤمنين وأنهم يعلمون ذلك؛ فهذا أشد في جُرمهم.

وصِنف آخر إنما هم جهلة لا يعرفون كتابهم ولا يقرؤونه، وإنما يتحدثون تقليداً بالأكاذيب التي يتلقّفونها من أحبار السوء. ومن ذلك: أنه ليس في كتابهم صفته -صلى الله عليه وسلم-، فيجحدون نبوّته بالظن الكاذب.

ثم توعّد الله تعالى بالوعيد الشديد والعذاب الأكيد أعظم الأصناف جرماً، وهم: هؤلاء الأحبار الذين يزيّنون لهؤلاء جميعاً الباطل، فيكتبون لهم الكذب بأيديهم ثم ينسبونه للتوراة، ويقولون لهم: إنه من عند الله، لتبقى لهم رياستهم في الدنيا والأموال التي يجنونها من وراء ذلك. فسوف يلقون العذاب الأليم على ما كتبتْه أيديهم، فضلّوا وأضلّوا به، وعلى ما كسبوه من وراء ذلك من مُتَعٍ فانية وظل زائل.

من مسائل الآيات.

الأولى :

ما رُوي في تفسير: "ويل" بأنه واد في جهنم، تقدّم أنه لا يصح .وقد قال الآلوسي: "وورد من طُرق صححها الحفاظ عن رسول الله -صلى الله تعالى عليه وسلم- أنه قال)) :الويل: واد في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره .((وفي بعض الروايات: إنه

جبل فيها. وإطلاقه على ذلك، إما حقيقة شرعيّة، وإما مجاز لغويّ من إطلاق لفظ الحالِّ على المحلِّ، ولا يمكن أن يكون حقيقة لغوية، لأن العرب تكلّمت به في نظمها ونثرها قبل أن يجيء القرآن، ولم تُطْلقه على ذلك."

وقد توعّدهم الله تعالى في أوّل الآية بقوله{ :فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ}، ثم قال{ :فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ}، فقال بعضهم: التحقيق: أن العبد كما يُعاقب على نفْس فعْله، يعاقب على أثر فعْله لإفضائه إلى حرام آخر، وهو هنا يفضي إلى إضلال الغير وأكل الحرام.

فبيّن في الأولى: استحقاقهم العقاب بنفس الفعل، وفي الثانية: استحقاقهم له بأثره .

وقيل: فائدة ذكْر الويل ثلاث مرات: أنّ اليهود جَنَوْا ثلاث جنايات: تغيير صفة النبي –صلى الله تعال عليه وسلم–، والافتراء على الله تعالى، وأخذ الرشوة، فَهُدِّدُوا بكل جناية بالويل.

الثانية:

أَطْنَب السيوطي هنا في ذكْر الآثار الواردة في كراهة بيْع المصاحف وشرائها، عن جماعة من السلف، ثم أردف ذلك بذكْر مَن رخّص فيها. والذي يعنينا هنا: أنه لا دلالة في هذه الآية على شيء من ذلك، ولا تعلّق لها به. ومَن ذكَرها هنا مِن أهل العلْم لعله من باب الزجر والتخويف، لا من باب تفسير هذه الآية.

قال الآلوسي: ولا أرى في الآية دليلاً على المنع مِن أخْذ الأجرة على كتابة المصاحف، ولا على كراهية بيعها.

والأعمش تأوّل الآية واستدلّ بها على الكراهة.

وطرف المنصف أعمى عن ذلك .

نعم، ذهب إلى الكراهة جمْع، منهم: ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما–، وبه قال بعض الأئمة، لكن لا أظنهم يستدلّون بهذه الآية؛ وتمام البحث في محلّه.

الأسئلة :

١. قرأ نافع (فويلاً) بالنصب بمعنى ألزمهم ويلاً (خطأ) .

٢. الأميون جمع أمي ، وهو من لا يقرأ ولا يكتب ، منسوب إلى أمة العرب الذين كانوا لا يكتبون (صح) .

٣. الكتاب ؛ هو مجموعة من الحروف والكلمات في سياق واحد ، والمقصود به هنا ما يقرأ (خطأ) .

٤. الأماني جمع أمنية ، وهو ما يقدره الإنسان في نفسه وما يتمناه (صح) .

٥. الويل : شدة الهلاك والدمار ، وهي مصدر له فعل له من لفظه ، وجاز الابتداء بها وهي نكرة لأنها تتضمن معنى الدعاء (صح) .

٦. المراد بقوله (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) المنافقون من أهل المدينة إذا لقوا المؤمنين (خطأ) .

٧. (بما فتح الله عليكم) أي : بما أنزل في كتابكم من صفة محمد ﷺ (صح) .

٨. المراد بقوله (بما فتح الله عليكم) أي : من العذاب (صح) .

٩. المراد بقوله (بما فتح الله عليكم) : بما فتح الله عليهم مما في كتابهم ، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم (صح) .

١٠. عن ابن عباس ، في قوله : (ومنهم أميون) : قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ، ولا كتابا أنزله الله ، فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله . وقال : قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله . ذكره ابن كثير وصححه (خطأ) .

١١. قوله (إلا أماني) أي : يتمنون ما ليس فيهم (صح) .

١٢. عن مجاهد في قوله (إلا أماني) : إلا كذباً (صح) .

١٣. عن ابن عباس في قوله (إلا أماني) : إلا قولاً بأفواههم ومجرد أحاديث بغير فهم (صح)

١٤. في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : (ويل : واد في جهنم ، يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره) (خطأ) .

١٥. ورد في الويل أنه واد في جهنم ، أو جبل في جهنم ، أو صديد من أصل جهنم ، وكله من باب التمثيل لا التحديد (صح) .
١٦. الذين يكتبون الكتاب بأيديهم هم أحبار اليهود (صح) .
١٧. الذين يكتبون الكتاب بأيديهم : هم الذين كانوا يكتبون التوراة ويبيعوها لبني إسرائيل بالأجر (خطأ) .
١٨. أو لا يعلمون : استفهام تقريري لأن بني إسرائيل كانوا يعلمون ذلك (خطأ) .
١٩. الآيات فيها دليل على أن المعصية مع العلم أعظم إثماً من المعصية بغير علم (صح) .
٢٠. قدم الله ذكر ما يسرون على ما يعلنون لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلانية (صح) .
٢١. قدم الله ذكر ما يسرون على مت يعلنون إشارة إلى ما أسروه فهو عند الله كالعلانية ، وأن علمه شامل لكل شيء (صح) .
٢٢. المراد بقوله : (إلا أماني) بالتشديد ، والتخفيف أيضا . أي : إلا تلاوة ؛ فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعا ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى : (إلا إذا تمنى) (أي : تلا) (ألقى الشيطان في أمنيته) الآية (صح) .
٢٣. في معنى (إلا أماني) أقوال كثيرة كلها صحيحة داخلة في المعنى (صح) .
٢٤. المقصود بما كتبت أيديهم ما كانوا يحرفونه من التوراة خشية على ملكهم وزوال رياستهم (صح) .
٢٥. وقد ذكر في أسباب النزول أن الآية نزلت في عبد الله بن سرح وكان يكتب للنبي ﷺ ثم ارتد فكان يقول : أنا الذي كنت أكتب القرآن لمحمد ، ورجح هذا التفسير الطبري في تفسيره (خطأ) .
٢٦. الآيات نزلت في صنف من اليهود كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ ولكن يزعمون أنه للعرب فقط وليس لهم (صح) .
٢٧. في الآيات دليل على ذم التقليد والأخذ بقول الرؤساء والمشايخ من غير بينة ولا علم (صح) .

٢٨. قيل : فائدة ذكر الويل ثلاث مرات أن اليهود جنوا ثلاث جنايات تغيير صفة النبي صلى الله تعال عليه وسلم والافتراء على الله تعالى وأخذ الرشوة فهددوا بكل جناية بالويل (صح) .

٢٩. استدل بعض العلم بهذه الآية على كراهة بيع المصاحف وشرائها ، وهذا مما لا تعلق له بهذه الآية إلا من باب الزجر والتخويف (صح) .

٣٠. ذهب كثير من السلف منهم ابن عمر والأعمش إلى كراهة بيع المصحف وأخذ الأجرة على كتابته (صح) .

المحاضرة الخامسة والثلاثون

***

تفسير الآيات من (٨٠) إلى (٨٣) من سورة) البقرة.(

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ.}

قراءات:

قرأ نافع، وأبو جعفر{ :خَطِيئَاتِهِ- }على جمْع السلامة-، والباقون{ :خَطِيئَتُهُ }بالتوحيد، واستحسنوا قراءة الجمع بأنّ الإحاطة لا تكون بشيء واحد. ووجهت قراءة الإفراد بأن الخطيئة وإن كانت مفردة لكنها لإضافتها متعدِّدة، مع أن الشيء الواحد قد يُحيط كالحلقة، كما أن القول بتفسير الخطيئة بالشرك مُرجّح لقراءة التوحيد .

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، ويعقوب{ :لاَ تَعْبُدُونَ }بالتاء، حكاية لِما خوطبوا به، وليناسب{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ}، والباقون: بالياء{ :لاَ يَعْبُدُونَ}، لأنّ{ بَنِي إِسْرائيلَ }لفْظ غيْبة.

وقرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف{ :حَسَناً- }بفتحتيْن، صفة لمصدر محذوف-، أي: قولاً حَسَناً. وقرأ الباقون{ :حُسْناً- }بضم الحاء، وسكون السين-، وهو مصدر على وصْف القول به لإفراط حسنه .

المناسبة:

ما زال الحديث عن بني إسرائيل وفضائحهم. ولما ذكر تعالى تحريفهم وكذِبهم عليه سبحانه، وتوعَّدَهم بالويل المرة تلو الأخرى -وهو: العذاب في نار جهنم-، ذكَر فرْية وكذبة أخرى،

وهي: دعواهم أنّ مكثهم في هذه النار أياماً معدودة، ثم بيّن جزاءهم الحقيقي على كفْرهم وجزاء المؤمنين الصادقين، وأتبع ذلك بجُرم آخر لهم، وهو نقضهم ميثاقه الذي أخذه عليهم.

لغويّات.

{تَمَسَّنَا :}المِسُّ: اتصال أحد الشيئيْن بآخر على وجه الإحساس والإصابة. وذكر الراغب أنه كاللمس، لكن اللمس قد يُقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، كقوله :وأَلْمَسُهُ فَلَا أَجِدُه.

{ بَلَى :}حرف جواب مثل: نعم، إلاّ أنها لا تقع جواباً إلاّ لِنفْي متقدّم، سواء دخله استفهام أم لا؛ فتكون إيجاباً له. وهي بسيطة، وقيل: أصلها: "بل"، فزيدت عليها الألف .

{مَنْ كَسَبَ :}الكَسْبُ: جلب النفع، وعُبِّر به هنا على سبيل التّهكّم.

{وَأَحَاطَتْ :}الإحاطة: الاستيلاء والشمول، وعموم الظاهر والباطن .

والوالدان :تَثْنِية والد، لأنه يُطلق على الأب والأمّ، أو تغليباً، بِناء على أنه لا يقال إلاّ للأب.

و{الْقُرْبَى :}مصدر، كالرُّجْعَي، والألف فيه للتأنيث، وهي: قرابة الرّحم والصّلب .

{وَالْيَتَامَى :}وزنه" :فَعَالَى"، وألفه للتأنيث، وهو جمْع يتيم؛ كنَدِيم ونَدَامَى، ولا يَنْقاس، ويجمع على: أيتام. واليُتم أصل، معناه :الانفراد، ومنه: الدرة اليتيمة. وقال ثعلب: الغفلة . وسُمي اليتيم: يتيماً لأنه يُتغافل عن بِرّه. وقال أبو عمرو: الإبطاء، لإبطاء البر عنه، وهو في الآدميّين مِن قِبل الآباء، ولا يتم بعد بلوغ، وفي البهائم مِن قِبَل الأمهات، وفي الطيور من جهتهما. وحكى الماوردي أنه يُقال في الآدميّين لِمَن فُقدت أمّه أيضاً، والأول هو المعروف .

{وَالْمَسَاكِينِ:}جمع مِسكين، على وزن: "مِفْعِيل" مشتق مِن: السّكون، كأن الحاجة أسكنتْه. فالميم زائدة، كمَحْضَر مِن: الحُضُور. ورُوِي: تَمَسْكَنْ فلان، والأصح تَسَكَّن، أي: صار مِسكيناً، والفرق بينه وبين الفقير معروف. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

الآثار.

أخرج أحمد، والبخاري، والدارمي، والنسائي، والبيهقي في "الدلائل"، وابن مردويه، عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، قال)) :لما فُتحت خيبر أُهديتْ لرسول الله –صلى الله عليه وسلم – شاة فيها سمّ، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: اجمعوا لي مَن كان مِن اليهود ها

هنا. فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: مَن أبوكم؟ قالوا: فلان. قال :كذبتم! بل أبوكم فلان !فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفتَ كذبنا، كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: مَن أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تَخْلفونا فيها. فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: اخسؤوا! والله لا نخلفكم فيها أبداً! ثم قال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جَعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم. قال: ما حمَلَكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك .((

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: اجتمعت يهود يوماً فخاصموا النبي– صلى الله عليه وسلم–، فقالوا: لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودات، وسمّوا أربعين يوماً، ثم يخلفنا فيها ناس، وأشاروا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه .فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وردّ يده على رؤوسهم)) :كذبتم! بل أنتم خالدون مُخَلَّدون فيها، لا نخلفكم فيها إن شاء الله تعالى أبداً .((!ففيهم أنزلت هذه الآية : {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً}، يعنون: أربعين ليلة.

وأخرج ابن جرير، عن زيد بن أسلم: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال لليهود :))أنشدكم بالله وبالتوراة التي أنزل الله على موسى يوم طور سِيناء، مَن أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة؟ ((قالوا: إنّ ربهم غضب عليهم غضبة، فنمكث في النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :-كذبتم! والله لا نخلفكم فيها أبداً((!؛ فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي –صلى الله عليه وسلم–، وتكذيباً لهم{ :وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً }إلى قوله{ :وهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . }

وعن ابن عباس: أنّ اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعذّب بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودات، فأنزل الله تعالى{ :وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً }إلى قوله{ :خَالِدُونَ . }

وعن ابن عباس{ :وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً :}اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلاّ

أربعين ليلة. زاد في رواية: وهي مدة عبادتهم العجل .

و عن مجاهد مثله.

وعن قتادة{ :وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً}، يعني :الأيام التي عبدنا فيها العجل .

وعن ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً: إنّ ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي ثابتة في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نُعذَّب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم، فتذهب جهنم، وتهلك؛ فذلك قوله{ :وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً .}

وعن ابن عباس قال: وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين، فقالوا: لن يُعذّب أهل النار إلاّ قدر أربعين، فإذا كان يوم القيامة أُلجموا في النار فساروا فيها حتى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم، إلى آخر يوم من الأيام المعهودة. فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله! زعمتم أنكم لن تُعَذَّبوا في النار إلاّ أياماً معدودة فقد انقضى العدد وبقي الأبد؛ فيأخذون في الصعود يرهقون على وجوههم.

وعن مجاهد في قوله{ :قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً}، أي: مَوْثقاً من الله بذلك أنه كما تقولون .

وعن ابن عباس قال: لما قالت اليهود ما قالت. قال الله لمحمد{ :قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً}، يقول: أدخرتم عند الله عهداً؟. يقول: أقلتم لا إله إلا الله لم تشركوا ولم تكفروا به؟، فإن كنتم قلتموها فأرجوا بها، وإن كنتم لم تقولوها فَلِمَ{ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ .}

وعن قتادة، في قوله{ :قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ}، قال: بفراكم وبزعمكم: أن النار ليس تمسّكم {إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً}، يقول: إن كنتم{ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً }بذلك{ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ .}قال: قال القوم الكذب والباطل، وقالوا عليه ما لا يعلمون.

وعن ابن عباس{ :بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً}، أي: عمل بمثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره، فما لَه من حسنة.

وفي رواية عن ابن عباس، قال{: سَيِّئَةً :}الشرك.

وروي عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه .

وعن أبي هريرة، في قوله{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، قال: أحاط به شرْكه.

وقال أبو وائل، وعطاء، والحسن{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، قال: أحاط به شركه .

وعن قتادة، في قوله{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، قال: هي الكبيرة الموجِبة لأهلها النار .

وعن الحسن: أنه سئل عن قوله{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ :}ما الخطيئة؟ قال: اقرؤوا القرآن! فكل آية وعَد الله عليها النار فهي الخطيئة .

وعن مجاهد، في قوله{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، قال: الذنوب تحيط بالقلوب؛ فكلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب حتى يكون هكذا، وقبض كفّه. ثم قال: والخطيئة: كلّ ذنب وعد الله عليه النار.

وعن الربيع بن خثيم{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، قال: الذي يموت على خطاياه من قبل أن يتوب .

وعن السدي، وأبي رزين، نحوه .

وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن –في رواية عنهما–، وقتادة، والربيع بن أنس{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ :}الكبيرة الموجبة .

و عن الأعمش، في قوله{ :وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، قال: مات بذنبه .

وعن ابن عباس{ :وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، أي: من آمن بما كفرتم، وعمل بما تركتم مِن دِينه، فلهم الجنة خالدين فيها؛ يُخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً.

وعن ابن عباس، في قوله تعالى{ :وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، قال: أي ميثاقكم.

وعن أبي العالية، في قوله{ :وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }...الآية، قال: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له وأن لا يعبدوا غيره.

وعن قتادة، في قوله{ :وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، قال :ميثاق أخذه الله على بني إسرائيل، فاسمعوا على ما أخذ ميثاق القوم{ :لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً }... الآية.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}، قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أمرهم أن يأمروا بلا إله إلا الله مَن لمْ يقلها .

وعن علي بن أبي طالب، في قوله{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}، قال :يعني الناس كلّهم .

وعن عطاء، وأبي جعفر، في قوله{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}، قالا :للناس كلّهم .

وعن أسد بن وداعة: أنه كان يخرج من منزله، فلا يلقى يهودياً ولا نصرانياً إلاّ سلّم عليه. فقيل له: ما شأنك؟ تُسلم على اليهودي والنصراني؟! فقال: إن الله يقول{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}، وهو: السلام .

وروي عن عطاء الخراساني نحوه.

قال ابن كثير، بعد أن وصف ذلك القول بالغرابة: وقد ثبتت السنة (أنهم) لا يُبْدَؤون بالسلام -والله أعلم.-

قلت: وهو كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قد أمر النبي -صلى الله عليه و سلم- ألاّ يُبدأ أهل الكتاب بالسلام، وقال)) :وإذا لقيتموهم في طريق، فاضطرّوهم إلى أضيَقه((؛ وما ذلك إلاّ إظهاراً لإذلالهم، كما قال تعالى{ :حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .}ولعلّ مَن ذهب إلى ذلك لم يصلْه النصوص الشرعية المانعة -والله أعلم.-

وعن ابن عباس، في قوله{ :ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ}، أي: تركتم ذلك كلّه .

وعن ابن عباس، في قوله{ :ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ}، قال: أعرضتم عن طاعتي إلاّ قليلاً منكم وهم الذين اخترتُهم لطاعتي .

أقوال المفسِّرين.

يقول تعالى، إخباراً عن اليهود فيما تقوّلوه وادّعوْه لأنفسهم، مِن أنّهم لن تمسّهم النار إلاّ أياماً معدودة ثم ينجون منها، فردّ الله عليهم ذلك بقوله{ :قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً}، أي: بذلك؛ فإن كان قد وقع فهو لا يُخْلف عهده. ولكن هذا ما جرى ولا كان؛ ولهذا أتى بـ{أَمْ }التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

والمراد من{ النَّار :}نار الآخرة. ومن" المعدودة": المحصورة القليلة، وكنَّى بالمعدودة عن القليلة لِما أنّ الأعراب- لِعدم علْمهم بالحساب وقوانينه- تتصوّر القليل متيسِّرَ العدد، والكثير متعسِّرهُ؛ فقالوا: شيء معدود، أي: قليل، وغير معدود :أي كثير.

والعهد :مجاز عن خبره تعالى، أو وعده بعدم مِسَاس النار لهم سوى الأيام المعدودة، وسَمَّى ذلك عهداً، لأنه أوكد من العهود المؤكّدة بالقسَم والنذر.

{أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}،{ أَمْ }يُحتمل أن تكون متّصلة للمعادلة بين شيئيْن بمعنى: أيّ هذيْن واقع؟ اتخاذكم العهد، أم قولكم على الله ما لا تعلمون؟ وخرج ذلك مخرج المتردّد في تعيينه، على سبيل التقرير لأولئك المخاطَبِين، لعلْم المستفهِم –وهو: النبي – صلى الله تعالى عليه وسلم –بوقوع أحدهما، وهو: قولهم بما لا يعلمون على التعيين؛ فلا يكون الاستفهام على حقيقته.

ويُحتمل أن تكون منقطعة بمعنى، والتقدير: بل أتقولون؟ ومعنى "بل" فيها: الإضراب {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً :}يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنّيْتم، ولا كما تشتهون؛ بل الأمر أنه مَن عمل سيئة{ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، وهو مَن وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار.

وهذا جواب عن قولهم المحكي، وإبطال له على وجه أعم، شامل لهم ولسائر الكفرة؛ كأنه قال: بل تمسّكم وغيْرَكم دهراً طويلاً وزماناً مديداً، لا كما تزعمون.

والسيئة :الفاحشة الموجِبة للنار؛ قاله السدي، وعليه تفسير مَن فسّرها بالكبيرة، لأنها التي تُوجب النار، أي: يستحق فاعلُها النار إن لم يُغفر له. وذهب كثير من السلف إلى أنها هنا: الكفر .

وتعليق الكسب بالسيئة، على طريق التّهكّم. وقيل: إنهم بتحصيل السيئة استجلبوا نفعاً قليلاً فانياً، فبهذا الاعتبار أُوقِع عليه الكسب.

والخطيئة :السيئة، وغلبت فيما قصد بالعرض، أي: لا يكون مقصوداً في نفسه بل يكون القصد إلى شيء آخر، لكن تولّد منه ذلك الفعل؛ كمن رمى صيداً فأصاب إنساناً، وشرب مسكراً فجنى جناية.

قال ابن كثير، بعد أن ساق أقوال السلف في معنى{ :أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ :}وكلّ هذه الأقوال متقاربة في المعنى –والله أعلم .–

ويُذكر ها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود :أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :إيّاكم ومحقَّرَات الذنوب! فإنّهن يجتمعن على الرّجل حتى يُهلِكْنَه .((وإن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– ضرب لهن مثلاً: كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر

صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأجّجوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، أي: آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة، فهو من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى{ :لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً.}

قال الآلوسي: "لما ذكر سبحانه أهل النار وما أعدّ لهم من الهلاك، أتبع ذلك بذِكْر أهل الإيمان وما أعدّ لهم من الخلود في الجنان. وقد جرت عادته –جل شأنه– على أن يشفع وعْده بوعيده، مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى.

وقيل: إن في الجمع تربية الوعيد بذكر ما فات أهله من الثواب، وتربية الوعد بذكر ما نجا منه أهله من العقاب.

والمراد من{ الَّذِينَ آمَنُوا :}أمّة محمد –صلى الله تعالى عليه وسلم– ومؤمنو الأمم قبلهم. قاله ابن عباس وغيره؛ وهو الظاهر. وقال ابن زيد: المراد بهم: النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأمّته خاصة."

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ :}شروع في تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود، ممّا ينادي باستبعاد إيمان أخلافهم .وقيل: إنه نوع آخر مِن النِّعم التي خصّهم الله تعالى بها؛ وذلك لأن التكليف بهذه الأشياء موصِل إلى أعظم النِّعم وهو الجنة، والموصِل إلى النِّعمة نِعمة .

فيُذكِّر –تبارك وتعالى– بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولّوا عن ذلك كلّه، وأعرضوا قصداً وعمداً ، وهم يعرفونه ويذكرونه.

وهذا الميثاق: ما أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم –عليهم السلام–، أو ميثاق أُخذ عليهم في التوراة .وقول مكي: إنه ميثاق أخذه الله تعالى عليهم وهم في أصلاب آبائهم كالذَّرِّ، لا يظهر له وجهة هنا.

فأمرهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً. وبهذا أمَر جميع خلْقه، ولذلك خلَقهم، كما قال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقال تعالى :

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}؛ وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى، أن يُعبد وحده لا شريك له. ثم بعده حقّ المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك: حقّ الوالديْن؛ ولهذا يقرن الله تعالى كثيراً بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى{ :أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}، وقال تعالى{ :وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً }...الآية، إلى أن قال{ :وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .}

وفي الصحيحين، عن ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أيّ العمل أفضل؟ قال)) :الصلاة على وقتها .((قلت: ثم أيّ؟ قال)) :برّ الوالدين .((قلت: ثم أيّ؟ قال)) :الجهاد في سبيل الله .((

ولهذا جاء في الحديث الصحيح: أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، مَن أَبَرُّ؟ قال)) :أمّك .((قال: ثم من؟ قال)) :أمّك .((قال: ثم من؟ قال)) :أباك، ثم أدناك أدناك .((

قوله تعالى{ :لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ}، قال الزمخشري" :خبر بمعنى: الطلب، وهو آكد". وقيل: كان أصله: "أن لا تعبدوا إلاّ الله"، كما قرأها مَن قرأها مِن السلف، فحُذفت: "أن"، فارتفع. وحُكي عن أبيّ وابن مسعود: أنهما قرآها{ :لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ الله .}وقيل{ :لاَ تَعْبُدُونَ :}مرفوع على أنه قسَم. أي: والله لا تعبدون إلاّ الله، ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه، قال :واختاره المبرد والفراء والكسائي .

قال{ :وَالْيَتَامَى :}وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء .

{وَالْمَسَاكِينِ :}الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم .

وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية (النساء)، التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله : {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً }...الآية .

وقد دلت الآية على الحث على برّ الوالدين وإكرامهما، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة؛ وناهيك احتفالاً بهما أن الله –عز اسمه– قرن ذلك بعبادته .

وقد جاء هذا الترتيب اعتناء بالأوكد فالأوكد؛ فبدأ{ بِالْوَالِدَيْنِ }إذ لا يخفى تقدّمهما على كلّ أحد في الإحسان إليهما، ثم بـ{ذِي الْقُرْبَى }لأنّ صلة الأرحام مؤكّدة، ولمشاركة الوالدين في القرابة وكونهما منشأ لها؛ وقد ورد في الأثر: "إن الله تعالى خاطب الرّحِم فقال: أنتِ

الرحم، وأنا الرحمن. أصِلُ مَن وصَلكِ وأقْطعُ مَن قطعَك"، ثم بـ{الْيَتَامَى }لأنهم لا قدرة لهم تامة على الاكتساب؛ وقد جاء)) :أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتيْن((، وأشار –صلى الله عليه وسلم– إلى السبابة والوسطى. وتأخرت درجة{ الْمَسَاكِينِ}، لأن المسكين يُمكنه أن يتعهّد نفسه بالاستخدام، ويصلح معيشته مهما أمكن، بخلاف اليتيم فإنه لِصغره لا يُنتفع به ويحتاج إلى من ينفعُه. وأُفرد{ ذِي الْقُرْبَى– }كما في "البحر"– لأنه أريد به الجنس، ولأن إضافته إلى المصدر يندرج فيه كل ذي قرابة؛ وكأن فيه إشارة إلى أنّ ذوي القربى وإن كثروا، كشيء واحد لا ينبغي أن يُضجر من الإحسان إليهم.

وقوله تعالى{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً] }وقرأ بعضهم{ :حَسَناً}، أي: قولاً حسَناً. وقرأ آخرون :{حُسْنَى }مثل: فُعْلَى. وأنكرها على الأخفش جماعة، وقالوا: لا يُستعمل ذلك إلاّ بالألف واللام مثل: الكُبْرى (والحُسْنى) والعظمى، وعزوْه إلى سيبويه، نقله القرطبي.[

أي: كلِّموهم طيّباً، وَلِينُوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري، في قوله{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً" :}فالحُسن من القول: يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حُسناً كما قال الله، وهو كلّ خلُق حسَن رضِيَه الله ."

وقال الإمام أحمد، ومسلم في صحيحه، وغيرهما، عن أبي ذر، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: أنه قال)) :لا تحقرنّ من المعروف شيئاً؛ وإن لم تجِدْ، فالْقَ أخاك بوجْه مُنطلق .((

قال الآلوسي{ :وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً}، أي: قولاً حسناً سماه به للمبالغة. وقيل: هو لغة في الحُسْن؛ كالبُخْل والبَخَل، والرُّشْد والرَّشَد، والعُرْب والعَرَب. والمراد: قولوا لهم القول الطيِّب وجاوبوهم بأحسن ما يحبون؛ قاله: أبو العالية. وقال سفيان الثوري: مروهم بالمعروف، وانهوْهم عن المنكر. وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: قولوا لهم: "لا إله إلا الله"، مروهم بها. وقال ابن جريج: أعلموهم ممّا في كتابكم مِن صفة رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم .–

وقول أبي العالية في المرتبة العالية. والظاهر: أن هذا الأمر مِن جملة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل، ومَن قال إنّ المخاطَب به الأمة، وهو محكَم، أو منسوخ بآية السيف، أو إن

{لِلنَّاسِ }مخصوص بصالحي المؤمنين، إذ لا يكون القول الحسن مع الكفار والفساق، لأنا أُمرنا بلعنهم وذمهم ومحاربتهم، فقد أبعد.

قال{ :وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، أراد سبحانه بهما :ما فُرض عليهم في ملّتهم، لأنه حكاية لما وقع في زمان موسى- عليه السلام-. وكانت زكاة أموالهم كما روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قرباناً تهبط إليها نار فتحملها، وكان ذلك علامة القبول وما لا تفعل النار به كذلك كان غير متقبَّل. والقول بأن المراد بهما: هذه الصلاة وهذه الزكاة المفروضتان علينا، والخطاب لمن بحضرة النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم- من أبناء اليهود لا غير، والأمر بهما كناية عن الأمر بالإسلام أو للإيذان بأن الكفار مخاطبون بالفروع أيضاً، ليس بشيء كما لا يخفى .

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ}، أي: أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه، و{ثُمَّ }للاستبعاد، أو لحقيقة التراخي؛ فيكون توبيخاً لهم بالارتداد بعد الانقياد مدة مديدة، وهو أشنع من العصيان من الأول .

{وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ :}جملة معترضة، أي: وأنتم قوم عادتُكم الأعراض والتولي عن المواثيق. ويؤخذ كونه عادتهم مِن الاسمية الدالة على الثبوت، وقيل: حال مؤكِّدة. والتولِّي والإعراض شيء واحد .وفرّق بعضهم بين التولّي والإعراض بأنّ الأول قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت العقد، والإعراض هو :الانصراف عن الشيء بالقلب. وقيل: إن التولّي أن يرجع عوْده إلى بدئه، والإعراض أن يترك المنهج ويأخذ في عرض الطريق .والمتولِّي أقرب أمراً من المعِرض، لأنه متى عزم سهُل عليه العوْد إلى سلوك المنهج، والمعرِض حيث ترك المنهج وأخذ في عرض الطريق، يحتاج إلى طلب منهجه فيعسُر عليه العود إليه .

قال ابن كثير:

"وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسْناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكّد الأمر بعبادته، والإحسان إلى الناس، بالمتعيّن من ذلك، وهو: الصلاة والزكاة، فقال{ :وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .}وأخبر أنهم تولّوْا عن ذلك كلّه، أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلْم به، إلاّ القليل منهم. وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك في سورة (النساء) بقوله{ :وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}، فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمّة من الأمم قبْلها، ولله الحمد والمنّة."

المعنى الإجمالي.

يذكر سبحانه افتراءً مِن افتراءات أحبار اليهود، وكذبة من كذباتهم، وتحريفاً من تحريفاتهم ممّا لَبَّسُوا به على عوامّهم؛ حيث ادّعوا أن الله تعالى لن يعذّبهم في النار إلاّ أياماً قليلة، وهي سبعة أيام مقابل مدة الدنيا المزعومة عندهم، وهي سبعة آلاف سنة عن كل ألْف سنة يوم، فأكذبهم الله تعالى، فأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول لهم: هل لديكم عهد من الله يَعِدكم بذلك؟ فإن الله لا يُخلف وعْده؛ وإذ لم يكن كذلك فأنتم تفترون على الله، وتتقوّلون عليه ما لا تعلمون صحّته وقبول الله به. والصحيح: أنّ الذي وقع في الشرك مثْلكم، وأحاطت به خطاياه بسبب كُفره كما حصل لكم، فهؤلاء هم أصحاب النار الملازمين لها، الذين لا يخرجون منها ولا يحيَوْن فيها ولا يموتون. وأمّا الذين آمنوا وصَدَّقت أعمالهم الصالحة إيمانَهم، فهؤلاء هم أصحاب الجنة الملازِمين لها، ينعمون أبداً لا يموتون.

ثم ذكر سبحانه: أنه أخذ على بني إسرائيل العهد والميثاق: أن لا يعبدوا سواه، وأن يُحسنوا إلى الوالديْن من الآباء والأمهات، ويُعطوا ذوي القربى- وهم: كلّ من له صلة قرابة بهم- حقوقهم من البِرّ والصلة، وكذا الإحسان إلى اليتامى -وهم: الصغار الذين فقدوا آباءهم-، والمساكين المعْوِزين، وأن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ويَدْعوا إلى توحيد الله، ويحرصوا على كل قول حسن نافع للناس، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة كما شرع الله تعالى. ثم بعد هذا الميثاق والعهد، لم يفعلوا ذلك ولم يوفوا به، بل تولّوْا عنه إعراضاً وعدم قبول له، إلاّ القليل منهم، وهم الذين صدقوا في إيمانهم ووفّوا بما عاهدوا الله عليه.

مسائل الآيات.

الأولى:

استدل بالآية مَن ذهب إلى نفْي الخُلْف في الوعد والوعيد، بحمْل "العهد" على الخبر الشامل لهما.

والصحيح: أن الله تعالى لا يُخلف الميعاد ولا يخلف الله وعْده، أما وعيده فهو تحت مشيئته يتجاوز عنه بمنّه وكرَمه .والآية واضحة في أنّ المراد بها: الوعد، لا الوعيد.

الثانية:

لا حجة في الآية على خلود صاحب الكبيرة- على قول مَن فسّر الخطيئة والسيئة بالكبيرة-، لأنّ الإحاطة إنما تصح في شأن الكافر، أمّا المؤمن فتُكَفَّر عنه سيئاته، ويغفر الله له ما شاء من الكبائر، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة المتكاثرة.

كما أن الخلود يُذكر ويراد به: اللُّبث الطويل، لا الأبدية؛ ولكنه غير مراد هنا لأن الآية في الكافرين.

الثالثة:

ادّعى الآلوسي: أنّ عطف العمل على الإيمان يدلّ على خروجه عن مسماه، إذ لا يُعطف الجزء على الكلّ.

والجواب: أنّ هذه دعوى باطلة، وعطف الجزء على الكلّ كثير جداً، وأشهر من التمثيل له، وذلك اهتماماً به وتنويهاً بأهمِّيّته. وقد دلت النصوص على دخول العمل في مُسمَّى الإيمان؛ والمسألة مبسوطة في كتب العقيدة. وأهل السنة والجماعة على أنّ الإيمان: قول، واعتقاد، وعمل.

وقد قال الآلوسي رداً على نفسه: ويخطر في البال أنه يمكن أن يكون لِذِكْر العمل الصالح هنا مع الإيمان نكتة، وهو: أن يكون الإيمان في مقابلة السيئة المفَسَّرة بالكفر عند بعض، والعمل الصالح في مقابلة الخطيئة المفَسَّرة بما عداه.

الأسئلة :

١. قرأ نافع وأبو جعفر (خطيئاته) بالجمع ، واستحسنوا هذه القراءة بأن الإحاطة لا تكون بشيء واحد ، وتوجه قراءة الإفراد بأن المفرد المضاف يدل على التعدد (صح) .

٢. قرئ في الشاذ (لا تعبدون) بالتاء حكاية لما خوطبوا به (خطأ) .

٣. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف حسنا بفتحتين صفة لمصدر محذوف أي قولا حسنا وقرأ الباقون حسنا بضم الحاء وسكون السين وهو مصدر على وصف القول به لإفراط حسنه (صح) .

٤. تمسنا : المس اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة (صح) .

٥. بلى : حرف جواب مثل نعم إلا أنها لا تقع جوابا إلا لمثبت متقدم فتكون إيجابا له (خطأ) .

٦. الكسب : جلب الشيء نافعاً كان أم ضاراً ولهذا قال هنا : كسب سيئة (خطأ) .

٧. وأحاطت : الإحاطة الاستيلاء والشمول وعموم الظاهر والباطن (صح) .

٨. أصل اليتم الانفراد أو الإبطاء ، وهو في الآدميين من قبل الآباء ولا يكون بعد بلوغ (صح) .

٩. أصل اليتم الانفراد ومنه : الدرة اليتيمة ، ولا يكون إلا بفقد الأمهات وشرطه أن يكون قبل البلوغ (خطأ) .

١٠. المسكين : من السكون ، كأن الحاجة أسكتته (صح) .

١١. كان اليهود يزعمون أنهم لا يلبثون في النار إلا أربعين يوماً أو غيرها من أيام قليلة وأن المسلمين يخلفونهم فيها ، فأنزل الله الآيات في الرد عليهم (صح)

١٢. الهمزة في (اتخذتم) همزة تقريرية ، لتقريرهم بأن هذا الذي قالوا ليس عليه عهد من الله (خطأ) .

١٣. التنكير في (عهداً) بعد الهمزة يدل على أن عهد محدد معلوم وهو عهد الله إليهم على ألسنة أنبيائهم (خطأ) .

١٤. بلى من كسب سيئة : أي سيئة كانت كبيرة أم صغيرة (خطأ) .

١٥. وأحاطت به خطيئته : أي المعاصي الموجبة للنار أحاطت بقلبه (صح) .

١٦. الآية فيها دليل على استمرار الجزاء على الخير والشر بالجنة والنار وأنه لا ينقطع (صح) .

١٧. الآيات فيها توجيه لأمة محمد ﷺ بأن يلتزموا بهذه التعاليم التي أخذ الله ميثاق بني إسرائيل عليها (صح) .

١٨. استدل بعضهم بقوله (وقولوا للناس حسناً) بأنه إذا لقي المسلم اليهودي أو النصراني فإنه يسلم عليه ، وهو قول ضعيف لأنه قد ثبت النهي عن بدئهم بالسلام (صح) .

١٩. (أم) في أم تقولون : ويحتمل أن تكون منقطعة بمعنى بل ، والتقدير بل أتقولون ومعنى بل فيها الإضراب (صح) .

٢٠. تعليق الكسب بالسيئة على طريقة التهكم لأن الكسب لا يقال إلا لجلب النفع . وقيل إنهم بتحصيل السيئة استجلبوا نفعا قليلا فانيا فبهذا الاعتبار أوقع عليه الكسب (صح) .

٢١. ذكر بعضهم أنه يدخل في قوله (وقولوا للناس حسناً) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو قول بعيد في الآية (خطأ) .

٢٢. الأمر بالقول الحسن منسوخ بآية السيف (خطأ) .

٢٣. ثم توليتم : ثم للاستبعاد أو لحقيقة التراخي فيكون توبيخا لهم بالارتداد بعد الانقياد مدة مديدة وهو أشنع من العصيان من الأول (صح) .

٢٤. وأنتم معرضون جملة معترضة أي وأنتم قوم عادتكم الأعراض والتولي عن المواثيق ويؤخذ كونه عادتهم من الاسمية الدالة على الثبوت (صح) .

٢٥. استدل بالآية من ذهب إلى نفي الخلف في الوعد والوعيد بحمل العهد على الخبر الشامل لهما .وهو الصحيح فالله لا يخلف وعده ولا وعيده (خطأ) .

٢٦. ليس في الآية حجة على خلود أهل الكبائر في النار أن المراد بالخلود العذاب الطويل وليس عدم الخروج (خطأ) .

٢٧. ليس في الآية حجة على خلود أهل الكبائر في النار لأن إحاطة الخطيئة بالعبد لا تكون إلا في حق الكافر (صح) .

٢٨. ادعى الآلوسي أن عطف العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه إذ لا يعطف الجزء على الكل . وهو قول ضعيف مردود . والأدلة متضافرة على دخول العمل في مسمى الإيمان (صح) .

٢٩. الإعراض أشد من التولي ، لأنه يكون عن عمد وأما التولي فيكون عن غير قصد (خطأ) .

٣٠. الآية فيها تهديد لكل من خالف أمر الله وعهده ولو بغير قصد المخالفة (خطأ) .

المحاضرة السادسة والثلاثون

***

تفسير الآيات من (٨٤) إلى (٨٦) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ.}

القراءات:

{تَظَاهَرُونَ :}قرأ عاصم وحمزة والكسائي{ :تَظَاهَرُونَ- }بتخفيف الظاء-، وأصله بتاءين حُذفت ثانيتهما عند أبي حيان، وأُولاهما عند غيره، من باب التخفيف. وقرأ باقي السبعة بالتشديد على إدغام التاء في الظاء؛ والقراءتان بمعنًى.

{أُسَارَى :}قرأ حمزة بفتح الهمزة، وسكون السين، من غير ألف{ :أَسْرَى}، جمع أسير، بمعنى: مأسور. وقرأ الباقون بضمّ الهمزة، وفتح السين، وبألف بعدها، على وزن: "فُعَالَى" جمع: أسرى؛ كسَكْرى وسُكارى، وقيل: جمْع أسير أيضاً.

{تُفَادُوهُمْ :}هكذا قرأها نافع، وعاصم، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وابن عامر، وخلَف العاشر{ :تَفْدُوهُمْ}، وعليه حمَل البعضُ قراءة الباقين إذ لا مفاعلة. وقيل المفاعلة على بابها: يُعطي الأسيرُ المال، ويُعطَى الإطلاق.

وفرّق جمْع بين "فادَى" و"فَدَى" بأنّ معنى الأول: بادل أسيراً بأسير، والثاني: جمع الفداء. ويعكِّر عليه قول العباس -رضي الله تعالى عنه-: "فاديتُ نفسي وفاديتُ عقيلاً"؛ إذ من المعلوم أنه ما بادل أسيراً بأسير. وقيل{ :تُفَادُوهُمْ }بالعنف، و{ تَفْدُوهُمْ }بالصلح.

{تَعْمَلُونَ :}قرأ نافع، وابن كثير، وأبو بكر، ويعقوب، وخلَف{ :يَعْمَلُونَ }بالياء، على أن الضمير لقوله{ :مَنْ}، وموافقة لقوله{ :اشْتَرَوُا}، والباقون بالتاء مِن فوق، بالخطاب، مناسبة لقوله{ :أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ.}

المناسبة :

ما زال الحديث متتالياً في ذِكْر جرائم وفظائع بني إسرائيل.

لغويّات.

{تَسْفِكُونَ :}السَّفْك :صبّ الدّم، ونثر الكلام. وسفَك الدم والدمع والماء، يَسْفِكه سَفْكاً، فهو مَسْفوك وسَفِيك: صبّه وأهراقه؛ وكأنه بالدم أخصّ .وقيل: هو الإراقة والإجراء لكلّ مائع.

{دِمَاءَكُمْ :}الدماء :جمع دم، وهو معروف. ولامُه محذوفة، وهي: يَاء عند بعض، لقوله: جرى الدّمَيان بالخبر اليقين، وواو عند آخَرين، لقولهم: دمَوان. ووزنه: "فَعْل"، وقد سُمِع مقصوراً، وكذا مشدَّداً .

{أَقْرَرْتُمْ :}الإقرار :ضد الجَحْد، ويتعدّى بالباء. قيل: ويحتمل أنه بمعنى: إبقاء الشيء على حاله من غير اعتراف به.

{تَظَاهَرُونَ :}التظاهر: التعاون، وأصله مِن: الظّهر؛ كأن المتعاوِنين يُسند كل واحد منهما ظهره إلى صاحبه.

{بِالإِثْمِ :}هو الفعل الذي يستحق عليه صاحبه الذّمّ واللّوم. وقيل: ما تنفر منه النفْس ولا يطمئن إليه القلب، وفي الحديث)) :الإثْم: ما حاك في صدرك.((

{وَالْعُدْوَانِ :}تجاوز الحدّ في الظلم .

والـ}أُسَارَى{ :قيل: جمع أسير. بمعنى: مأسور، وكأنهم حملوا "أسيراً" على" :كسلان"، فجمعوه جمْعه، كما حملوا "كسلان" عليه، فقالوا :كُسالَى؛ كذا قال: سيبويه. ووجه الشبه: أن الأسير محبوس عن كثير مِن تصرّفه للأسر، والكسلان محبوس عن ذلك لعادته. وقيل: إنه مجموع هكذا ابتداء من غير حمل، كما قالوا في: "قديم" و "قُدامى". وسُمع بفتح الهمزة وليست بالعالية، خلافاً لبعضهم حيث زعم أنّ الفتح هو الأصل والضّمّ ليزداد قوة. وقيل:

جمْع أسرى؛ وبه قرأ حمزة. وهو جمع أسير، كجريح وجرحى؛ فيكون{ :أُسَارَى }جمْع الجمْع؛ قاله المفضل. وقال أبو عمرو: الأَسرى: مَن في اليد، والأُسارى: مَن في الوثاق. قال الآلوسي: ولا أرى فرقاً، بل المأخذون على سبيل القهر والغلبة مطلقاً: أَسرى وأُسارى.

والخزي :الهوان، وقال ابن السكيت: معنى خَزِي: وقع في بلية، وخَزِي الرجل خَزَايَة، إذا استحيا، وهو خزْيان، وقوم خزَايا.

و{الدُّنْيَا :}مأخوذة مِن: دنَا يَدْنُو، وياؤها منقلبة عن واو، ولا يحذف منها الألف واللام إلاّ قليلاً، وخصّه أبو حيان بالشِّعر.

الآثار.

عن أبي العالية، في قوله{ :وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}، يقول: لا يقتل بعضكم بعضاً{ .وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ}، يقول: لا يُخرج بعضكم بعضاً من الديار{ .ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ }بهذا الميثاق،{ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}، يقول: وأنتم شهود .

وعن ابن عباس، في قوله{ :ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ :}أن هذا حق من ميثاقي عليكم{ .ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ}، أي :أهل الشرك حين تسفكون دماءكم معهم{ .وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ}، قال: تُخرجونهم من ديارهم معهم،{ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .}فكانوا إذا كان بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة من الأوس، وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم. فإذا وضعت أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقاً لما في التوراة{ .وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ }وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم،{ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ }في كتابكم{إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ :}أتفادونهم مؤمنين بذلك، وتخرجونهم كفراً بذلك .

عن ابن عباس{ :ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ }...الآية. قال: أنبأهم الله (بذلك) من فعلهم، وقد حرَّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقيْن: طائفة منهم بنو قينقاع وإنهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وإنهم حلفاء الأوس . فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير

وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة، يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، لا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامة، (ولا كتاباً)، ولا حلالا ولا حراماً. فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة وأخذاً به، بعضهم من بعض: يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ، ويُطِلُّون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله –تعالى ذكره– حين أنبأهم بذلك{ :أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}، أي: يفادونهم بحكم التوراة، ويقتله وفي حكم التوراة أن لا يفعل، ويخرجه من داره، ويظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا .

وعن السدي: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سمير، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفائهم، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، ويغلبونهم فيخربون ديارهم ويُخرجونهم منها. فإذا أُسر رجل من الفريقين كليْهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيّرهم العرب بذلك ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أُمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحيي أن نستذل حلفاءنا. فذلك حين عيّرهم الله فقال{ :ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ .}

وعن السدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الحطيم{ :ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.}

وعن عبد خير، قال: غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر، فحاصرنا أهلها، ففتحنا المدينة، وأصبنا سبايا. واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة، فلما مر برأس الجالوت نزل به. فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت! هل لك في عجوز ها هنا من أهل دينك، تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمائة درهم. قال: فإني أربحك سبعمائة أخرى. قال: فإني قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لي فيها. قال: والله لتشترينّها مني، أو لتكفرنّ بدِينك الذي أنت عليه! قال: ادن مني، فدنا منه، فقرأ في أذنه التي في التوراة: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلاّ اشتريته فأعتقته{ .وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى

تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ}، قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم، قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله أَلْفيْن، وردّ عليه ألفيْن .

وعن أبي العالية: أنّ عبد الله بن سلام مرّ على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يُفادي من النساء من لم يقع عليه العرب، ولا يفادي من وقع عليه العرب، فقال عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهنّ كلهنّ .

و عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: يكون أول الآية عاماً وآخرها خاصاً، وقرأ هذه الآية : {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.}

و عن قتادة، في قوله{ :أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ}، قال: استحبّوا قليل الدنيا على كثير الآخرة.

أقوال المفسّرين.

يقول الله، منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج؛ وذلك أن الأوس والخزرج –وهم الأنصار- كانوا في الجاهلية عبّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر (من) الفريق الآخر؛ وذلك حرام عليه في دِينه ونص كتابه، ويُخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال. ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى{ :أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}، ولهذا قال تعالى{ :وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ}، أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه. كما قال تعالى{ :فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}، وذلك أن أهل (الملة الواحدة) بمنزلة النفس الواحدة، كما قال- عليه الصلاة والسلام)) :-مثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتواصلهم، بمنزلة الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر .((

وقال الزمخشري: "جعل غير الرجل نفسه إذ اتصل به أصلاً أو ديناً، وقيل: إذا قتل غيره

فكأنما قتل نفسه لأنه يُقتصّ منه ."
{ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}، أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحّته، وأنتم تشهدون به. كقولك: فلان مقرّ على نفسه بكذا، شاهد عليها. وقيل{ :وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ }اليوم –يا معشر اليهود– على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

قال الآلوسي: "وقيل: وأنتم لها –أيها الموجودون– تشهدون على إقرار أسلافكم؛ فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً .وضُعف بأن يكون حينئذ استبعاد القتل والإجلاء منهم، مع أن أخذ الميثاق والإقرار كان من أسلافهم، لاتّصالهم بهم نسباً ودِيناً، بخلاف ما إذا اعتُبر نسبة الإقرار إليهم على الحقيقة، فإنه يكون بسبب إقرارهم وشهادتهم؛ وهو أبلغ في بيان قبيح صنيعهم. وادعى بعضهم: أنّ الأظهر: أن المراد :أقررتم حال كونكم شاهدين على إقراركم، بأن شهد كلّ أحد على إقرار غيره، كما هو طريق الشهادة؛ ولا يخفى انحطاط المبالغة حينئذ .

{ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ :}تقديره: ثم أنتم يا هؤلاء. ومنع كثير من النحاة حذف حرف النداء مع اسم الإشارة، وسوّغه بعضهم، وهو ظاهر السياق. وقيل{ :هَؤُلَاءِ }بمعنى: "الذين"، ومعناه: ثم أنتم الذين تقتلون أنفسكم... إلى آخره .وقيل: معناه: ثم أنتم اليوم: مبتدأ وخبر، أي: ثم صرتم بعد العهود والمواثيق على ما أنتم عليه من الصفة المفسَّرة بما بعده .

قال الزمخشري: "وهو استبعاد لِما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني: أنكم قوم آخرون غير أولئك المقِرّين تنزيلاً لتغيّر الصفة منزلة تغيّر الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به."

{تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ.}

{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ}؟ أي: بالفداء، وتكفرون ببعض، أي :بالقتال والإجلاء.

والاستفهام للتهديد والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله تعالى؛ إذ العهد كان بثلاثة أشياء: ترك القتل، وترك الإخراج، ومفاداة الأسارى. فقتلوا وأخرجوا على خلاف العهد، وفدَوْا بمقتضاه. وقيل: المواثيق أربعة، فزيد ترك المظاهرة.

قال الآلوسي: "وقيد الإخراج بهذه الحال، لإفادة أنه لم يكن عن استحقاق ومعصية موجبة

له. وتخصيصه بالتقييد دون القتل، للاهتمام بشأنه، لكونه أشد منه؛ والفتنة أشد من القتل. وقيل: لا، بل لكونه أقل خطراً بالنسبة إلى القتل، فكان مظنة التساهل، ولأن مساق الكلام لذمّهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم؛ وذلك مختص بصورة الإخراج؛ إذ لم يُنقل عنهم تدارك القتلى بشيء من دية أو قصاص، وهو السر في تخصيص التظاهر فيما سبق. وقيل: النكتة في إعادة تحريم الإخراج، وقد أفاده{ لاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ }بأبلغ وجه، وفي تخصيص تحريم الإخراج بالإعادة دون القتل: أنهم امتثلوا حُكماً في باب المخرج وهو الفداء، وخالفوا حُكماً وهو الإخراج؛ فجمع مع الفداء حرمة الإخراج ليتّصل به."

والذي أرشدت إليه هذه الآية الكريمة وهذا السياق :ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك، وشهادتهم له بالصحة؛ فلهذا لا يؤتَمَنون على ما فيها ولا على نقْلها، ولا يصدِّقون فيما يكتمونه من صفة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ونعْته، ومبعثه، ومخرجه، ومهاجَره، وغير ذلك من شؤونه التي قد أخبرت بها الأنبياء قبله .واليهود –عليهم لعائن الله– يتكاتمونه فيما بينهم؛ ولهذا قال تعالى{ :فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره. والمراد به هنا: الفضيحة والعقوبة، أو ضرب الجزية غابر الدهر، أو غلبة العدو، أو قتل قريظة وإجلاء النضير من منازلهم إلى أريحاء وأذرعات. وقد رُوي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– أنه قال: "كان عادة بني قريظة القتل، وعادة بني النضير الإخراج. فلما غلب رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– أجلى بني النضير، وقتل رجال قريظة، وأسر نساءهم وأطفالهم". وتنكير الخزي، للإيذان بفظاعة شأنه، وأنه بلغ مبلغاً لا يُكنه كنهه. ومن هنا لم يخصّه بعضهم ببعض الوجوه، وادّعى أنّ الأظهر في ذلك: جعل الإشارة إلى الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعض، أيّ بعض كان ولذلك أفردها؛ وحينئذ يتناول الكفرة بنبوة محمد –صلى الله تعالى عليه وسلم– ونظيره من يفعل جميع ذلك.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ}، أي: يصيرون إليه، فلا يلزم كينونتهم قبل ذلك في أشد العذاب. وقد يُراد بالرّدّ :الرجوع إلى ما كانوا فيه، كما في قوله تعالى{ :فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ}، وكأنهم كانوا في الدنيا أو في القبور في أشد العذاب أيضاً، فرُدُّوا إليه. والمراد به: الخلود في النار وأشدّيّته من حيث إنه لا انقضاء له. أو المراد: أشد جميع أنواع العذاب، ولكن

بالنسبة إلى عذاب مَن لم يفعل هذا العصيان، لأن عصيانهم أشدّ من عصيان هؤلاء؛ وجزاء سيئة سيئة مثلها.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ}،]أي: استحبوها على الآخرة واختاروها{ [لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}، أي: لا يُ ُفتَّر عنهم ساعة واحدة .

{وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}، أي: وليس لهم ناصر ينقذهم ممّا هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

قال الآلوسي{ :وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" :}اعتراض وتذييل لتأكيد الوعيد المستفاد ممّا قبله، أي: أنه بالمرصاد، لا يغفل عما تعملون من القبائح التي من جملتها هذا المنكر.

والمخاطَب به من كان مخاطَباً بالآية قبل. وروي عن عمر – رضي الله تعالى عنه– أنه قال: "إن بني إسرائيل قد مضوْا وأنتم تُعنون بهذا يا أمة محمد، وبما يجري مجراه."!

قال{ :أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ}، أي :آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة وأعرضوا عنها، مع تمكنهم من تحصيلها؛ فلا يخفف عنهم العذاب الموعودون به يوم القيامة، أو مطلق العذاب، دنيوياً كان أو أخروياً."

المعنى الإجمالي.

يذكر تعالى طامّة أخرى من طوامّ بني إسرائيل، حيث أخذ عليهم الميثاق والعهد ألاّ يقتل بعضهم بعضاً، وألاّ يُخرج بعضهم بعضاً من داره، وأقرّوا بذلك العهد، وشهدوا على أنفسهم بذلك، وبعد كلّ هذه المواثيق إذا هُم يقتل بعضهم بعضاً كما حدث في قتال كلّ طائفة منهم بجوار حليفها ضد الطائفة الأخرى، ويُخرج بعضهم بعضاً من داره، وتُناصر كلّ طائفة حلفاءها من المشركين على الطائفة الأخرى، إثماً وعدواناً بمخالفة أوامر التوراة، وتجاوز حدود هذا العهد المأخوذ عليهم. ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، فدَتْ كلّ طائفة منهم أسراها من الطائفة الأخرى ببذل المال للفداء، بل ربما بذلوا الفداء للمشركين في أسرى مَن قاتلوهم بالأمس .فعيّرهم الله تعالى باتّباعهم تعاليم التوراة في الفداء، مع تركهم الشنيع لتعاليمها في تحريم قتْل بعضهم البعض ومظاهرة المشركين على إخوانهم، وتوعّدهم تعالى بأنّ جزاءهم وجزاءَ كلِّ مَن كان هذا فعْله منهم: الخزي والعار في الدنيا، والعذاب

الشديد الأكيد يوم القيامة. فالله ليس بغافل عن هذه الأفعال الصادرة منهم، التي اشتروا بها متاع الدنيا الزائل من أحلافهم ومصالحهم الزائلة؛ فلا يرحمهم الله تعالى فيخفف عنهم عذابه، ولا يُوجد مَن يَنصرهم وُينقذهم من بطشِه سبحانه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

من مسائل الآية.

الأولى :قال تعالى{ :وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}، فقيل: لعلّ كفْرهم بما ارتكبوا لاعتقادهم عدم الحرمة مع دلالة صريح التوراة عليها، لكن في الآثار أنهم قيل لهم: "كيف تقاتلونهم ثم تفدوهم؟!". فقالوا: "أُمِرنا بالفداء وحُرِّم علينا القتال، لكنّا نستحي من حلفائنا"؛ يدل على أنهم لا ينكرون حرمة القتال. فإطلاق الكفر حينئذ على فعْل ما حُرِم، إمّا لأنه كان في شرعهم كفراً، أو أنه للتغليظ كما أُطلق على محرمات كثيرة في شرعنا. والقول بأن المعنى: "أتستعملون البعض وتتركون البعض؟!" فالكلام محمول على المجاز بهذا الاعتبار، لا اعتبار به، كالقول بأن المراد بالبعض المؤمن به: نبوّة موسى –عليه السلام–، والبعض الآخر: نبوّة نبينا –صلى الله تعالى عليه وسلم.–

هكذا قال الآلوسي –رحمه الله– وأقول: قد يكون المراد بالكفر هنا: ناقضاً من نواقض الإيمان، وهو: مظاهرة المشركين على المؤمنين –كما هو في شرعنا: فإن من نواقض "لا إله إلا الله": مظاهرة المشركين على المؤمنين–؛ فيكون الكفر على بابه في الكفر الأكبر –والله سبحانه وتعالى أعلم .–

الثانية :قال الآلوسي: "لا يرِد ما أورده الإمام الرازي: أنه كيف يكون عذاب اليهود أشدّ من الدّهريّة المنكرين للصانع، لِما سبق بيانه في معنى{ :أَشَدّ الْعَذَاب .}ولا يفيد ما قيل، لأنهم كفروا بعد معرفتهم في كتاب الله تعالى وإقرارهم وشهادتهم؛ إذ الكافر الموحِّد كيف يقال إنه أشدّ عذاباً من المشرك أو النافي للصانع، وإن كان كفْره عن علْم ومعرفة؟."

قلت: ولا مانع أن يكون هؤلاء أشدّ عذاباً كما قال تعالى{ :إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}، فجعلهم أشدّ عذاباً من الكافرين، وهؤلاء ظهر لهم الهدى فتركوه عامدين، بخلاف غيرهم؛ وهو واضح للمتأمل. وإذا نظرنا أيضاً، فإنّ إبليس–عليه لعنة الله– كان من أعرف المخلوقين بربِّه– سبحانه وتعالى–، وكان مِن أشدِّ المخلوقين عبادة، ولكنه كفر

جحوداً واستكباراً، فكان أشد المخلوقين عذاباً -والله أعلم-، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأسئلة :

١. تظاهرون : قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء على حذف إحدى الظاءين ، وقرأ الباقون بتشديد الظاء على الإدغام ، ومعناهما واحد (صح) .

٢. قوله (وإن يأتوكم أسارى) قرئت : أسرى جمع أسير ، وقرئت أسارى جمع أسرى (صح)

٣. قرئت تفادوهم هكذا ، وقرئت تفدوهم وعليه حملت القراءة الأولى لأنه لا مفاعلة ، والمفاعلة تكون من الطرفين (صح) .

٤. الفرق بين فدى وفادى أن الأول جمع الفداء ، وأما الثاني فهو مبادلة الأسير بأسير (صح)

٥. قرأ بعضهم (وما الله بغافل عما يعملون) بالياء وهي قراءة شاذة ولها معنى صحيح (خطأ) .

٦. تسفكون : الصب والإراقة (صح) .

٧. تظاهرون : من الهجر والبعد لأن كل واحد يعطي وظهره للآخر (خطأ) .

٨. الإثم : كل فعل يستحق صاحبه الذم واللوم والعقاب (صح) .

٩. العدوان : هو تجاوز الحد في الظلم (صح) .

١٠. الخزي هو الذل والهوان (صح) .

١١. الدنيا مأخوذة من الدنية أي المهينة الحقيرة (خطأ) .

١٢. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض : أي تفدوهم بحكم التوراة ، وتقتلوهم وحكم التوراة تحريم القتل (صح) .

١٣. قوله : ولا تخرجون أنفسكم ، والمراد غيركم ، لأن الرجل إذا اتصل بالآخر أصلاً وديناً يكون كنفسه (صح) .

١٤. هذه الآيات نزلت فيما كان يفعله اليهود وحلفاؤهم من الأوس والخزرج في الجاهلية من الاقتتال وأخذ الأسرى ثم بعد الرحب يفادي بعضهم بعضاً (صح) .

١٥. عبر عن الغير بالنفس في قوله : تقتلون أنفسكم ، لأن من قتل نفساً يقتل به فكأنه قتل نفسه (صح) .

١٦. ثم أقررتم وأنتم تشهدون : أي أقررتم بأن هذا هو ميثاق الله وأنتم تشاهدون ما تفعلونه من المخالفة (خطأ) .

١٧. ثم أنتم هؤلاء : أي ثم أنتم يا هؤلاء (صح) .

١٨. الاستفهام في قوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب) للتهديد والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله (صح) .

١٩. قيد الإخراج بقوله (تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) لبيان أنه لم يكن عن استحقاق ومعصية موجبة له (صح) .

٢٠. من فوائد تقييد الإخراج بقوله (تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) دون القتل الاهتمام بشأنه لكونه أشد من القتل ، والفتنة أشد من القتل (صح) .

٢١. قوله (خزي) أي : فضيحة وعقوبة أو جزية مضروبة عليهم ، والتنكير للتهويل وبيان فظاعة شأنه (صح) .

٢٢. قوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) أي : الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض ، وهو يشمل أي بعض ولو كان غير المذكور في سبب النزول (صح) .

٢٣. قوله (أشد العذاب) فيه الإشارة إلى أن ما ينالوه في الدنيا والقبر ليس هو العذاب كله ، بل هناك ما هو أشد منه يوم القيامة (صح) .

٢٤. الباء في (بغافل عما يعملون) للتبعيض ، أي ليس الله غافلاً عن أي بعض مما تعملون (خطأ) .

٢٥. وروى عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال إن بني إسرائيل قد مضوا وأنتم تعنون بهذا يا أمة محمد وبما يجري مجراه (صح) .

٢٦. إطلاق الكفر على ما فعلوه من الحرام من باب التغليظ والتشديد (صح) .

٢٧. هم في قوله (ولا هم ينصرون) لتأكيد نفي النصرة عنهم ، وأنه لا يوجد أحد ينصرهم كائناً من كان (خطأ)

٢٨. التعبير بالشراء في قوله (اشتروا الحياة الدنيا) فيه إشارة إلى حبهم للمال والتجارة (خطأ) .

٢٩. التعبير بالشراء في قوله (اشتروا الحياة الدنيا) لبيان أنهم استحبوا الحياة والدنيا واختاروها وفضلوها على الآخرة (صح) .

٣٠. التعبير بأشد العذاب من باب التشديد والتغليظ وليس المراد ظاهره ، لأن الله تعالى أخبر عن آل فرعون أيضاً أنه يدخلون أشد العذاب (خطأ) .

المحاضرة السابعة والثلاثون

***

(٨٧)و(٨٨) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ.}

القراءات:

لا يوجد أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة :

ما زال الحديث عن بني إسرائيل، قال الآلوسي{" :وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ :}شروع في بيان بعض آخر مِن جناياتهم، وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به."

لغويّات.

{وَقَفَّيْنَا :}يُقال: قَفَّاه، إذا أَتْبَعَه من القَفَا، نحو: ذَنَّبه من الذنب. وقَفَّاه به: أَتْبَعَه إيّاه. وأصل هذه الياء: واو، لأنها متى وقعت رابعة أَبْدِلَت، كما تقول :عَرَيْت من العُرْو .

{عِيسَى :}بالسريانية: يَشُوع، وبالعِبرانية: إيشوع -بهمزة ممالة بيْن بيْن، أو مكسورة-، ومعناه: السيد، وقيل: المبارك، فعُرِّب .والنسبة إليه: عِيسِيّ وعِيسَوِيّ، وجمعه: عِيسَون - بفتح السين، وقد تُضمّ.-

و{مَرْيَمَ }بالعبرية: الخادم، وسُمّيت: أم عيسى به لأن أمّها نذرتها لخدمة بيت المقدس، وقيل: العابدة، وبالعربية من النساء :مَن تحب محادثة الرجال؛ فهي كالزِّير من الرجال، وهو: الذي يحب محادثة النساء، وبه فُسِّر قول رؤبة:

قلتُ لزيرٍ لم تَصِلْهُ مَرِيَمُه...

وقيل: ولا يناسب مريم أن يكون عربياً، لأنها كانت بَرِيَّة من محادثة الرجال، اللهم إلاّ أن يقال: سُمِّيت بذلك تمليحاً، كما يُسمّى الأسود: كافوراً .

وفي القاموس: هي التي تحب محادثة الرجال، ولا تفجر .

قال الآلوسي: "والأوْلى عندي: أنّ التسمية وقعت بالعبريّ لا بالعربيّ؛ بل يكاد يتعيّن ذلك كما لا يخفى على المنصف."

قلت: وهو كما قال، ولو سمّيت بذلك عربياً جدلاً، فليس لتسميتها بذلك علاقة بالواقع؛ فهل التي تُسمَّى حفصة هي دجاجة حقيقة، أو بُسْرة هي كذلك؟ وأيضاً سمِّيت المرأة: "جميلة" وقد تكون في غاية القبح، وسُميت: مَيْسَاء، ودلال، وناهد، وعروب، ولا علاقة بين الاسم والمسمَّى.

وعن الأزهري: المريم: المرأة التي لا تحب مجالسة الرجال؛ وكأنه قيل لها ذلك، تشبيهاً لها بمريم البتول.

ووزنه عربياً: "مَفْعَل"، لا "فَيْعَلا"، لأنه لم يثبت في الأبنية على المشهور، وأثبته الصاغاني في "الذيل"، وقال: إنه مما فات سيبويه، ومنه: "عَثْيَر" للغبار، و"ضَهْيَد" بالمهملة والمعجمة للصلب، واسم "موضع" و"مَدْيَن" على القول بأصالة ميمه، و"ضَهْيَا "بالقصر وهي: المرأة التي لا تحيض أو لا ثدي لها، من المضَاهَاة؛ كأنها أُطْلق عليها ذلك لمشابهتها الرجل .وتعقّبه بعضهم بما لا نُطِيلُ بذكْره.

{الْبَيِّنَاتِ :}المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغَيَّبَات.

و{تَهْوَى :}مِن: هَوِي- بالكسر- إذا أحبّ، ومصدره: هَوَى -بالقصر-. وأما هَوَى- بالفتح -فبمعنى: سقط، ومصدره: هُوِيّ -بالضم-. وأصله: "فُعُول" فَأُعِلّ. وقال المرزوقي: هَوَى: انقضّ انقضاض النجم والطائر. والأصمعي يقول: "هَوَت العقاب" إذا انقضّت لغير الصيد، و"أَهْوَتْ" إذا انقضّت للصيد. وحكى بعضهم: أنه يقال: هَوَى يَهْوِي هَوِياً- بفتح الهاء- إذا كان القصد مِن أعلى إلى أسفل، وهَوَى يَهْوِى هُوِياً- بالضم- إذا كان من أسفل إلى أعلى؛ وما ذُكر أولاً هو المشهور. والهَوَى يكون في الحق وغيره، وإذا أضيف إلى النفس فالمراد به: الثاني في الأكثر؛ ومنه هذه الآية .

{غُلْفٌ :}جمع أَغْلَف، كأَحْمر وحُمْر، وهو الذي لا يفقه. قيل: هو مستعار مِن الأَغْلَف ذو الغلفة الذي لم يُختَن.

وقيل{ :غُلْفٌ :}تخفيف غُلُف –بضمّتيْن-: جمع غِلاف، وبه قُرِئ شاذاً، أي :قلوبنا أوعية للعلْم.

الآثار.

عن أبي مالك في قوله{ :وَقَفَّيْنَا :}أتبعنا .

و عن ابن عباس، في قوله{ :وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، يعني :التوراة جملة واحدة مفصّلة مُحكَمة{ .وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ}، يعني: رسولاً يُدعى: إِشْمِوِيل بن بابل، ورسولاً يُدعى: مِشْتَانِيل، ورسولاً يُدعى أَشْعِيَا بن أَمْصِيَا، ورسولاً يُدعى حِزْقِيل، ورسولاً يُدعى: أَرْمِيَا بن حَلْقِيَا وهو: الخضر، ورسولاً يُدعى: داود بن إيشَا وهو: أبو سليمان، ورسولاً يُدعى: المسيح عيسى بن مريم؛ فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله وانتخبهم للأمة بعد موسى بن عمران، وأخذ عليهم ميثاقاً غليظاً أن يُؤَدُّوا إلى أُمِمِهم صفة محمد –صلى الله عليه وسلم– وصفة أمّته .

وعن ابن عباس{ :وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ}، قال: هي الآيات التي وُضعت على يده من إحياء الموتى، وخلْقه من الطين كهيئة الطير، وإبراء الأسقام، والخبَر بكثير من الغيوب، وما ردّ عليهم من التوراة مع الإنجيل الذي أحدث الله إليه. وعن ابن عباس في قوله : {وَأَيَّدْنَاهُ}، قال: قَوَّيناه.

وأخرج ابن سعد، وأحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، عن عائشة)) :أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وضع لحسّان منبراً في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :–اللهم أيِّد حسّان بروح القدس، كما نافح عن نبيّه.((

قال ابن كثير، بعد ذكره لهذا الحديث: "وهذا مِن البخاري تعليق ."

قلت: قوله: تعليق، أي: من معلّقات البخاري في "الصحيح "التي أسقط منها شيخه الذي حدّثه، أو ما زاد كشيخ شيخه .وما علّقه البخاري بصيغة الجزم فهو صحيح لِمن علّقه عنه هكذا ذكر الحافظ ابن حجر باستقراء منه .

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي هريرة: أن عمر مرّ بحسان، وهو ينشد الشِّعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال :قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله! أسمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول)) :أجب عني ! اللهم أيِّدْه بروح القدس((؟ فقال: اللهم نعم !

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن البراء بن عازب: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال لحسّان)) :اهْجُهم –أو هاجهم– وجبريل معك .((!

وأخرج ابن جرير، عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقالوا :أخبرنا عن الروح! فقال)) :أنشدكم بالله، وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني؟ ((قالوا: نعم .

وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، والبغوي، وغيرهم، عن ابن مسعود: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :إنّ روح القدس نفث في روعي: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها؛ فاتّقوا الله، وأجملوا في الطلب .((!

وأخرج أبو الشيخ في "العظمة"، عن جابر، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال)) :روح القدس: جبريل.((

وأخرج الزبير بن بكار، في "أخبار المدينة"، عن الحسن، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–مَن كلّمه روح القدس لن يؤذن للأرض أن تأكل مِن لحْمه.((

و عن ابن مسعود، قال: روح القدس: جبريل .

و عن إسماعيل بن أبي خالد، في قوله{ :وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}، قال: أعانه جبريل .

وقال ابن أبي نجيح: الروح هو: حفظة على الملائكة.

و عن ابن عباس، قال: القدس: الطّهر .

و عن السدي، قال: القدس: البركة .

و عن مجاهد، قال: القدس: الله تعالى .

و عن الربيع بن أنس، قال: القدس هو: الرب تعالى.

وعن الربيع بن أنس: القدس هو: الرب تبارك وتعالى؛ وهو قول كعب .

قال ابن كثير: وحكى القرطبي، عن مجاهد والحسن البصري، أنهما قالا: القدس هو: الله

تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا يكون هو القول الأول .

وعن ابن عباس{ :بِرُوحِ الْقُدُسِ}، قال: هو الاسم الذي كان عيسى يُحيي به الموتى .

ورُوي عن سعيد بن جبير نحو ذلك .

]ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضاً، قال: وهو الاسم الأعظم .

وقال ابن زيد، في قوله تعالى{ :وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}، قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً، كما جعل القرآن روحاً، كِلاهما روح من الله، كما قال تعالى{ :وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا.}

وأما قوله تعالى{ :فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ .}

عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى{ :فريقاً}، يعني: طائفة .

قوله تعالى{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ.}

عن ابن عباس، قال: إنما سُمِّي: "القلب" لتقلّبه.

وعن ابن عباس، في قوله تعالى{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، أي: في أكِنّة .

وعن ابن عباس{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، أي: لا تفقه .

وعن ابن عباس{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ :}هي القلوب المطبوع عليها .

وقال مجاهد{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ :}عليها غشاوة .

وقال عكرمة: عليها طابع .

وقال أبو العالية: أي: لا تفقه .

وقال السدي: يقولون: عليها غلاف، وهو: الغطاء .

وعن قتادة{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ }كقوله{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}، أي: فلا يخلص إلينا شيء ممّا تقول .

و عن قتادة، قال: قالوا: لا تفقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله{ :غُلْفٌ}، قال: يقول :قلبي في غِلاف فلا يَخلُص إليه ما تقول، وقرأ{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ .}

و عن عطية، في قوله{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، قال: هي القلوب المطبوع عليها .

وعن الحسن، في قوله{ :قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، قال: لم تُختن .

قال ابن كثير: "وهذا القول يرجع معناه إلى ما تقدّم مِن عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير ."

وعن ابن عباس، أنه كان يقرأ{ :قُلُوبُنَا غُلْفٌ }مُثقلة كيف تتعلّم، وإنما{ قُلُوبُنَا غُلُفٌ } للحكمة، أي: أوعية للحكمة .

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، قال: قالوا :قلوبنا مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره .

وقال عطية العوفي{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ}، أي: أوعية للعلْم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في كتاب "الإخلاص"، وابن جرير، عن حذيفة، قال : "القلوب أربعة:

قلب أغلف، فذلك قلب الكافر .

وقلب مُصَفَّح، فذلك قلب المنافق .

وقلب أجرد فيه مثل السراج، فذلك قلب المؤمن.

وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثَل الإيمان كمثَل شجرة يمدّها ماء طيّب، ومثل النفاق كمثل قُرحة يمدّها القيح والدم؛ فأيّ المادّتيْن غلبت صاحبتَها أهلكتْه ."

وأخرج الحاكم وصححه، عن حذيفة، قال: تُعْرض فتنة على القلوب، فأيّ قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، وأيّ قلب لم يُنكرها نكتت في قلبه نكتة سوداء. ثم تعرض فتنة أخرى على القلوب، فإن أنكرها القلب الذي أنكرها نُكتت في قلبه نكتة بيضاء، وإن لم يُنكرها نكتت نكتة سوداء. ثم تعرض فتنة أخرى، فإن أنكرها ذلك القلب اشتدّ وابيضَّ وصفا ولم تضرّه فتنة أبداً، وإن لم يُنكرها كما في المرّتيْن الأُولَيَيْن اسودّ وارتدّ ونُكس؛ فلا يعرف حقاً ولا يُنكر منكراً.

وأخرج ابن ابي شيبة في كتاب "الإيمان"، والبيهقي في "شعب الإيمان"، عن علي –رضي الله عنه–، قال: "إن الإيمان يبدو لحظة بيضاء في القلب، فكلّما ازداد الإيمان عِظَماً ازداد ذلك البياض؛ فإذا استكمل الإيمان، ابيض القلب كلّه. وإنّ النفاق لحظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق عظماً ازداد ذلك السواد؛ فإذا استكمل النفاق، اسودّ القلب كلّه. وايم الله! لو شققتم على قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود."

وأخرج أحمد بسند جيد، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم :-))القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يُزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفّح. وأمّا القلب الأجرد فقلْب المؤمن سراجه فيه نوره. وأما القلْب الأغلف فقلب الكافر. وأما القلْب المنكوس فقلْب المنافق الكافر، عرف ثم أنكر. وأما القلب المصفّح فقلب فيه إيمان ونفاق؛ ومثل الإيمان كمثل البقلة يمدّها الماء الطّيّب، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأيّ المادتيْن غلبت على الأخرى غلبتْ عليه .((

و عن سلمان الفارسي، موقوفاً، مثله سواء .

و عن قتادة، في قوله{ :فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ}، قال: لا يؤمن منهم إلاّ قليل.

أقوال المفسّرين.

ينعت- تبارك وتعالى- بني إسرائيل بالعتوّ والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتّبعون أهواءهم؛ فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب -وهو التوراة في قول الجمهور- فحرّفوها وبدّلوها، وخالفوا أوامرها وأوَّلوها .

والمراد بإيتائها له: إنزالها عليه .

وقد رُوى عن ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما-: أن التوراة نزلت جملة واحدة، فأمر الله تعالى موسى -عليه السلام- بحمْلها فلم يُطق، فبعث بكل حرف منها ملكاً، فلم يطيقوا حمْلها؛ فخفّفها الله تعالى لموسى -عليه السلام-، فحمَلها. وقيل: يُحتمل أن يكون {آتَيْنَا }...إلخ: أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود والأحكام والأنباء والقصص وغير ذلك ممّا فيه؛ والكلام على حذف مضاف، أي: علْم الكتاب أو فهْمه؛ وليس بالظاهر.

وأرسل الله الرسل والنبيّين مِن بعْده، الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى{ :إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ }...الآية؛ ولهذا قال{ :وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ}، قال أبو مالك: أتبعنا. وقال غيره :أردفنا. والكلّ قريب، كما قال تعالى{ :ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا} ، يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل .

قيل: وكانوا إلى زمن عيسى -عليه السلام- أربعة آلاف، وقيل: سبعين ألْفاً، وكلّهم على شريعته -عليه السلام-، منهم: يوشع، وشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وأشعيا، وأرميا، وعزير، وحزقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم... -عليهم الصلاة والسلام.-

حتى خُتم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله تعالى من البيِّنات، وهي المعجزات، قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلْقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طائراً بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، والتأييد بروح القدس -وهو: جبريل -عليه السلام-، ما يدلّهم به على صدْقه فيما جاءهم به .

فتشمل البيّنات كلَّ معجزة أُوتيها -عليه السلام-، وهو الظاهر؛ وقيل: الإنجيل .

وأفرده عن الرسل -عليهم السلام- لتميُّزه عنهم، لكونه من أولي العزم، وصاحب كتاب، وقيل: لأنه ليس متَّبعاً لشريعة موسى -عليه السلام-، حيث نسخ كثيراً من شريعته. وأضافه إلى أمه رداً على اليهود إذ زعموا أن له أباً.

فاشتدّ تكذيب بني إسرائيل له، وحسدهم وعنادهم لمخالفته التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى{ :وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ }...الآية .

فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، ففريقاً يُكذِّبون، وفريقاً يُكذِّبونه ويقتلونه.

وما ذاك إلاّ لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرّفوا في مخالفتها؛ فلهذا كان يشقّ عليهم ذلك فيكذِّبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى{ :أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ.}

{وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}، أي: قوّيناه بجبريل -عليه السلام .-وإطلاق روح القدس عليه شائع، فقد قال سبحانه{ :قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ.}

قال ابن كثير: والدليل على أنّ روح القدس هو جبريل، كما نصّ عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وإسماعيل بن أبي خالد، والسدي ، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وقتادة، مع قوله تعالى{ :نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ }

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ :}ما قاله البخاري... فذكر حديث عائشة في شِعْر حسّان، ثم أتبعه بحديث أبي هريرة. ثم قال] :وفي شعر حسّان قوله :

وجِبريل رسولُ الله فينا	ورُوح القُدْس ليس به خَفاءُ

وذكَر ما يؤيِّد ذلك من روايات أخرى تقدّمت في الآثار، ثم ذكر الأقوال الأخرى .

قال ابن جرير: وأَوْلى التأويلات في ذلك بالصّواب: قول من قال: الروح في هذا الموضع: جبريل، لأن الله –عز وجل –أخبر أنه أيّد عيسى به، كما أخبر في قوله{ :إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالأِنْجِيلَ }...الآية؛ فذكر أنه أيّده به. فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل، لكان قوله{ :إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ}،{ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ }تكرير قول لا معنى له، والله أعزّ أن يُخاطِب عباده بما لا يُفيدهم.

قال ابن كثير: قلت: ومن الدليل على أنه جبريل: ما تقدّم في أوّل السياق –ولله الحمد.– وخُص عيسى –عليه السلام– بذكر التأييد بروح القدس، لأنه تعالى خصّه به من وقْت صباه إلى حال كِبَره، كما قال تعالى{ :إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً.}

و{الْقُدُسِ :}الطهارة والبركة، أو التقديس، ومعناه: التطهير، والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة، للمبالغة في الاختصاص.

وقال مجاهد، والربيع{ :الْقُدُسِ :}مِن أسماء الله تعالى كالقُدُّوس .وقد قرأ أبو حيوة{ :بِرُوحِ الْقُدُّوسِ }بواو.

]وقال الزمخشري{ :بِرُوحِ الْقُدُسِ :}بالروح المقدّسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدْق. ووصفها بالقدس كما قال{ :وَرُوحٌ مِنْهُ }فوصفه بالاختصاص، والتقريب للكرامة. وقيل: لأنه لم يضمّنه الأصلاب والأرحام الطوامث. وقيل: بجبريل. وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن{ :رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا .}وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يُحيي الموتى بذِكْره .

قال الآلوسي: وقيل: روح عيسى –عليه السلام– نفْسه، ووصفها به لطهارتها عن مس الشيطان، أو لكرامته عليه تعالى، ولذلك أضافها إلى نفسه، أو لأنه لم يضمّنه الأصلاب ولا

أرحام الطوامث، بل حصل من نفخ جبريل –عليه السلام– في درع أمِّه فدخلت النفخة في جوفها.

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ :}فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، إعراضاً عن مخاطبتهم، وإبعاداً لهم عن عز الحضور .والقائلون هم: الموجودون في عصر النبي –صلى الله تعالى عليه وسلم.–

وذكر ابن كثير هنا الآثار في أن المراد: عليها غشاوة، ثم قال :وهذا الذي رجّحه ابن جرير، واستشهد بما رُوي عن حذيفة، قال: القلوب أربعة، فذكر منها: وقلب أغلف مغضوب عليه، وذاك قلب الكافر .

وجاء في الآثار: أنّ معنى{ :قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، أي: أوعية للعلْم؛ وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأمصار فيما حكاه ابن جرير{ :وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ– }بضم اللام– [ونقلها الزمخشري عن أبي عمرو، وحكاها القرطبي عن ابن عباس، والأعرج، وابن محيصن]، أي: جمع غِلاف، أي: أوعية، بمعنى: أنهم ادَّعوْا أنّ قلوبهم مملوءة بعلْم لا يحتاجون معه إلى عْلم آخر،كما كانوا يمُنُّون بعلْم التوراة.

]وقال القرطبي: معناه: وقالوا: قلوبنا أوعية للعلْم، فما بالها لا تفهم قول محمد؟! والأوّل أوْلى، وهو المنصوص عن ابن عباس، لأنهم يقولون: نحن في غُنية بما عندنا من العلْم عمّا جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم .–

وهذا شبيه بقوله تعالى{ :فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . [}

قال الآلوسي: وأرادوا على الأوّل: قلوبنا مُغشّاة بأغشية خلْقية مانعة عن نفوذ ما جئتَ به فيها، وهذا كقولهم{ :قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ}، قصدوا به: إقناط النبي– صلى الله تعالى عليه وسلم– عن الإجابة، وقطْع طمَعه عنهم بالكلية. وقيل: مُغشّاة بعلوم من التوراة نحفظها أن يصل إليها ما تأتي به، أو بسلامة من الفطرة كذلك .

وعلى الثاني: أنها أوعية العلْم، فلو كان ما تقوله حقاً وصدْقاً لَوَعته، أو مملوءة علْما فلا تسَع بعدُ شيئاً؛ فنحن مُستغنون بما عندنا عن غيره. وقيل: أرادوا أنها أوعية العلْم، فكيف يحلّ لنا اتّباع الأمّيّ؛ ولا يخفى بُعده.

قال تعالى{ :بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ}، أي: ليس الأمر كما ادَّعوْا، بل

قلوبهم ملعونة، مطبوع عليها، كما قال في سورة (النساء){ :وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً .}

وهو ردّ لِما قالوه، وتكذيب لهم فيما زعموه. والمعنى: أنها خُلقت على فطرة التّمكّن مِن النظر الصحيح الموصِل إلى الحق؛ لكنّ الله تعالى أبْعدهم، وأبطل استعدادهم الخلقي للنظر الصحيح، بسبب اعتقاداتهم الفاسدة، وجهالاتهم الباطلة الراسخة في قلوبهم، أو أنها لم تأب قبول ما تقوله لِعدم كونه حقاً وصدقاً، بل لأنه سبحانه طرَدهم وخذلهم بكفرهم، فأصمّهم وأعمى أبصارهم، أو أنّ الله تعالى أقصاهم عن رحمته؛ فأنى لهم ادّعاء العلْم الذي هو أجلّ آثارها .

وقد اختلفوا في معنى قوله تعالى{ :فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ}، وقوله{ :فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}، فقال بعضهم :فقليل مَن يؤمن منهم، [اختاره فخر الدين الرازي، وحكاه عن قتادة، والأصم، وأبي مسلم الأصفهاني]. وقيل: فقليل إيمانهم، بمعنى: أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى مِن أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد -صلى الله عليه وسلم .-

وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال{ :فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ}، وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: "قلّما رأيت مثل هذا قط"، تريد: "ما رأيت مثل هذا قط".
[وقال الكسائي: تقول العرب: "مررنا بأرض قلّما تُنبت"، أي لا تُنبت شيئا]؛ حكاه ابن جرير -رحمه الله-، والله أعلم.

المعنى الإجمالي.

يذكر تعالى: أنه قد أنعم على بني إسرائيل بنعمة عظيمة، بل هي أعظم نعمة عليهم؛ حيث أنزل على موسى -عليه السلام -التوراة الشاملة للهدى والنور، ثم أتبعه بطائفة من الرسل المكرمين يتلو بعضهم بعضاً ليسوسوا بني إسرائيل، حتى ختمهم بالنبي الكريم عيسى بن مريم -عليه السلام -الذي أيده بالآيات المعجزات والدلائل الباهرات التي تشهد بصدْقه، وقوّاه ونصَره بالملَك الكريم المطهَّر: جبريل- عليه السلام-، منذ صغره. فكان مقابلة ذلك من هؤلاء المجرمين الجاحدين، أن ردّوا الحق الذي جاءهم به هؤلاء الأنبياء، مستكبرين عنه، كلّما

خالف ما تهواه وتحبّه نفوسهم. فكذّبوا بعضاً من أنبيائهم، ووصل بهم الجُرم إلى قتْلهم بعض أنبيائهم، كما فعلوا مع يحيى وزكريا -عليهما السلام-. وبقي ذلك في أبنائهم، حتى همّوا بذلك مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فوضعوا له السُّمّ، فلم يُمكِّنهم الله مِن قتْله فوراً، ليُكمل البلاغ، حتى حان أوانُ موته، فجمع له الله الشهادة مع النبوة، حيث مات مِن أثر هذا السّمّ.

كما ذكر الله تعالى صورة مِن صُوَر ردّهم الحق من أنبياء الله، حيث قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إن قلوبهم لا تعي ما يقول ولا تفهمه، فهي مغلّفة، عليها الأغشية تمنعها من أن تعِيَ كلامه؛ فبيّن الله سبحانه أنّ ذلك بسبب طرْده إياهم من رحمته، وطبْعِه الذي طبَعه على هذه القلوب بسبب كفرهم وعنادهم، فلا يحصل لهم الإيمان إلاّ للقليل منهم، الذي ترك العناد والمكابرة، ونجا من هذا اللّعْن والطّبْع.

مسائل الآية.

الأولى :

قال الزمخشري: فإن قلت: هلاّ قيل: "وفريقاً قتلْتم"؟ قلت: هو على وجهيْن: أن تُراد الحال الماضية، لأن الأمر فظيع، فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب. وأن يراد: وفريقاً تقتلونهم بعْد، لأنكم تحومون حول قتْل محمد- صلى الله عليه وسلم-، لولا أني أعصمه منكم؛ ولذلك سحرتموه، وسممتم له الشاة. وقال -صلى الله عليه وسلم- عند موته)) :ما زالت أكلة خيبر تُعاودني؛ فهذا أوانُ انقطاع أبهري.((

قال ابن كثير: وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره...

وقال الآلوسي: عبّر بالمضارع، حكاية للحال الماضية، واستحضاراً لصورتها، لفظاعتها واستعظامها، أو مشاكلة للأفعال المضارعة الواقعة في الفواصل فيما قبل، أو للدلالة على أنكم الآن فيه؛ فإنكم حول قتْل محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم-، ولولا أني أعصمه لقتلتموه؛ ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. فالمضارع للحال، ولا ينافيه قتل البعض. والمراد من القتل: مباشرة الأسباب الموجبة لزوال الحياة، سواء ترتّب عليه أو لا. وقيل: لا حاجة إلى التعميم، لأنه -صلى الله تعالى عليه وسلم- قُتل حقيقة بالسم الذي تناوله، على ما وقع في

الصحيح... وفيه: أنه لم يتحقق منهم القتل زمان نزول الآية، بل مباشرة الأسباب؛ فلا بدّ من التعميم.

الثانية:

قوله تعالى{ :بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}، وشبيهتها في) النساء{ :(بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ :}مِن الضّربات القاضية على مذهب المعتزلة. وقد حاول الزمخشري الروغان منها، كما هي عادته بالتعلل بكلمة: "اللطف" و"الألطاف"، فقال:

ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك، لأنها خُلقت على الفطرة والتمكّن من قبول الحق، بأنّ الله لعَنهم وخذلهم بسبب كفْرهم؛ فهُم الذين غلّفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة، وتسبّبوا بذلك لمنع الألطاف التي تكون للمتوقّع إيمانهم وللمؤمنين.

فنفى –غفر الله له– أن تكون قلوبهم مخلوقة هكذا. ثم نص على إحداثهم الكفر؛ وهذه شنشنة لنفي خلْق أفعال العباد، ونسبة خلْق الشر لفاعلِيه. وقد تقدّم طرف من الرّدود عليه في قوله{ :خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، فلا نعيد بذكْره، والمسألة مبحوثة مطوّلة في كتب العقيدة.

الأسئلة :

١. الواو في (ولقد) هي واو القسم لبيان كمال الاهتمام به (صح) .

٢. قوله (وقفينا) لبيان أن الرسل بعده كانوا على عهده ودينه (خطأ) .

٣. معنى عيسى بالعبرية (السيد والمبارك) (صح) .

٤. مريم بالعربية من تحب محادثة الرجال ، وبه فسر قول رؤبة :

قلت لزير لم تصله مريمه (صح) .

٥. رجح الألوسي أن مريم اسم أعجمي وليس عربياً (صح) .

٦. الصحيح أنه لا علاقة بين الاسم والمسمى ، فقد يسمى الإنسان باسم وهو من أبعد الناس عن معناه (صح) .

٧. وعن الأزهري المريم المرأة التي لا تحب مجالسة الرجال وكأنه قيل لها ذلك تشبيها لها بمريم البتول (صح) .

٨. (البينات) أي : الآيات الواضحات والحجج القاهرات (صح) .

٩. الهوى حب الشيء الباطل خاصة (خطأ) .

١٠. قولهم (قلوبنا غلف) أي : لا تفقه (صح) .

١١. قولهم (قولبنا غلف) تخفيف (غلف) بضمتين ؛ جمع غلاف ، أي : أوعية للعلم لا تحتاج لعلم محمد وغيره ، وفيه قراءة متواترة بالضم (خطأ) .

١٢. (وأيدناه بروح القدس) وهو ما نفخ في أمه من الروح الذي كان منه عيسى (خطأ)

١٣. (وأيدناه بروح القدس) هو ما أعطاه الله من ضمن الآيات أنه إذا نفخ في الميت أحياه بإذن الله (خطأ) .

١٤. الحديث المعلق هو ما أسقط الراوي منه شيخه أو أكثر منه ، وهو من أنواع الحديث الضعيف ، وقد كثر في الصحيحين في تراجم الأبواب ، ولم يذكر البخاري المعلقات في الأصول لأنها غير صحيحة (خطأ) .

١٥. الحديث المعلق هو الحديث الذي صرح فيه الراوي بذكر شيخه فكأنه علقه به وقد كثر في صحيح البخاري ذكر المعلقات (خطأ) .

١٦. الأحاديث المعلقة في صحيح البخاري كثيرة ، منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف مردود (صح) .

١٧. الصحيح في روح القدس أنه الإنجيل الذي أعطاه إياه ربه كما قال في القرآن الذي أعطاه لمحمد أنه روح (خطأ) .

١٨. أفرد ذكر عيسى عن باقي الرسل عليهم السلام لتميزه عنهم لكونه من أولى العزم وصاحب كتاب وقيل لأنه ليس متبعا لشريعة موسى عليه السلام حيث نسخ كثيرا من شريعته وأضافه إلى أمه ردا على اليهود إذ زعموا أن له أبا (صح)

١٩. معنى (القدس) الطهارة والبركة (صح) .

٢٠. وقالوا قلوبنا غلف فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عن مخاطبتهم وإبعادا لهم عن عز الحضور والقائلون هم الموجودون في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (صح) .

٢١. (وقالوا قلوبنا غلف) أي : هي أوعية للعلم والحكمة فلا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره ، وقد جاء هذا المعنى عن ابن عباس وغيره (صح) .

٢٢. قوله تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم) فيها دليل واضح على إثبات القضاء والقدر وخلق أفعال العباد ورد على مذهب المعتزلة (صح) .

٢٣. قوله تعالى (وفريقاً يقتلون) ولم يقل (وفريقاً قتلتم) للدلالة على أن هذه الحال مستمرة فيهم وهي قتل الأنبياء (صح) .

٢٤. قوله تعالى (وفريقاً يقتلون) ولم يقل (وفريقاً قتلتم) من باب بيان فظاعة هذا الأمر (صح) .

٢٥. ذكر في كتب التفسير أن اليهود سموا النبي ﷺ يوم خيبر ، وأن موته كان بسبب ذلك السم ، وحديث السم يوم خيبر صحيح ، أما مسألة موت النبي ﷺ بهذا السم فلم تثبت صحتها والله أعلم (خطأ) .

٢٦. الآيات فيها إثبات أن الله تعالى هو الذي يختم على القلوب بعلمه وحكمته سبحانه ، وأنه يعاقب الكافر بأن يحرمه الخير والهدى وهو رد على مذهب المعتزلة في ذلك (صح) .

٢٧. قوله تعالى (فقليلاً ما يؤمنون) فيها بيان أن منهم من يؤمن ولكنهم قليل (صح) .

٢٣ . قوله تعالى : (فقليلاً ما يؤمنون) معناه أن إيمانهم بالقليل مما جاء به موسى لا ينفعهم لأنهم لم يؤمنوا بكل ما يجب عليهم الإيمان به (صح) .

٢٨. قوله تعالى : (فقليلاً ما يؤمنون) معناه : لا يؤمنون ولا قليلاً بل هم كفار بكل شيء كما تقول العرب : قلما رأيت مثل هذا وتريد : ما رأيت مثل هذا (صح) .

٢٩. الباء في قوله (بل لعنهم الله بكفرهم) هي التبعيضية ، أي : ببعض كفرهم وهو دليل على أن العبد قد يلعنه الله بعمل واحد من أعمال الكفر (خطأ) .

٣٠. اللعن هو الطرد من رحمة الله الخاصة يوم القيامة (صح) .

المحاضرة الثامنة والثلاثون

***

تفسير الآيات من (٨٩) إلى (٩٢) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ.}

قراءات:

لا يوجد في الآيات أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

لا زلنا مع بني إسرائيل وسوْق فضائحهم ومخازيهم، والآيات استكمال لِمَا سبق في الآية من مواقف يهود مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإنكارهم بعثته، وكتمهم صفته.

لغويات.

{يَسْتَفْتِحُونَ :}السين للمبالغة، أي: يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في: استعجب واستسخر، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم .

والبغْي :في الأصل: الظلم والفساد، مِن قولهم: بَغَى الجرح، أي: فسد؛ قاله الأصمعي. وقيل: أصله: الطّلب، وتختلف أنواعه: ففي طلب زوال النعمة: حسد، والتجاوز على الغير: ظُلم. والمراد به هنا، بمعونة المقام: طلب ما ليس لهم؛ فيؤول إلى الحسد.

{فَبَاءُوا :}باء إلى الشيء، يَبُوء بَوْءاً، أي :رجع، وباء بذنبه وبإثمه :احتمله، وصار المذنِب مأوى الذنْب. وباءوا بغضب أي: احتملوه، يقال: قد بُؤت بهذا الذنب، أي: احتملته.

والمهين :المذِلّ، وأصله: مُهْوِن فَأُعِل.

ووراء :في الأصل: مصدر لاشتقاق المواراة، والتواري منه، ثم جُعل ظرف مكان. ويضاف إلى الفاعل فيراد به المفعول، وإلى المفعول فيراد به الفاعل، أعني: السائر. ولصدْقه على الضِّدّيْن: الخلف والأمام، عُدّ من الأضداد، وليس موضوعاً لهما .وصرّح بعضهم بأنه ليس منها، وإنما هو من المواراة والاستتار، فما استتر عنك فهو: وراء، خَلفاً كان أو قُدّاماً إذا لم تره، فأمّا إذا رأيته فلا يكون وراءك.

الآثار.

عن قتادة، في قوله{ :وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، قال: هو القرآن،{ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ}، قال: من التوراة والإنجيل.

عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم، قال: فينا والله وفيهم –يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم– نزلت هذه القصة، يعني{ :وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}، قال :كنا قد علوناهم دهراً في الجاهلية، ونحن أهل شرْك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون :

إن نبياً يُبعث الآن نتّبعه، قد أظل زمانه؛ فنقتلكم معه قتْل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش (واتّبعناه)، كفروا به؛ يقول الله تعالى{ :فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .}

وعن ابن عباس: أن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله –صلى الله عليه وسلم– قبل مبعثه، فلمّا بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، وداود بن سلمة: يا معشر يهود! اتقوا الله، وأسلموا! فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد –صلى الله عليه وسلم– ونحن أهل شرك، وتُخبرونا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته! فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير :ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذْكر لكم! فأنزل الله في ذلك من قولهم{ :وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا

جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .}

وعن ابن عباس{ :وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، يقول: يستنصرون بخروج محمد –صلى الله عليه وسلم– على مشركي العرب –يعني بذلك أهل الكتاب–، فلما بُعث محمد– صلى الله عليه وسلم– ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه .

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد –صلى الله عليه وسلم– على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا، حتى نعذِّب المشركين ونقتُلهم. فلما بعث الله محمداً –صلى الله عليه وسلم–، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؛ فقال الله{ :فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .}

وقال قتادة{ :وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي،{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .}

و عن قتادة أيضاً، قال: كانت اليهود تستفتح بمحمد على كفار العرب، يقولون: اللهم ابعث النبي الذي نجده في التوراة يعذِّبهم ويقتلهم، فلما بعث الله محمداً كفروا به حين رأوه بُعث من غيرهم، حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله.

وعن السدي بأسانيده، قال: كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم، وكانوا يجدون محمداً في التوراة، فيسألون الله أن يبعثه نبياً فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل.

وعن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر، قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل، فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بيسير، حتى وقف على مجلس بني الأشهل .قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً، علي بردة مضطجعاً فيها بفناء أهلي. فذكَر البعث، والقيامة، والحساب، والميزان، والجنة، والنار، قال: ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان! ترى هذا كائناً أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يُجزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يُحلف به! يودّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنّور في الدنيا يحمونه ثم يُدخلونه إياه فيطيّنونه عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً .

قالوا له: ويحك! وما آية ذلك؟ قال: نبي يُبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. فقالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ -وأنا مِن أحدثِهم سناً-: أن يستنفذ هذا الغلام عمره يُدركُه. قال سلمة: فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله- صلى الله عليه وسلم- وهو بين أظهرنا، فآمنا به، وكفَر به بغياً وحسداً. فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالذي قلت لنا؟ !قال: بلى! وليس به.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، قال: يستظهرون، يقولون: نحن نعين محمداً عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون .

وأخرج أبو نعيم في" الدلائل "من طريق عطاء، والضحاك عن ابن عباس، قال: كانت يهود بني قريظة والنضير من قبلِ أن يُبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- يستفتحون الله، يدْعون على الذين كفروا، ويقولون :اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلاّ نصرتنا عليهم !فيُنصرون. فلما جاءهم ما عرفوا -يريد: محمداً- ولم يَشكّوا فيه كفروا به.

وهذا إسناده ضعيف، لا يُحتجّ به .

وأخرج أبو نعيم في "الدلائل" من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: كان يهود أهل المدينة قبل قدوم النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قاتلوا مَن يليهم من مشركي العرب من أسد وغطفان وجهينة وعَذِرة، يستفتحون عليهم ويستنصرون، يدْعون عليهم باسم نبي الله، فيقولون :اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك، وبكتابك الذي تُنزل عليه الذي وعدْتَنا إنك باعثه في آخر الزمان!

وهذا إسناده تالف.

وأخرج الحاكم والبيهقي في "الدلائل" -قال السيوطي: بسند ضعيف-، عن ابن عباس، قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوْا، هُزمت يهود، فعاذت بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدْتنا أن تُخرجه لنا في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم! فكانوا إذا التقوْا دعوْا بهذا، فهزموا غطفان. فلما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- كفروا به، فأنزل الله{ :وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، يعني: وقد كانوا يستفتحون بك يا محمد، إلى قوله{ :فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .}

وعن مجاهد{ :فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ :}هم اليهود.

و عن سعيد بن جبير، في قوله{ :فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}، قال: نزلت في اليهود، عرفوا محمداً أنه نبي، وكفروا به.

عن قتادة، في قوله{ :بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ }...الآية، قال: هم اليهود، كفروا بما أنزل الله، وبمحمد –صلى الله عليه وسلم– بغياً وحسداً للعرب.

قال مجاهد{ :بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ :}يهود شرَوا الحق بالباطل، وكتمان ما جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم– بأن يبيِّنوه .

وقال السدي{ :بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ}، يقول: باعوا به أنفسهم، يعني: بئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به، [وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته]، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية{ :أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}؛ ولا حسد أعظم من هذا .

وعن ابن عباس{ :بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، أي: أن الله جعله من غيرهم،{ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ .}

وأخرج الطستي في" مسائله"، عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله– عز وجل{ :–بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ}، قال: بئس ما باعوا به أنفسهم، حيث باعوا نصيبهم من الآخرة بطمع يسير من الدنيا. قال: وهل تعرف ذلك؟ قال :نعم. أما سمعت الشاعر وهو يقول:

يُعطَى بها ثَمناً فيَمْنَعَها	ويقول صاحبها ألا تَشْرِى

وعن ابن عباس: فالغضب على الغضب: غضبه عليهم فيما كانوا ضَيَّعُوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم.

وعن مجاهد{ :فَبَاءُوا بِغَضَبٍ :}اليهود .غضب بما كان من تبديلهم التوراة قبل خروج النبي –صلى الله عليه وسلم–،{ عَلَى غَضَبٍ :}جحودهم النبي– صلى الله عليه وسلم– وكفرهم بما جاء به .

وقال أبو العالية: غَضِب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب عليهم بكفرهم

بمحمد وبالقرآن –عليهما السلام .–

وعن عكرمة{ :فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}، قال: كفرهم بعيسى، وكفرهم بمحمد.

عن قتادة، في قوله{ :فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}، قال: غضب الله عليهم مرتيْن: بكفرهم بالإنجيل وبعيسى، وبكفرهم بالقرآن وبمحمد.

قال السدي :أمّا الغضب الأول :فهو حين غضب عليهم في العِجل، وأما الغضب الثاني : فغضب عليهم حين كفروا بمحمد –صلى الله عليه وسلم .–

وعن ابن عباس مثله.

عن أبي العالية في قوله{ :وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ}، قال: بما بعده.

وعن السدي في قوله{ :وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ}، قال: القرآن.

أقوال المفسّرين.

يقول تعالى{ :وَلَمَّا جَاءَهُمْ}، يعني: اليهود،{ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }وهو القرآن الذي أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم–،{ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ} ، يعني: من التوراة .

وجواب{ لَمَّا }محذوف، وتقديره نحو: كذّبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أشبه ذلك ...

وقوله{ :وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم؛ يقولون: إنه سيُبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فالسين للطلب، والفتح مضمّن معنى النصر، لتعديته بـ{عَلَى}، أو يفتحون عليهم، من قولهم: فتح عليه، إذا علّمه، كما في قوله تعالى{ :أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}، أي: يعرفون المشركين أن نبياً يُبعث منهم، وقد قرب زمانه .

وقيل{ :يَسْتَفْتِحُونَ}، بمعنى: يستخبرون عنه –صلى الله تعالى عليه وسلم–، هل ولد مولود صفته كذا وكذا؟ نقله الراغب وغيره...

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ :}كنى عن الكتاب المتقدّم. ويحتمل أن يراد به: النبي – صلى الله تعالى عليه وسلم–؛ و{مَا }قد يُعبّر بها عن صفات مَن يعقل. وبعضهم فسّره بالحقّ، إشارة إلى وجه التعبير عنه– عليه الصلاة والسلام– بـ{مَا}، وهو أنّ المراد به: الحق،

لا خصوصية ذاته المطهّرة .

وعِرفانهم ذلك حصل بدلالة المعجزات، والموافقة لما نُعت في كتابهم؛ فإنه كالصريح عند الراسخين .

واللام في{ :الْكَافِرِين }للعهد، أي: عليهم. ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بأنّ حلول اللعنة عليهم بسبب كفْرهم، كما أنّ الفاء للإيذان بترتّبها عليه.

وجُوّز كونها للجنس، ويدخلون فيه دخولاً أوّلياً، لأن الكلام سيق بالأصالة فيهم، ويكون ذلك من الكناية الإيمائية، ويصار إليها إذا كان الموصوف مبالغاً في ذلك الوصف ومنهمكاً فيه حتى إذا ذُكر خطر ذلك الوصف بالبال، كقولهم لمن يقتني رذيلة ويصرّ عليها :أنا إذا نظرتك خطر ببالي سبابك وسباب كلّ من هو من أبناء جنسك .

فاليهود لما بالغوا في الكفر والعناد، وكتمان أمر الرسول -صلى الله تعالى عليه وسلم-، ونعى الله تعالى عليهم ذلك، صار الكفر كأنه صفة غير مفارقة لذِكْرهم، وكان هذا الكلام لازماً لذكْرهم ورديفه، وأنهم أوْلى الناس دخولاً فيه، لكونهم تسبّبوا استجلاب هذا القول في غيرهم.

{ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، أي: باعوا؛ فالأنفس بمنزلة المثمَّن، والكفر بمنزلة الثمن، لأن أنفسهم الخبيثة لا تُشترى بل تباع. وهو على الاستعارة، أي: إنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وبذلوا أنفسهم فيه.

وقيل: هو بمعناه المشهور، لأن المكلّف إذا خاف على نفسه من العقاب أتى بأعمال يظن أنها تخلِّصه؛ فكأنه اشترى نفسه بها. فهؤلاء اليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنه يخلِّصهم من العقاب، ظنوا أنهم اشتروا أنفسهم وخلّصوها، فذمّهم الله تعالى عليه.

قلت: ولا يمنع أن يكون اشتراؤهم لحظوظ أنفسهم على تقدير مضاف محذوف، لأنهم لتعلّقهم بشهوات النفس يرون فيها بقاءها؛ فهم اشتروا شهواتهم لإبقاء أنفسهم في مقابل الكفر.

{بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ :}يفيد أنّ كفرهم كان لمجرّد العناد الذي هو نتيجة الحسد، لا للجهل؛ وهو أبلغ في الذم لأن الجاهل قد يُعذر .

{عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، أي: على من يختاره لرسالته. وفي "البحر" أنّ المراد به: محمد- صلى الله تعالى عليه وسلم-، لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم، وكان من العرب ومِن ولد إسماعيل، ولم يكن مِن ولده نبي سواه -عليه الصلاة والسلام.-

ومعنى{ :فَبَاءُوا :}أي: استوجبوا، واستحقّوا، واستقرّوا{ .بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}، أي: فرجعوا متلبّسين بغضب كائن على غضب مستحقّين له، حسبما اقترفوا من الكفر والحسد.

ورُوي أن الغضب الأول لعبادة العجل، والثاني لكفْرهم به -صلى الله عليه وسلم .-وقيل: الأول: كفرهم بالإنجيل، والثاني كفرهم بالقرآن .وقيل: هما الكفر بعيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-، أو قولهم{ :عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ }و{يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ}، وغير ذلك من أنواع كفْرهم وكفْرهم الأخير بالنبي -صلى الله تعالى عليه وسلم.-

ولا يخفى أنّ فاء العطف يقتضي صيرورتهم أحقّاء بترادف الغضب، لأجل ما تقدم، وقولهم : {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ }مثلاً غير مذكور فيما سبق.

ويُحتمل أن يراد بقوله سبحانه{ :بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ :}الترادف والتكاثر، لا غضَبان فقط؛ وفيه إيذانٌ بتشديد الحال عليهم جداً، كما في قوله:

ولو كان رُمْحاً وَاحِداً لاتَّقَيْتُهُ	ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

ومِن الناس مَن زعم أنّ الفاء فصيحة، والمعنى: فإذا كفروا وحسدوا على ما ذكر، باؤوا... إلخ، وليس بشيء.

وقوله{ :وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ :}لما كان كفْرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التّكبّر، قوبلوا بالإهانة والصَّغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى{ :إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، أي: [صاغرين حقيرين، ذليلين راغمين] .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال)) :يُحشر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذّرِّ في صوَر الناس، يعلوهم كلّ شيء مِن الصَّغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يُقال له: بولس؛ فتعلوهم نار الأنيار، يُسقَوْن من طينة الخبال: عصارة أهل النار .((

{ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ :}اللام في{ :الْكَافِرِين }للعهد، والإظهار في موضع الإضمار، للإيذان بعلية كفْرهم .ويحتمل أن تكون للعموم، فيدخل المعهودون فيه على طراز ما مرّ .

وإسناد "المهين" إلى العذاب: مجاز من الإسناد إلى السبب، والوصف به للتقييد والاختصاص الذي يفهمه تقديم الخبر بالنسبة إليه. فغير الكافرين إذا عُذِّب فإنما يُعذَّب للتطهير لا للإهانة والإذلال، ولذا لم يوصف عذاب غيرهم به في القرآن .

ثم يقول تعالى{ :وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، أي :لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب{ :آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، أي: على محمد –صلى الله عليه وسلم–، وصدِّقوه واتّبعوه، قالوا{ : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا.}

قال ابن كثير: أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل، ولا نُقرّ إلا بذلك.

قلت: في ذكره الإنجيل هنا نظر، لأنهم لم يؤمنوا بالإنجيل، بل كذّبوا به وبمن نزل عليه.

{وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ}، يعني: بما بعده،{ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ }أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– الحق،{ مُصَدِّقاً :}منصوب على الحال، أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل؛ فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .}

قال الآلوسي: وإذا قيل لهم: لا غرض يتعلق بالقائل، فلذا بُني الفعل لِما لَمْ يُسمَّ فاعله، والظاهر أنه من جانب المؤمنين.

{آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ :}الجمهور على أنه القرآن، وقيل: سائر ما أنزل مِن الكتب الإلهية، إجراء لما على العموم، ومع هذا جُلّ الغرض: الأمر بالإيمان بالقرآن، لكن سلك مسلك التعميم منه إشعاراً بتحتّم الامتثال من حيث مشاركته لِما آمنوا به فيما في حيز الصلة وموافقته له في المضمون، وتنبيهاً على أنّ الإيمان بما عداه من غير إيمان به ليس إيماناً بما أنزل الله.

{قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، أي: نستمر على الإيمان بالتوراة وما في حكمها ممّا أنزل لتقرير حكْمها؛ وفيه إيماءٌ إلى أنّ عدم إيمانهم بالقرآن كان بغياً وحسداً على نزوله على مَن ليس منهم .

{وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ }عطف على{ :قَالُوا}، والتعبير بالمضارع لحكاية الحال، استغراباً للكفر بالشيء بعد العلْم بحقِّيّته، أو للتنبيه على أنّ كفْرهم مستمر إلى زمن الإخبار .

{بِمَا وَرَاءَهُ :}المراد هنا: بما بعْده؛ قاله قتادة، أو بما سواه، وبه فُسِّر{ :وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ

ذَلِكُمْ}، وأريد به هنا: القرآن كما عليه الجمهور، وقال الواحدي: هو والإنجيل .

{وَهُوَ الْحَقُّ :}المعنى: وهم مقارنون لحقّيّته، أي: عالمون بها، وهو أبلغ في الذم مِن كفرهم بما هو حق في نفسه .

{مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ :}تضمّنت ردّ قولهم{ :نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، حيث إنّ مَن لم يصدق بما وافق التوراة لم يصدّق بها .

{قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ :}أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يقول ذلك تبكيتاً لهم، حيث قتلوا الأنبياء مع ادّعاء الإيمان بالتوراة وهي لا تسوغه .ويحتمل أن يكون أمراً لمن يريد جدالهم كائناً من كان .

{فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسْخها وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رُسل الله، فلستم تتّبعون إلاّ مجرّد الأهواء والآراء والتشهي، كما قال{ :أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ .}

وقال السدي: في هذه الآية يعيّرهم الله تعالى{ :قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}؟ .

وقال أبو جعفر ابن جرير: قل –يا محمد– ليهود بني إسرائيل، إذا قلت لهم{ :آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، قالوا{ :نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا :}لِمَ تقتلون– إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم– أنبياءه؟ وقد حرّم الله في الكتاب الذي أُنزل عليكم قتْلهم، بل أمَركم باتّباعهم وطاعتهم وتصديقهم. وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم{ :نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، وتعيير لهم.

وإيراد صيغة المضارع مع الظرف الدال على المضيّ، للدلالة على استمرارهم على القتل في الأزمنة الماضية. وقيل :لحكاية تلك الحال. والمراد بالقتل: معناه الحقيقي، وإسناده إلى الأخلاف المعاصرين له –صلى الله تعالى عليه وسلم–، مع أنّ صدوره من الأسلاف مجاز، للملابسة بين الفاعل الحقيقي وما أُسند إليه؛ وهذا كما يقال لأهل قبيلة: أنتم قتلتم زيداً، إذا كان القاتل آباءهم. وقيل: القتل: مجاز عن الرضى أو العزم عليه.

وفي إضافة{ :أَنْبِيَاء }إلى الاسم الكريم تشريف عظيم، وإيذان بأنه كان ينبغي لمن جاء من عند الله تعالى أن يُعظّم ويُنصَر، لا أن يُقتَل .

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ}، أي: بالآيات الواضحة والدلائل القاطعة على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلاّ الله. والبينات هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمنّ، والسلوى، والحجَر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها{ ...ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ}، أي :معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه. وقوله : {مِنْ بَعْدِهِ}، أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله، كما قال تعالى{ :وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ.}

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ }داخل تحت الأمر، فهو من تمام التبكيت والتوبيخ، وكذا ما يأتي بَعْد، لا تكرير لما قصّ مِن قَبْل .

وكلمة{ :ثُمّ }قيل: للاستبعاد، وقيل :هي على حقيقتها. ويشير هذا العطف على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك أعظم ذنباً وأكثر شناعة لحالهم .

{وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}، أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلاّ الله، كما قال تعالى{ :وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .}

والمعنى: أي: وأنتم واضعون الشيء في غير محلّه اللائق به، أو مُخلّون بآيات الله تعالى، والجملة: حال مؤكِّدة للتوبيخ والتهديد .

وفيها تعريض بأنهم صرفوا العبادة عن موضعها الأصلي إلى غير موضعها، وإيهام المبالغة من حيث إن إطلاق الظلم يُشعر بأنّ عبادة العجل كلّ الظلم، وأن من ارتكبها لم يترك شيئاً من الظلم .

واختار بعضهم كونها اعتراضاً لتأكيد الجملة بتمامها، دون تعرض لبيان الهيئة الذي تقتضيه الحالية، أي: وأنتم قوم عادتكم الظلم، واستمر منكم ومنه عبادة العجل. والذي دعاه إلى ذلك: زَعْم أنه يلزم على الحالية أن يكون تكراراً محضاً؛ فإن عبادة العجل لا تكون إلاّ ظلماً، وما تقدّم يزيل تلك الشبهة .

وإذا حُمل الاتخاذ على الحقيقة، نحو: اتخذت خاتماً، تكون الحالية أوْلى بلا شبهة لأن الاتخاذ لا يتعيّن كونه ظلماً إلاّ إذا قُيِّد بعبادته، كما لا يخفى.

المعنى الإجمالي .

يذكر -سبحانه وتعالى- حال اليهود في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، استكمالاً لِما سبق مِن ردِّهم رسالته، بأنّ على قلوبهم الأغشية التي تمنعهم من الإيمان به؛ فيبيِّن سبحانه أنهم عندما جاءهم الكتاب المنزل من الله تعالى، المصدِّق لما بين يديهم من التوراة، الموافق لما فيها بصدْق بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ردّوا ذلك وكفروا به، مع أنهم كانوا يذكرون ذلك للمشركين من الأوس والخزرج، ويبشِّرون ببعثته -صلى الله عليه وسلم-، وينتظرون النصر من الله على أعدائهم، ويتوعّدونهم إذا هزموهم إذا بعثه الله تعالى.

فلمّا حصل لهم ما انتظروه وتمنّوْه من بعثته، كفروا به، واشتروا حظوظ أنفسهم مِن جاهٍ ورياسة ومال، مقابل كفْرهم بهذا النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-، حسداً له في إنزال الله تعالى رسالته عليه واختياره له من غيرهم، ممّا أذهب الجاه عنهم ونقل الرياسة في غيرهم؛ فنالوا بفعلهم ذلك غضباً آخَر من الله تعالى عليهم مع غضبه السابق الذي لحِقَهم لأنواع كفْرهم مِن تحريف لكتبهم، وجحْد لما فيها من أحكام وبشارات بعيسى- عليه السلام- وكتابه الإنجيل، وبغير ذلك...

وقد توعّدهم الله على ذلك بالعذاب المذِلّ الذي هو في غاية الإذلال، المعَدُّ لأمثالهم من الكفرة، لاستكبارهم عن قبول الحق .وقد كانوا إذا قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنون" :آمنوا بهذا القرآن المنزَل من عند الله!"، تظاهروا بأنهم إنما أُمروا بالإيمان بالتوراة وما أُنزل على يهود خاصة، وأما غير ذلك ممّا أُنزل على غيرهم -وهو: القرآن المنزل على العرب -فإنهم يكفرون به ولا يؤمنون به، مع أنه حق مذكور في كتبهم التي يزعمون إيمانهم بها، تُصدِّقه نصوصهم، وتدعو إليه. ثم أمر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يحاجّهم بما يُفحمهم، ويثبت كذبهم في إيمانهم بما أنزل عليهم، حيث قتلوا أنبياءهم الذين أرسلهم الله إليهم؛ ولو كانوا صادقين في دعواهم لما قتلوهم، بل لأكرموهم ورفعوهم .

ومن ذلك أيضاً :ما تحقق من بعثة موسى –عليه السلام– إليهم، ومجيئه لهم بالآيات البينات والدلائل الواضحات على بعثته من الله، ودعوته إلى إفراده سبحانه بالعبادة، فإذا بهم يتّخذون عجلاً مِن الذهب يعبدونه من دون الله، مِن بعْد ما ترَكهم موسى ذاهباً لميقات ربه، ظلماً وعدواناً.

من المسائل.

لا تَمَسُّك للخوارج في قوله تعالى{ :وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}، بأنه خصّ العذاب بالكافرين، فيكون الفاسق كافراً، لأنه مُعذَّب .

ولا للمرجئة أيضاً، على اعتبار أنّ العذاب خُصّ بالكافرين، فيكون غيرهم غير مُعذَّب، لِما قدّمناه من أنّ وصف العذاب بالمهين مختصّ بالكافرين، وأما غيرهم –وهم :المسلمون الفاسقون– فلهم عذاب من نوع آخر .

هذا بالنسبة للآية، وإلاّ فالأدلة على فساد مذهب الفريقيْن أشهر مِن أن تُذكر، وهي مبثوثة في مظانّها.

الأسئلة :

١. قرأ نافع وابن كثير (مصدق) بفتح الدال على أن الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ معهم مصدق بما عندهم ، وقرأ الباقون بكسرها على أنه هو المصدق لما معهم من الحق (خطأ) .

٢. السين في يستفتحون للمبالغة (صح) .

٣. البغي : أصله طلب الشيء (صح) .

٤. المقصود بالبغي هنا الحسد والظلم (صح) .

٥. البوء : الرجوع إلى الشيء ، وباء بالذنب إذا احتمله (صح) .

٦. العذاب المهين هو العذاب الشديد في ألمه (خطأ) .

٧. بما وراءه ؛ أي : بما جاء خلفه وبعده من الكتاب ، وهو القرآن ، لأن كلمة وراء تعني الخلف في اللغة (خطأ) .

٨. وراء بمعنى الاستتار ، فكل ما استتر عنك فهو وراءك سواء كان أمامك أم خلفك (صح)

٩. المقصود باستفتاحهم ما كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج بظهور رسول الله ﷺ قبل بعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوه (صح) .

١٠. في الآيات بيان خطورة مرض الحسد وأن من صفات اليهود قبحهم الله (صح) .

١١. صح عن ابن عباس في معنى يستفتحون قال : يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا ويقولون اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم فينصرون فلما جاءهم ما عرفوا يريد محمدا ولم يشكوا فيه كفروا به (خطأ) .

١٢. التعبير باشتروا لبيان حبهم الشديد للمال والتجارة (خطأ) .

١٣. المراد باشتروا به أنفسهم : ما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به من الكفر بمحمد ﷺ بدل الإيمان والتصديق به (صح) .

١٤. قوله (فباءوا بغضب على غضب) التكرار من باب التأكيد والتشديد (صح) .

١٥. قوله (بغضب على غضب) أي : غضب الله أولاً بسبب تبديلهم التوراة ، ثم غضب عليهم ثانياً بسبب كفرهم بمحمد ﷺ (صح) .

١٥. قوله (بغضب على غضب) : الغضب الأول بسبب كفرهم بعيسى والإنجيل ، والغضب الثاني بسبب كفرهم بمحمد ﷺ (صح) .

١٦. قوله (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) هو محمد ﷺ ولا يصح أن يكون القرآن ، لأن ما لا يعبر بها إلا عما يعقل (خطأ) .

١٧. يصح أن تكون اللام في (وللكافرين عذاب مهين) لام الجنس ، فهي شاملة لجميع أجناس الكافرين (صح) .

١٨. الفاء بقوله (فباءوا) هي فاء السبب المؤذنة بأن الغضب ترتب على فعلهم هذا (صح)

١٩. اللام في (وللكافرين عذاب مهين) هي لام العهد ، والمقصود بها هؤلاء المذكورون من اليهود ، وعبر عنهم بصفة الكفر للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم (صح) .

٢٠. قوله تعالى (بغياً) فيه بيان أن كفرهم كان لمجرد العناد والبغي والحسد لا بسبب الجهل وهو أبلغ في الذم (صح) .

٢١. ذكر العذاب المهين أنسب من غيره لأنه بسبب حسدهم وكبرهم وعنادهم فناسب أن يكون عذاباً فيه إهانة ومذلة لهم (صح) .

٢٢. حذف الفاعل في قوله (وإذا قيل لهم) لأنه لا غرض يتعلق بهذا القائل (صح) .

٢٣. قوله (ويكفرون بما وراءه) بفعل المضارع من باب التحقيق لهذا الكفر وأنه واقع منهم لا محالة (خطأ) .

٢٤. الآيات فيها بيان كذب اليهود في ادعائهم أنهم يؤمنون بما أنزل الله عليهم من التوراة لأن كفرهم بمحمد ﷺ وقد أمروا أن يؤمنوا به في التوراة دليل على ذلك (صح) .

٢٥. من الأدلة على كذب يهود بأنه آمنوا بما جاءهم من عند الله من التوراة أنهم كفروا بمن جاءهم من الأنبياء وقتلوا كثيراً منهم ، ولهذا أقام الله عليهم الحجة بحجة (صح) .

٢٦. قوله (ثم اتخذتم العجل) فيها تنبيه على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من رؤية الآيات والنظر فيها ، وهو أبلغ في ذمهم وكفرهم (صح) .

٢٧. قوله (وأنتم ظالمون) أي ظالمون لغيركم بهذا الكفر وببغيكم وقتلكم الأنبياء (خطأ) .

٢٨. الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه اللائق به (صح) .

٢٩. في الآيات تنبيه على أن عبادة العجل هي الظلم كله وأن من عبده لم يترك شيئاً من الظلم (صح) .

٣٠. استدل الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر لأنه معذب والآية تنص على أن العذاب للكافرين ، ولا دليل في ذلك لأنه لا يلزم من الآية أنه لا عذاب لغير الكافرين ، بل قد يكون لغيرهم عذاب غير مهين ، والله أعلم (صح) .

المحاضرة التاسعة والثلاثون

***

تفسير الآيات من (٩٣) إلى (٩٦) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.}

القراءات:

لا يوجد في الآيات أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

لا زال الحديث عن بني إسرائيل ومخازيهم وفضائحهم، وإظهار كذبهم في دعاواهم مِن صدْق الإيمان ومحبّة الله لهم، وأنهم أصحاب الجنة من دون الناس، وأنهم لن تمسّهم النار إلاّ أياماً معدودة، إلى غير ذلك ممّا تقدّم ويأتي...

لغويّات.

{وَأُشْرِبُوا :}الإِشْراب: مخالطة المائع الجامد، وتُوسِّع فيه حتى صار في اللّونيْن، ومنه: بياض مُشرَب بحمرة .

وقيل{ :أُشْرِبُوا }مِن: أَشْرَبْت البعير، إذا شَدَدْت في عنقه حبلاً، كأنّ العجل شُدّ في قلوبهم، لشغفهم به.

وقيل: مِن: الشّراب، ومِن عادتهم أنهم إذا عبّروا عن مخامرة حبّ أو بُغض استعاروا له اسم الشّراب، إذ هو أبلغ منساغ في البدن؛ ولذا قال الأطباء: الماء مطيّة الأغذية والأدوية،

ومَرْكبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن.

وقيل: مِن: الشُّرب حقيقة، كما يأتي عن السدي في: الآثار.

{خَالِصَةً :}الخالص: الذي لا يشوبه شيء، أو ما زال عنه شَوْبه.

{دُونِ :}للاختصاص وقطع الشركة، يُقال: هذا لي دونك. وأنت تريد: لا حقّ لك فيه معي، ولا نصيب .

{يَتَمَنَّوْهُ :}المراد بالتمني: قول الشخص" :ليت كذا!"، و"ليت" مِن أعمال القلب، أو الاشتهاء بالقلب ومحبة الحصول مع القول .

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ :}تَجِد مِن: وَجِد بعقله، بمعنى عَلِم المتعدية إلى مفعولَيْن، والضمير: مفعول أول، و {أَحْرَصَ :}مفعول ثان .

{أَلْفَ سَنَةٍ :}الألف: العدد المعلوم مِن: الأُلفة، إذ هو مُؤلّف من أنواع الأعداد بناءً على مُتعارف الناس، وإن كان الصحيح أنّ العدد مركّب من الوحدات التي تحته، لا الأعداد .

وأصل{ سَنَة :}سَنْوَة، لقولهم: سنوات، وقيل: سَنْهَة كجبهة، لقولهم: سَانَهْتُه، وتَسَنَّهَت النخلة، إذا أتت عليها السُّنُون، وسُمِعَ أيضا في الجمْع: سَنَهَات .

{بِمُزَحْزِحِهِ :}الزحزحة: التَبْعِيد والإنحاء، وهو مضاعف مِن: زَحَّ يَزِحّ زَحاًّ، ككَبْكَب مِن كَبَّ.

الآثار.

عن قتادة، قال{ :وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}، قال: أُشربوا حُبّه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم .

وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس.

وقال السدي: أخذ موسى –عليه السلام– العجل فذبحه بالمبرد، ثم ذرّ في البحر، ثم لم يبق بحر يجري يومئذ إلاّ وقع فيه شيء. ثم قال لهم موسى: اشربوا منه .فشربوا، فمن كان يحبّه خرج على شاربيْه الذهب؛ فذلك حين يقول تعالى{ :وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ . }

وعن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه (المبارد، فبرَده بها)، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء –ممّن كان يعبد العجل– إلاّ اصفر وجهه مثل الذهب.

وقال سعيد بن جبير{ :وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ}، قال: (لما أُحرق العجل) بُرد ثم نُسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران.

وعن أبي العالية قال{ :وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}، وقالوا{ :نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}، فأنزل الله{ :قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، فلم يفعلوا .

وعن قتادة مثله .

وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم، عن ابن عباس، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :لو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدَهم مِن النار.((

وفي رواية: قال ابن عباس: ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً .

وأخرج البيهقي في "الدلائل"، عن ابن عباس، في هذه الآية، قال: قل لهم –يا محمد–: إن كانت لكم الدار الآخرة –يعني :الجنة– كما زعمتم، خالصة من دون الناس –يعني: المؤمنين–، فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين إنها لكم خالصة من دون المؤمنين! فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إن كنتم في مقالتكم صادقين، قولوا: "اللهم أمِتْنا". فو الذي نفسي بيده! لا يقولها رجل منكم إلاّ غَصَّ بريقه فمات مكانه((، فأبوا أن يفعلوا، وكرهوا ما قال لهم؛ فنزل{ :وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، يعني: عمِلتْه أيديهم{ .وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }أنهم لن يتمنّوْه، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عند نزول هذه الآية :))والله لا يتمنّوْنَه أبداً.((

وعن ابن عباس: يقول الله لنبيه –صلى الله عليه وسلم{ :–قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، أي: ادْعوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب. فأبَوْا ذلك على رسول الله –صلى الله عليه وسلم{ .–وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، أي: بعلْمهم بما عندهم من العلْم بك والكفر بذلك، ولو تمنّوْه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلاّ مات.

وعن ابن عباس{ :فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ : }فسلُوا الموت.

قال ابن عباس: لو تمنّى اليهود الموت لماتوا.

عن ابن عباس قال: لو تمنوا الموت لشَرِق أحدهم بريقه.

ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس –رحمهم الله.–

وعن ابن عباس، في قوله{ :فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ}، أي: ادْعوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب.

فأبوْا ذلك، ولو تمنّوه يوم قال ذلك، ما بقي على وجه الأرض يهودي إلاّ مات.

وعن ابن عباس في قوله{ :قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ}، يعني :الجنة{ خَالِصَةً :}

خاصة،{ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ :}فاسألوا الموت{ .وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً } لأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

{بِمَا قَدَّمَتْ}، قال :أسلفت.

وعن الحسن، قال: قول الله: ما كانوا ليتمنّوْه بما قدّمت أيديهم. قيل له: أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم: تمنوا الموت، أتراهم كانوا ميّتين؟ قال: لا، والله ما كانوا ليموتوا لو تمنّوا الموت، وما كانوا ليتمنّوه، وقد قال الله ما سمعت{ :وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ.}

وعن نافع، قال: خاصمنا يهودي، وقال: إن في كتابكم{ :فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ }...إلخ؛ فأنا أتمنى الموت، فمالي لا أموت؟ فسمع ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما–، فغضب، فدخل بيته وسلّ سيفه وخرج، فلما رآه اليهودي فرّ منه، وقال ابن عمر: أما والله لو أدركتُه لضربت عنقَه!

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}، يعني: اليهود{ .وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا}، قال: الأعاجم. وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة. وإن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة مِن الخزي بما صنع بما عنده من العلْم{ .وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ}، قال: بمُنجية.

وعن ابن عباس، قال{ :وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا :}الأعاجم.

قال ابن كثير، بعد إيراده: رواه الحاكم في" مستدركه" من حديث الثوري، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه .قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي.

قلت: يعني أن البخاري ومسلماً اتفقا على أن تفسير الصحابي الذي شاهد الوحي يُعدّ مسنداً .

وقال الحسن البصري{ :وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}، قال: المنافق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة مِن المشرك.

وقال أبو العالية{ :يَوَدُّ أَحَدُهُمْ}، يعني: المجوس، وهو يرجع إلى الأول.

عن ابن عباس{ :يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}، قال: هو كقول الفارسي: "زِه هزار سال"، يقول: عشرة آلاف سنة .

وكذا رُوي عن سعيد بن جبير أيضاً.

عن ابن عباس، في قوله تعالى{ :يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}، قال: هو قول الأعاجم: "هزار سال نوروز مهرجان."

وفي رواية: هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم: "زه هزار سال"، يعني: ألْف سنة .

علّق الشيخ أحمد شاكر- رحمه الله –على ذلك بقوله: إنه لا يوافق قواعد الفارسية، لأنه سأل مَن يعرف هذه اللغة وذكَر له أنه يظن أنّ صوابها: "زه در مهرجان نوروز هزار سال"، ومعناه : زه : عش، در: ظرف بمعنى: في، مهرجان: هو عيد لهم، نوروز: عيد آخر في أول السنة، هزار: ألْف، سال:سنة؛ فكأن معناها: عش ألْف سنة. وجاء في" مستدرك الحاكم": "هزار سال سرور مهرجان بخور"، وقال: مصحّحه يعني: تمتع ألْف سنة كمثل عيد مهرجان، وهو عيد لهم.

وقال مجاهد{ :يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}، قال :حبّبت إليهم الخطيئة طول العمر .

وعن ابن عباس{ :وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ}، أي: ما هو بمُنجيه من العذاب .

وعن ابن عباس{ :وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ}، قال: هم الذين عادَوْا جبريل .

قال أبو العالية: وإن عُمِّر فما ذاك بمغيثه من العذاب، ولا مُنجيه منه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودّ هؤلاء لو يعمّر أحدهم ألْف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمِّر، لأنّ عمر إبليس لم يمنعه إذ كان كافراً.

أقوال المفسّرين.

يُعَدِّد- تبارك وتعالى- عليهم خطأهم ومخالفتَهم للميثاق، وعتوّهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه، ثم خالفوه .

فقال{ :وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}، أي: قلنا لهم: خُذوا ما أمرتكم به في التوراة بجدّ وعدم فتور، واسمعوا، أي: سماع تقبّل وطاعة .ولذا رفع الجبل عليهم. وكثيراً ما يراد من السماع: القبول، ومن ذلك: "سمع الله لمن حمده"، وقوله:

دعوتُ الله حتى خِفتُ أن لا	يكون الله يسمعُ ما أقولُ

{قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا :}أي: سمعنا قولك" :خذوا واسمعوا"، وعصيْنا أمْرك؛ فلا نأخذ ولا نسمع سماع الطاعة .

والسماع هناك مقيّد، والأمر مشتمل على أمريْن: سماع قوله، وقبوله بالعمل. فقالوا: نمتثل أحدهما دون الآخر.

وقيل: المعنى: قالوا بلسان القال: "سمعنا"، وبلسان الحال" :عصيْنا."

أو: سمعنا أحكاماً قبل، وعصيْنا، فنخاف أن نعصي بعد سماع قولك هذا .

وقيل: سمعنا جواب: "اسمعوا"، وعصينا جواب: "خذوا ."

وكرّر رفع الطور لِما نيط به من زيادة ليست مع الأول، مع ما فيه من التوكيد .

{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ :}الكلام على حذف مضاف، أي: حب العجل، وجوّز أن يكون العجل مجازاً عن صورته، فلا يحتاج إلى الحذف. وذكر القلوب لبيان مكان الإشراب، وذكْر المحلّ المتعيّن يفيد مبالغة في الإثبات. والمعنى: داخَلهم حب العجل، ورسخ في قلوبهم صورته، لفَرْط شغفهم به، كما داخل الصبغُ الثوبَ، وأنشدوا :

إذا ما القلب أُشرب حُبَّ شيءٍ	فلا تأملْ له عنه انصرافَا

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي- صلى الله عليه وسلم-، قال)) :حبّك الشيء يُعمي ويُصمّ.((

وحكى القرطبي عن كتاب القشيري: أنه ما شرب منه أحَد إلا جُنّ -ممّن عبد العجل-. ثم قال القرطبي: وهذا شيء غير ما ها هنا، لأن المقصود من هذا السياق: أنه ظهر على

شفاههم ووجوههم، والمذكور ها هنا: أنهم أشربوا في قلوبهم العجل، يعني: في حال عبادتهم له، ثم أنشد قول النابغة في زوجته عَثْمة:

تَغَلْغل حُبُّ عثمة في فؤادي	فَبَاديه مع الخافي يسيرُ
تَغَلْغل حيثُ لم يبلغْ شرابٌ	ولا حزنٌ ولمْ يبلغْ سرورُ
أكادُ إذَا ذَكَرتُ العهدَ مِنْها	أطيرُ لوَ أَنَّ إنساناً يطيرُ

قال الآلوسي متعقّباً رواية السدي في شربهم حقيقة برادة العجل: ولا يخفى أنّ قوله تعالى : {فِي قُلُوبِهِمُ }يُبعد هذا القول جداً، على أنّ ما قصّ الله تعالى لنا في كتابه عمّا فعَل موسى –عليه السلام– بالعجل يُبعد ظاهر هذه الرواية أيضاً."

{بِكُفْرِهِمْ :}أي: بسبب كفرهم، لأنهم كانوا مجسّمة يجوّزون أن يكون جسم من الأجسام إلهاً، أو حلولية يجوّزون حلوله فيه؛ تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ولم يروْا جسماً أعجب منه، فتمكّن في قلوبهم ما سُوّل لهم، وثعبان العصا كان لا يبقى زماناً ممتداً، ولا يبعد من أولئك أن يعتقدوا عجلاً صنعوه على هيئة البهائم إلهاً، وإن شاهدوا ما شاهدوا من موسى –عليه السلام–، لما ترى من عبدة الأصنام الذين كان أكثرهم أعقل من كثير من بني إسرائيل .

وقيل: الباء بمعنى: "مع"، أي: مصحوباً بكفْرهم، فيكون ذلك كفراً على كفْر .

وقوله{ :قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، أي: بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، مِن كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد –صلى الله عليه وسلم–؛ وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين؛ فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل؟!

وإسناد الأمر إلى الإيمان، وإضافته إلى ضميرهم، للتهكم كما في قوله تعالى{ :أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ}؟ .

{قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ :}ردّ لدعوى أخرى لهم، بعد ردّ دعوى الإيمان بما أُنزل عليهم؛ ولاختلاف الغرض، لم يعطف أحدهما على الآخر. والآية نزلت– فيما حكاه ابن الجوزي –عندما قالت اليهود: إن الله تعالى لم يخلق الجنة إلاّ لإسرائيل وبنيه .

وتقدم قول أبي العالية وقتادة.

والضمير في{ :قُلْ }إما للنبي- صلى الله تعالى عليه وسلم-، أو لمن يبغي إقامة الحجة عليهم. والمراد من{ الدَّارُ الآخِرَةُ :}الجنة، وهو الشائع. واستحسن في "البحر": تقدير مضاف، أي: نعيم الدار الآخرة.

{عِنْدَ اللَّهِ :}أي: في حُكمه. وقيل: المراد بالعندية: المرْتبة والشرف، وحمْلها على عندية المكان كما قيل به احتمالاً، بعيد.

{خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ}، أي: مخصوصة بكم كما تزعمون.

والمراد بـ}النَّاسِ{ :الجنس، وهو الظاهر. وقيل: المراد بهم :النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم- والمسلمون. وقيل: النبي- صلى الله تعالى عليه وسلم- وحْده؛ قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-. قالوا: ويُطلق{ النَّاس }ويراد به الرجل الواحد، ولعله لا يكون إلاّ مجازاً بتنزيل الواحد منزلة الجماعة.

{فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }في أنّ الجنة خالصة لكم؛ فإنّ مَن أيقن أنه من أهل الجنة اختار أن ينتقل إلى دار القرار، وأحب أن يخلص من المقام في دار الأكدار .

ومعنى الآية: سلُوا الموت باللسان؛ قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما، أو اشتهوه بقلوبكم وسلوه بألسنتكم؛ قاله قوم. وعلى التقديريْن: الأمر بالتّمنّي حقيقة.

قال الآلوسي: واحتمال أن يكون المراد: تعرّضوا للموت ولا تحترزوا عنه كالمتمنّي، فحاربوا من يخالفكم، ولا تكونوا من أهل الجزية والصَّغار، أو كونوا على وجه يكون المتمنّون للموت المشتهون للجنة عليه من العمل الصالح ممّا لا تساعده الآثار .

وقال ابن كثير، بعد أن ذكر تفسير ابن عباس لقوله{ :فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ :} وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس.

ثم ذكر أثر الحسن، وقال: وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فسر ابن عباس به الآية هو المتعيّن، وهو الدعاء على أيّ الفريقين أكذب؟ منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة.

قال: ونظير هذه الآية: قوله تعالى في سورة (الجمعة){ :قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .}فهم- عليهم لعائن الله- لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا{ :لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}، دُعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتيْن، منهم أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك، علِم كلّ أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك؛ فلما تأخروا عُلِم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وفد نجران من النصارى -بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوّهم وعنادهم -إلى المباهلة، فقال تعالى{ :فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .}فلمّا رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عيْن تطرف؛ فعند ذلك جنحوا إلى السّلم وبذلوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه-، أميناً .

ومثل هذا المعنى أو قريب منه: قوله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للمشركين : {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً}، أي:من كان في الضلالة منا ومنكم، فزاده الله ممّا هو فيه ومدّ له، واستدرجه.

قال الآلوسي{ :وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً}، الظاهر: أنه جملة مستأنفة معترضة غير داخلة تحت الأمر، سيقت من جهته تعالى لبيان ما يكون منهم من الإحجام الدال على كذِبهم في دعواهم. والمراد: لن يتمنوه ما عاشوا؛ وهذا خاص بالمعاصرين له -صلى الله تعالى عليه وسلم .-

ثم ذكر الآلوسي أثر ابن عمر، وقال -عن اليهودي-: توهّم هذا الكلب اللعين الجاهل: أن هذا لكلّ يهودي أو لليهود في كل وقت، لا إنما هو لأولئك الذين كانوا يعاندون ويجحدون نبوّة النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم- بعد أن عرفوا، وكانت المحاجة معهم باللسان دون السيف .

قال: وذهب جمهور المفسّرين إلى عموم حُكم الآية لجميع اليهود في جميع الأعصار، وليست ممّن يقول بذلك وإن ارتضاه الجم الغفير. وقالوا: إنه المشهور الموافق لظاهر النظم الكريم، اللهم إلاّ أن يكون ذلك بالنسبة إلى جميع اليهود المعتقدين نبوّته -صلى الله عليه وسلم-

الجاحدين لها في جميع الأعصار، لا بالنسبة إلى اليهود مطلقاً في جميعها؛ ومع هذا لي فيه نظر بعد.

]وسُميت هذه المباهلة تمنّياً، لأنّ كل مُحقّ يودّ لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجّة له في بيان حقّه وظهوره. وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت]، ولهذا قال تعالى{ :وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}، أي: على طول عمر، لِما يعلمون من مآلهم السيِّئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر. فهم يودّون لو تأخّروا عن مقام الآخرة بكلّ ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص مِن المشركين الذين لا كتاب لهم؛ وهذا من باب عطف الخاص على العام.

{بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، أي: بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة للنار، كالكفر بمحمد – صلى الله تعالى عليه وسلم– والقرآن، وقتل الأنبياء .

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ :}تذييل للتهديد والتنبيه على أنهم ظالمون في ادّعاء ما ليس لهم، ونفيه عن غيرهم .

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ :}الخطاب للنبي– صلى الله تعالى عليه وسلم– والضمير عائد على اليهود الذين أخبر عنهم بأنهم لا يتمنّون الموت، وقيل: على جميعهم، وقيل: على علماء بني إسرائيل.

وتنكير{ حَيَاة }لأنه أُريد بها فرْد نوعيّ وهي: الحياة المتطاولة؛ فالتنوين للتعظيم. ويجوز أن يكون للتحقير؛ فإن الحياة الحقيقية هي الأخروية{ :وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .}ويجوز أن يكون التنكير للإبهام، بل قيل: إنه الأوْجه، أي: على حياة مُبهمة غير معلومة المقدار، ومنه :يُعلم حِرْصُهم على الحياة المتطاولة من باب الأوْلى.

{وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا :}هم المجوس، ووُصفوا بالإشراك لأنهم يقولون بالنور والظلمة، وكانت تحيتهم إذا عطس العاطس" :عش ألف سنة". وقيل: مشركو العرب الذين عبدوا الأصنام؛ وهذا من الحمْل على المعنى، كأنه قال: أحرص من الناس ومن الذين ...إلخ.

{يَوَدُّ أَحَدُهُمْ}، أي: أحد اليهود، كما يدل عليه نظم السياق؛ وذلك أنّ المشرك لا يرجو

بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عَرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيّع بما عنده من العلْم .

قال الآلوسي: قد أفاد ذلك: المبالغة في حرصهم، لزيادة توبيخهم وتقريعهم، حيث كانوا مع كونهم أهل كتاب يرجون ثواباً ويخافون عقاباً أحرص ممّن لا يرجو ذلك ولا يؤمن ببعث ولا يعرف إلاّ الحياة العاجلة. وإنما كان حرصهم أبلغ، لعلْمهم بأنهم صائرون إلى العذاب؛ ومَن توقّع شراًكان أنفر الناس عنه، وأحرصهم على أسباب التباعد منه .

قلت: ليس شرطًا أن يكون ذلك لعلْمهم أنهم صائرون لعذاب، بل لِضعف إيمانهم ويقينهم في الآخرة ونعيمها، أو لانعدام ذلك حقيقة عندهم؛ فهم يريدون ما يلمسونه في الحياة الدنيوية أن يطول بهم.

ومعنى{ أَلْفَ سَنَةٍ :}الكثرة، ليشمل مَن يودّ أن لا يموت أبداً، ويحتمل أن يراد ألْف سنة حقيقة.

{وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ}،{ مَا :}حجازية أو تميمية، وهو ضمير عائد إلى أحدهم: اسمها أو مبتدأ، و{بِمُزَحْزِحِهِ :}خبرها أو خبره، والباء زائدة إعراباً لا معنًى.

و{أَنْ يُعَمَّرَ :}فاعل" مُزحزحه ."والمعنى: ما أحدهم يزحزحه من العذاب تعميرُه. وفيه إشارة إلى ثبوت مَن يزحزحه التعمير، وهو: مَن آمن وعمل صالحاً .

وقوله{ :بِمُزَحْزِحِهِ :}فيه مبالغة، لكنها متوجّهة إلى النفي على حدّ ما قيل{ :وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، فيُؤوّل إلى: أنه لا يؤثّر في إزالة العذاب أقلّ تأثير التعمير، وصحّ ذلك مع أن التعمير يفيد رفع العذاب مدة البقاء، لأن الإمهال بحسب الزمان وإن حصل؛ لكنهم لاقترافهم المعاصي بالتعمير زاد عليهم من حيث الشدة، فلم يؤثّر في إزالته أدنى تأثير، بل زاد فيه حيث استوجبوا بمقابلة أيام معدودة عذاب الأبد.

{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}، أي: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كلّ عامل بعمله؛ وفي هذه الجملة من التهديد والوعيد ما هو ظاهر.

المعنى الإجمالي.

يذكر تعالى بني إسرائيل، ويعيِّرهم بتكرار ذكْر أخْذ الميثاق عليهم عند الطور، حيث رفعه فوقهم وأمرهم بأخذ أحكام التوراة وتعاليمها بقوة وحزم ويسمعوا أوامر ربهم سماع قبول وانقياد، فكان موقفهم وحالهم أنهم سمعوا بآذانهم وعصوْا، فلم ينقادوا لأوامر الله تعالى، وتغلغل الشرك في قلوبهم، حيث عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري .

فأمر الله تعالى نبيه أن يتهكّم بهم وبهذا الإيمان الذي يدّعونه؛ فإن التوراة التي زعموا أنهم يؤمنون بها ليس فيها عبادة العجاجيل، والحقيقة أنهم ليسوا مؤمنين .

ثم أمر الله تعالى نبيه –صلى الله عليه وسلم– أن يباهلهم ويتحدّاهم في دعواهم الكاذبة أنّ الله تعالى اختصهم بنعيم الآخرة، وأنه لن يدخل أحد غيرهم الجنة، أن يتمنّوا –ممثّلين في علمائهم– على الله، بين يديه– صلى الله عليه وسلم–: أن يقبضهم الله إليه إن كانوا صادقين في تلك الدعاوى، فمَن كان مآله الجنة فهي خير له من الدنيا وما فيها .وأخبر الله تعالى أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، فلن يتمنّوا الموت بسبب ما قدّموه من أعمال فاسدة، وتحريف لدين الله، وإنكار لنبوّة محمد –صلى الله عليه وسلم–؛ ولكن الله يعلم ظلمهم، وسوف يجازيهم به عاجلاً أو آجلاً. ولعلْمهم بأن هذه مباهلة منه– صلى الله عليه وسلم– وتحدٍّ لهم، وهم يعلمون علْم اليقين صدْقه وصحة نبوّته، نكلوا عن ذلك؛ لأنهم لو تمنّوا الموت لماتوا، ولن يروا إلاّ مقاعدهم من النار .

ثم أخبر سبحانه عنهم: أنهم لا يوجد في الناس بمختلف طوائفهم أحرص منهم على هذه الحياة الفانية، ولو كانت أي حياة، لأنهم لا حظ لهم في الآخرة؛ بل هم أشدّ حرصاً على الحياة من المشركين من المجوس وغيرهم الذين لا يؤمنون ببعث ولا جزاء، والذين يتمنّى الواحد منهم أن يعيش في هذه الدنيا ألْف سنة أو أكثر. ولن ينفعه ذلك في الآخرة ولو بأن يزاح إزاحة قليلة عن النار وعذابها، لأنه لا يزيد ببقائه في هذه الحياة إلاّ كفراً واستكباراً، والله بصير بهذه الأعمال التي يعملونها، وسيعاقبهم عليها.

مسائل الآيات.

الأولى :

بناء }أُشْرِبُوا{ للمفعول يدل على أن ذلك فُعل بِهم، ولا فاعل سواه تعالى.

وقالت المعتزلة: هو على حدّ قول القائل: "أُنسيتُ كذا"، ولم يُرد أنّ غيره فعَل ذلك به، وإنما المراد: "نَسيتُ"، وأن الفاعل مَنْ زَيَّن ذلك عندهم ودعاهم إليه كالسّامريّ؛ وهذا منهم لأنهم ينفون خلْق الله لأفعال العباد. والآية حجة عليهم، وما تعلّلوا به مردود؛ فالنسيان كذلك مِن فِعْل الله تعالى. والمسألة تُطلب في مظانّها.

الثانية :

جاء في الصحيح النّهيُ عن تمنّي الموت، وفي بعض ألفاظه)) :لا يتمنَّينّ أحدُكم الموت لِضُرٍّ نزل به! إمّا مُحسناً فلعلّه أن يزداد، وإما مُسيئاً فلعلّه أن يَستعتب .فإن كان لا بدّ فاعلاً فليقُلْ: "اللهم أحيِنِي ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفّني ما دامت الوفاة خيراً لِي.(("

ورُوي عن عليّ: أنه كان يطوف بين الصّفّيْن في غلالة، فقال له الحسن: ما هذا بزي المحاربين. فقال: يا بني، لا يبالي أبوك سقط على الموت أم سقط عليه الموت.

وكان عبد الله بن رواحة يُنشد، وهو يقاتل الروم:

يا حَبَّذا الجنة واقترابُها	طيبةٌ وباردٌ شرابُها
والروم روم قد دنا عذابُها	عليّ إذ لَقِيتُها ضِرَابُها

وقال عمّار بصفِّين: غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه .

وروي عن حذيفة: أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال :حبيب جاء على فاقة.

وكان كلّ واحد من العشرة يحبّ الموت ويحنّ إليه.

ويُعلم من ذلك: أنّ تمنّي الموت لأجل الاشتياق إلى دار النعيم ولقاء الكريم غير منهيّ عنه؛ إنما النهي عنه :تمنّيه لأجل ضرٍّ أصابه؛ فإنه أثر الجزع وعدم الرضى بالقضاء .

الثالثة:

قال ابن كثير: من فسّر الآية على معنى{ :قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنّوا الآن الموت، ولم يتعرّض هؤلاء للمباهلة، كما قرّره طائفة مِن المتكلِّمين

وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول؛ فإنه قال: القول في تأويل قوله تعالى{ :قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ :}فهذه الآية ممّا احتج الله به لنبيه –صلى الله عليه وسلم– على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجَره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم؛ وذلك أن الله أمَر نبيّه– صلى الله عليه وسلم– إلى قضيّة عادلة بيْنه وبيْنهم فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى –عليه السلام– وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق اليهود: إن كنتم مُحقّين فتمنّوا الموت، فإن ذلك غير ضائركم إن كنتم مُحقّين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنّيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصَبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته، إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا. وإن لم تُعطوها، علِم الناس أنكم المبطلون، ونحن المحقّون في دعوانا، وانكشف أمرُنا وأمرُكم. فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك، لعلْمها أنها إن تمنّت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى.

قال ابن كثير: فهذا الكلام منه: أوّله حسن، وأما آخره ففيه نظر؛ وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أن يتمنّوا الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنّي الموت؛ وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يودّ أن يعمَّر ليزداد خيراً وترتفع درجته في الجنة، كما جاء)) :خيْرُكم مَن طال عُمره وحسُن عملُه .((

)ثم) [ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون –أيها المسلمون– أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنّوْن في حال الصحة الموت؛ فكيف تُلزمونا بما لا نلزمكم؟ .[

وقد تعرّض فخر الدين الرازي في" تفسيره"، لهذا السؤال، وأجاب عنه: بأن الرسول مأمور بإبلاغ الرسالة إلى أمّته بالتواتر عنه، وتمنّي الموت يحجزه عن ذلك. قال :ولعلهم كان يمنعهم مِن التّمني كثرة ذنوبهم، وكانوا يقولون: إنهم يكونون في النار أياماً معدودات ولكن كلّ يوم ألْف سنة، أو كان يمنعهم منه شدة الموت وآلامه .

وسأل غير ذلك من الأسولة وأجاب عنها بأجوبة، ولم يذكر مع هذا كله ذكر المباهلة

بالكلِّيّة .

وأما القرطبي، فإنه حكاه، وإنما عوّل على الأول –والله أعلم .–

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأمّا على تفسير ابن عباس، فلا يلزم شيء من ذلك؛ بل قيل لهم كلام نَصَف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم من أهل الجنة ومَن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادْعُوا على الكاذبين منكم أو مِن غيركم! واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقّنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة، لِما يعلمون مِن كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول –صلى الله عليه وسلم– ونعْته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحقّقونه. فعلِم كل أحَد باطلهم، وخزْيهم، وضلالهم، وعنادهم، –عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.–

الرابعة:

قوله{ :وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً }مِن المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله : {وَلَنْ تَفْعَلُوا .}فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنّوْا؟ قلت: لأنهم لو تمنّوْا لنُقل ذلك كما نُقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم مِن أُولي المطاعن في الإسلام أكثرَ مِن الذّرّ؛ وليس أحد منهم نقَل ذلك .

فإن قلت: التمني من أعمال القلوب، وهو سرّ لا يطّلع عليه أحَد، فمِن أين علِمتَ أنهم لم يتمنّوْه؟

قلت :ليس التّمنِّي من أعمال القلوب؛ إنما هو قول الإنسان بلسانه: "ليت لي كذا!". فإذا قاله، قالوا :تمنى. و"ليت": كلمة التّمنِّي، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب .ولو كان التمني بالقلوب وتمنّوْا، لقالوا: قد تمنّيْنا الموت في قلوبنا؛ ولم يُنقل أنّهم قالوا ذلك .

فإن قلت: لم يقولوه لأنهم علِموا أنهم لا يُصدَّقون !

قلت: كم حُكي عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين، من الافتراء على الله، وتحريف كتابه، وغير ذلك ممّا علموا أنهم غير مصدَّقين فيه، ولا محمل له إلاّ الكذب البحت، ولم يُبالوا! فكيف يمتنعون من أن يقولوا: إنّ التمني من أفعال القلوب، وقد فعلناه –مع احتمال أن

يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم-، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدّق، مع احتمال أن يكون كاذباً، لأنه أمْر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه.

الأسئلة :

١. وأشربوا : الإشراب مخالطة المائع الجامد وتوسع فيه حتى صار في اللونين ومنه بياض مشرب بحمرة (صح) .

٢. أشربوا : من أشربت البعير إذا شددت في عنقه حبلا كأن العجل شد في قلوبهم لشغفهم به (صح) .

٣. خالصة من دون الناس ؛ أي : لا يشاركنا فيها أحد (صح) .

٤. من دون الناس ؛ أي : من الناس الذين هم دوننا لأنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه (خطأ) .

٥. التمني : من أفعل القلوب وهو محبة الشيء والرغبة في حصوله ولا مدخل للسان فيه (خطأ) .

٦. بمزحزحه : من زح يزح زحاً ، وهو التحريك ، والتضعيف فيه يدل على تكرار الزح (صح) .

٧. ورد عن علي وغيره أن موسى عليه السلام برد العجل ثم ذره في البحر وأمرهم أن يشربوا منه فمن كان يعبد العجل منهم أو دخل حبه في قلبه اصفر وجهه مثل الذهب ، فهذا معنى (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) (صح)

٨. زعمت المعتزلة أن بناء (وأشربوا) للمفعول دليل على أن الفاعل هو من زين لهم ذلك وهو السامري ، وذلك لينفوا فعل الرب وخلقه لأفعال العباد ، والآية حجة عليهم لأن البناء للمفعول يدل على أن ذلك فعل بهم ولا فاعل سواه سبحانه (صح) .

٩. ثبت في الصحيح النهي عن تمني الموت ، والمقصود بتمني الموت هنا تمنيه لأجل ضر نزل بالعبد أو فقر ، وأما إن كان تمني الموت شوقاً إلى الله والجنة فلا نهي فيه (صح) .

١٠. هذه الآية مما احتج الله به لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا في عنده ، حيث دعاهم فيها إلى المباهلة والدعاء على الكاذب منهم بأن يموت ، فامتنعت اليهود من ذلك لعلمها أنهم على باطل وكذب (صح) .

١١. قوله (ولن يتمنوه أبداً) من المعجزات ، لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به سبحانه (صح) .

١٢. في الآية دليل على محبة الإنسان للموت دليل على صدق إيمانه وأن كراهته للموت دليل على عكس ذلك (صح) .

١٣. المراد برفع الطور فوقهم ما فعله الله بهم حتى يأخذوا التوراة ويؤمنوا بما فيها (صح) .

١٤. معنى (خذوا ما آتيناكم بقوة) أي : قاتلوا عليه وجاهدوا في سبيله (خطأ)

١٥. قوله (واسمعوا) أي : سماع تقبل وطاعة لا سماع أذن فقط (صح) .

١٦. كرر في الآيات ذكر رفع الطور للإشارة إلى أن هذا الرفع كان مرة ثانية ، والأولى سبق ذكرها (خطأ) .

١٧. ذكر القلوب في قوله (وأشربوا في قلوبهم العجل) لبيان محل الإشراب ، وهو يفيد المبالغة في الإثبات (صح) .

١٨. ثبت في الصحيحين من حديث أبي الدرداء مرفوعاً : « حبك الشيء يعمي ويصم » (خطأ) .

١٩. الباء في قوله (بكفرهم) للسببية ؛ أي : بسبب كفرهم (صح) .

٢٠. إسناد الأمر إلى الإيمان وإضافته إليهم في قوله (قل بئسما يأمركم به إيمانكم) فيه تهكم بهم واضح بما كانوا يزعمونه ويدعونه من الإيمان (صح) .

٢١. اختلف المفسرون في قوله تعالى (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) وما بعدها ، هل هي خاصة بمن كان من اليهود على عهد نبينا ﷺ أو هي عامة في كل يهودي . والصحيح العموم ، وهو الذي عليه الجمهور (صح) .

٢٢. في الآيات دليل على أن حرص اليهود على الحياة أشد من شرك المشركين عبدة الأوثان عليها (صح) .

٢٣. يصح أن تسمى المباهلة تمنياً ؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له (صح)

٢٤. قوله (بما قدمت أيدهم) أي : بسبب ما قدمت أيديهم من المعاصي والمخالفات (صح) .

٢٥. ذكر الظلم في قوله (والله عليم بالظالمين) إشارة إلى أنهم كانوا أهل ظلم شديد ومن ذلك ما ادعوه مما ليس فيهم ونفيه عن غيرهم (صح) .

٢٦. تنكير حياة للتحقير وأنها ليست الحياة الحقيقية ، أو أنه للإبهام ؛ أي : حياة مبهمة غير معلومة (صح) .

٢٧. ذكر حرص اليهود على حياة أكثر من الذين أشركوا فيه مبالغة في ذمهم وتقريعهم حيث أنهم مع كونهم من أهل الكتاب كانوا أحرص على الحياة من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث (صح) .

٢٨. الباء في بمزحزحه زائدة إعراباً لا معنى إذ معناه المبالغة في النفي (صح) .

٢٩. والله بصير بما يعملون : فيها تهديد واضح لهم (صح) .

٣٠. في الآيات إظهار واضح لكذب وكفر بني إسرائيل إذ كيف يدعون أنهم يؤمنون بالتوراة ثم يعبدون العجل وهو غير موجود في التوراة (صح) .

المحاضرة الأربعون

***

تفسير الآيات من (٩٧) إلى (١٠٠) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ } أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.}

القراءات:

لا يوجد في الآيات وجوه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

الحديث ما زال مستمراً عن جرائم بني إسرائيل، وجحودهم، وسوء أدبهم مع الله وأنبيائه ورُسُله.

لغويّات.

{جِبْرِيل وَمِيكَال :}قال ابن كثير :في جبريل وميكائل لغات وقراءات، تُذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطوّل كتابنا هذا بسرد ذلك، إلاّ أن يدور فهْم المعنى عليه، أو يرجع الحُكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان. اهـ.

قال: ومن الناس من يقول: "إيل" عبارة عن "عبد"، والكلمة الأخرى هي اسم الله، لأن كلمة "إيل" لا تتغيّر في الجميع، فوِزَانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل؛ فـ"عبد "موجودة في هذا كلّه، واختلفت الأسماء المضاف إليها؛ وكذلك جبرائل، وميكائل، وإسرافيل، وعزرائل، ونحو ذلك... وفي كلام غير العرب يقدّمون المضاف إليه على المضاف –والله أعلم .–

قلتُ: الذي في الآثار القادمة: عكس ذلك، وأنّ معنى "إيل :"الله. فيكون على غرار كلام

العرب.

و{جِبْرِيل :}علَم ملَك كان ينزل على رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– بالقرآن، وهو اسم أعجميّ، ممنوع مِن الصّرف للعلَميّة والعُجمة. وأبعدَ مَن ذهب إلى أنه مشتق مِن : "جبروت الله"، وجعله مركباً تركيب مزج مِن مضاف ومضاف إليه. فمنْعه من الصّرف للعلَمية والتركيب ليس بشيء، لأن ما يُركّب هذا التركيب يجوز فيه البناء والإضافة ومنع الصرف؛ فكونه لم يُسْمع فيه الإضافة أو البناء: دليل على أنه ليس من تركيب المزج.

وقد تصرّفت فيه العرب على عادتها في تغيير الأسماء الأعجمية، حتى بلغت فيه إلى ثلاث عشرة لغة، أفصحها وأشهرها: "جبريل"ك"قنديل"؛ وهي قراءة أبي عمرو، ونافع، وابن عامر، وحفص، عن عاصم، وهي لغة الحجاز. قال ورقة بن نوفل :

وجبريل يأتيه وميكال معْهما	من الله وحيٌ يشرح الصدر مُنْزلُ

وكذا" ميكائيل"، فيه لغات منها{ :مِيكَالَ }ك"مِفعال"، وبها قرأ أبو عمرو، وحفص؛ وهي لغة الحجاز. قال ابن جني: العرب إذا نطقت بالأعجميّ خلطت فيه .

والكلام في مْنع صرف "ميكائيل" كالكلام في{ جبْريل .}واشتُهر أنّ معناه: "عبيد الله"، وقيل: "عبد الله."

و"العدوّ "للشخص: ضد الصديق، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والتثنية والجمع. وقد يُؤنّث ويُثنّى ويُجمع، وهو: الذي يريد إنزال المضارّ به .

والنَّبذُ: الرّمي بالذمام ورفضه. وقرأ عبد الله بن مسعود: "نَقَضَه فريقٌ مِنْهُم" .

وقال ابن جرير: أصل النّبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سُمّي اللقيط: منبوذاً، ومنه سمِّي النبيذ، وهو: التمر والزبيب إذا طُرحا في الماء. قال أبو الأسود الدؤلي:

نَظَرتْ إلى عُنوانه فنبذتُه	كنَبْذِك نَعْلا أخْلَقَتْ من نِعَالِكَا

وغلب إطلاق النّبذ فيما مِن شأنه أن يُنسى، لِعدم الاعتداد به.

الآثار.

أخرج الطيالسي، والفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في "الدلائل"، عن ابن عباس :أنه قال: حضرت عصابة من اليهود

رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن خلال نسألك عنهنّ، لا يعلمهن إلاّ نبي. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–سلوا عمّا شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمّة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدّثتكم شيئاً فعرفتموه، لتُتابعنّي على الإسلام .((فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله– صلى الله عليه و سلم)) :–سلوني عمّا شئتم .((فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أيّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزّل التوراة؟ وأخبِرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذّكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمِّيّ في النوم ووليّه من الملائكة؟ فقال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنّني؟ ((فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق. فقال)) :نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرِض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً: لئن عافاه الله مِن سقمه ليحرمنَّ أحب الطعام والشراب إليه. وكان أحبّ الطعام إليه: لحمان الإبل، وأحبّ الشراب إليه: ألبانها؟ .((فقالوا : اللهم نعم .فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) : –اللهم اشهد عليهم! وأنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأنّ ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشّبه بإذن الله؟. وإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ .((قالوا: اللهم نعم .قال)) :اللهم اشهد .((!قال)) :وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمّيّ تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ .((قالوا: اللهم نعم .قال :))اللهم اشهد .((!قالوا: أنت الآن، فحدثنا مَن وليّك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك. قال)) :فإنّ وليِّي جبريل، ولم يَبعث الله نبياً قط إلاّ وهو وليّه .((قالوا : فعندها نفارقك! لو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك وصدّقناك. قال)) :فما منعكم أن تصدّقوه؟ .((قالوا: إنه عدوّنا. فأنزل الله –عز وجل{ :–قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ }إلى قوله : {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}؛ فعندها باؤوا بغضب على غضب.

ورواه محمد بن إسحاق بن يسار، عن شهر بن حوشب، فذكره مرسلاً، وزاد فيه: قالوا: فأخبِرنا عن الروح. قال)) :نشدتكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني؟ .((قالوا : نعم. ولكنه لنا عدو، وهو ملَك إنما يأتي بالشّدّة وسفك الدماء؛

فلولا ذلك اتّبعناك. فأنزل الله فيهم{ :قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ }إلى قوله{ :كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ.}

وروى أحمد، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله —صلى الله عليه وسلم– فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتّبعناك)) .فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه، إذ قال{ :وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}، قال :هاتوا. قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه .((قالوا: أخبرنا كيف تُؤنِثُ المرأة، وكيف تُذكِر؟ قال)) :يلتقي الماءان، فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرت، وإذا علا ماءُ المرأة (ماءَ الرجل) أنّثت .((قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال)) :كان يشتكي عِرق النّسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلاّ ألبان كذا وكذا –يعني: الإبل– فحرّم لحومها .((قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال :))ملَك من ملائكة الله –عز وجل– موكل بالسحاب، بيديه –أو في يديه– مخراق من نار، يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله –عز وجل .((–قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال)) :صوته .((قالوا: صدقت .إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا (بها) .إنه ليس من نبي إلاّ له ملَك يأتيه بالخبر، فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال)) :جبريل –عليه السلام ((–قالوا: جبريل؟! ذاك يَنزل بالحرب والقتال والعذاب، عدوّنا! لو قلت: ميكائل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقَطْر لكان. فأنزل الله{ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ }...إلى آخر الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة في" المصنف"، وإسحاق بن راهويه في "مسنده"، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الشعبي، قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يصلّون إليها. فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– صلّى ها هنا. قال : فكَرِه ذلك. وقال: إنما رسول الله –صلى الله عليه وسلم –أدركتْه الصلاة بواد فصلاّها، ثم ارتحل فتركه. ثم أنشأ يحدِّثهم فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم، فأعجب من التوراة كيف تصدّق الفرقان، ومِن الفرقان كيف يصدّق التوراة. فبينا أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب! ما من أصحابك أحد أحبّ إلينا منك. قلت: ولِمَ ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. فقلت: إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدِّق التوراة، ومن التوراة كيف تصدِّق

الفرقان. قالوا: ومرّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم، فالحَقْ به .قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، وما استرعاكم مِن حقّه، وما استودعكم من كتابه !أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا. فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غلّظ عليكم، فأجيبوه! فقالوا: أنت عالمنا وكبيرنا، فأجبْه أنت. قال: أما إذ نشدْتَنا بما نشدتنا به، فإنا نعلم أنه رسول الله. قال: قلت: ويحكم !فأَنَّى هلكتم؟ قالوا: (إنا) لم نهلك. قال: قلت: كيف ذاك؟ وأنتم تعلمون أنه رسول الله، (ثم) لا تتبعونه ولا تصدّقونه؟ قالوا: إنّ لنا عدواً من الملائكة، وسِلماً من الملائكة، وإنه قرن بنبوّته عدوّنا من الملائكة. قلت :ومَن عدوّكم؟ ومن سِلْمكم؟ قالوا: عدوّنا: جبريل، وسِلمنا: ميكائيل. قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة، والغلظة، والإعسار، والتشديد، والعذاب، ونحو هذا... وإن ميكائل ملك الرحمة، والرأفة، والتخفيف، ونحو هذا... قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما –عز وجل–؟ قالوا: أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره. قال: قلت: فو الله الذي لا إله إلاّ هو، إنهما –والذي بينهما– لعدو لِمن عاداهما، وسِلم لمن سالمهما، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائل، وما ينبغي لميكائل أن يسالم عدو جبريل. قال: ثم قمت، فاتبعت النبي –صلى الله عليه وسلم– فلحقتُه وهو خارج من خوخة لبني فلان. فقال)) :يا ابن الخطاب! ألاَ أقرئك آيات نزلْن قبل؟ ((فقرأ عليّ{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ }...حتى قرأ هذه الآيات. قال: قلت: بأبي وأمي يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أخبرك، وأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر .

ذكَره ابن كثير من طريقين، ثم قال: وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر؛ فإنه لم يدرك زمانه –والله أعلم.–

وقال السيوطي: صحيح الإسناد، ولكن الشعبي لم يدرك عمر .

وأخرج ابن جرير عن السدي، قال: لما كان لعمر أرض بأعلى المدينة يأتيها، وكان ممرّه على مدراس اليهود... فذكر نحوه .

قال ابن كثير: وهو منقطع أيضاً .

وروى آدم بن أبي إياس في "تفسيره"، وابن جرير، عن قتادة، قال: ذُكر لنا: أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود... فذكر نحوه مختصراً.

قال ابن كثير: وهو أيضاً منقطع.

وأخرج سفيان بن عيينة عن عكرمة، قال: كان عمر يأتي يهود يكلّمهم، فقالوا: إنه ليس من أصحابك أحد أكثر إتياناً إلينا منك... فذكر نحوه كذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أن يهودياً لقي عمر بن الخطاب فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدوّ لنا .فقال عمر{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}، قال : فنزلت على لسان عمر -رضي الله عنه .-

وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه.

قال الآلوسي: ومن الناس مَن روى: أن عمر -رضي الله تعالى- عنه نطق بهذه الآية مجاوباً لبعض اليهود في قوله: "ذاك عدوّنا"، يعني: جبريل؛ فنزلت على لسان عمر. وهو خبر ضعيف كما نص عليه ابن عطية.

قلت: مجموع هذه الطرق يرجّح أن لقصة عمر أصلاً، ومراسيل الشعبي مِن أصح المراسيل؛ فكيف وقد انضم إليها غيرها، لا سيما رواية ابن أبي ليلى، وقد قيل بسماعه من عمر. ولا مانع من أن تكون قصة عمر مع اليهود حصلت متوافقة مع قصة مجيء أحبارهم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله أعلم.

وقال الآلوسي: وقيل: نزلت في عبد الله بن صوريا، كان يهودياً من أحبار فدك، سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمّن ينزل عليه، فقال)) :جبريل .((فقال: ذاك عدوّنا، عادانا مراراً، وأشدّها: أنه أنزل على نبينا: أنّ بيت المقدس سيخربه بختنصر. فبعثنا من يقتله، فرآه ببابل فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمَرَه بهلاككم، فلا يسلّطكم عليه، وإلاّ فبِم تقتلونه؟ وصدّقه الرجل المبعوث، ورجع إلينا. وكبُر بختنصر وقوي، وغزانا وخرّب بيت المقدس.

قال الآلوسي: روى ذلك بعض الحفاظ. قال العراقي: لم أقف له على سند. فلعل الأول أقوى منه، وإن أوهم صنيع بعضهم العكس. انتهى.

قلت: لعله يقصد ببعضهم: الزمخشري؛ فقد صدّر تفسير الآية بهذا.

وقال سنيد في تفسيره عن القاسم بن أبي بزة: أن يهود سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم-

عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي. قال)) :جبريل .((قالوا: فإنه لنا عدوّ، ولا يأتي إلاّ بالحرب والشدة والقتال. فنزل{ :قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ }...الآية .

وعن مجاهد، قال: قالت يهود: يا محمد، ما نزل جبريل إلاّ بشدّة وحرب وقتال؛ فإنه لنا عدو. فنزل{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ }...الآية .

وعن قتادة، في قوله{ :قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ}، قال: قالت اليهود :إنّ جبريل عدوّنا، لأنه ينزل بالشّدّة والسّنة، وإن ميكائل ينزل بالرخاء والعافية، والخِصب؛ فجبريل عدوّنا. فقال الله تعالى{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ.}...

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وأبو يعلى، وابن حبان، والبيهقي في "الدلائل"، عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمَقدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو في أرض يخترف، فأتى النبيَ –صلى الله عليه وسلم– فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلاّ نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمّه؟ قال)) :أخبرني بهنّ جبرائل آنفاً ((قال: جبريل؟. قال :))نعم .((قال: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة)) .فقرأ هذه الآية{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ .}أمّا أوّل أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأمّا أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت. وإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماءُ المرأة نزعت .((قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهْت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي، قبل أن تسألهم يبهتوني. فجاءت اليهود، فقال)) :أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ .((قالوا: خيْرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال)) :أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ .((قالوا: أعاذه الله من ذلك! فخرج عبد الله. فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله. فقالوا: شرّنا وابن شرِّنا، فانتقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

وفي صحيح مسلم، عن ثوبان مولى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قريب من هذا السياق .

و عن ابن عباس، في قوله{ :فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}، يقول: جبريل نزل بالقرآن بإذن الله، يشدّد به فؤادك، ويربط به على قلبك{ .مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، يقول: لما قبله

من الكتب التي أنزلها، والآيات والرسل الذين بعثهم الله.

و عن قتادة، في قوله{ :مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، قال: من التوراة والإنجيل{ .وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، قال: جعل الله هذا القرآن هدًى وبشرى للمؤمنين، لأن المؤمن إذا سمع القرآن حفظه ووعاه وانتفع به، واطمأن إليه وصدّق بموعود الله الذي وعَده فيه، وكان على يقين من ذلك .

وأخرج ابن جرير، من طريق عبيد الله العكّي، عن رجل من قريش، قال: سأل النبي –صلى الله عليه وسلم– اليهود، فقال)) :أسألكم بكتابكم الذي تقرؤون، هل تجدونه قد بشّر بي عيسى أن يأيتكم رسول اسمه :أحمد؟ ((فقالوا: اللهم وجدناك في كتابنا، ولكنا كرهنا لأنّك تستحل الأموال وتُهرق الدماء، فأنزل الله{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ }...الآية.

وأما قوله تعالى{ :وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ:}

أخرج الديلمي عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–اسم جبريل : عبد الله، واسم إسرافيل: عبد الرحمن .((

وعن ابن عباس: قال إنما قوله{ :جِبْرِيل }كقوله: عبد الله، وعبد الرحمن. وقال: جَبْر: عَبْد، وإيل: الله .

و عن ابن عباس، قال: جبريل: عبد الله، وميكائيل: عبيد الله. وكل اسم فيه "إيل" فهو مُعبَّد لله .

و عن علي بن حسين، قال: اسم جبريل: عبد الله، واسم ميكائيل: عبيد الله، واسم إسرافيل: عبد الرحمن، وكل شيء راجع إلى "إيل" فهو معبد لله –عز وجل.–

عن علي بن الحسين، قال: تدرون ما اسم جبريل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه: عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه: عبيد الله. وكل اسم مرجعه إلى "إيل" فهو إلى الله .

وروي عن مجاهد والضحاك نحو ذلك .

وعن عكرمة: جَبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله .

و عن عكرمة، قال: جَبرئل اسمه: عبد الله، وميكائل اسمه :عبيد الله. قال: و"الإل": الله؛ وذلك قوله{ :لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً}، قال: لا يرقبون الله .

و عن يحيى بن يعمر: أنه كان يقرؤها: "جَبرئل" ويقول جبر هو :عبد، وال هو: الله.
قال ابن كثير: وكذا قال غير واحد من السلف .
وعن أحمد بن أبي الحواري: حدثني عبد العزيز بن عمير، قال: اسم جبريل في الملائكة: خادم الله. قال: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فانتفض، وقال: لَهذا الحديث أحب إليّ من كل شيء -في دفتر كان بين يديه .-
وقد أطنب السيوطي كعادته في سوْق آثار كثيرة بلغت ستّ صفحات في عِظَم خلْق جبريل ومنزلته وفضله وخشيته لله تعالى، والصورة التي ينزل عليها، ورؤية بعض الصحابة له، وكذا في ذكْر ميكائيل وفضله ومنزلته وخشيته، وفي عمل كل منهما، لا نطيل بذكرها هنا لِعدَم تعلّقها بمعنى الآيات، وإن كانت مرتبطة بعموم شرفهما- عليهما السلام.-
وأخرج ابن اسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قال ابن صُوريا الفِطيَوْني لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيّنة فنتّبعك !فأنزل الله في ذلك من قوله{ :وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ .}وقال مالك بن الضَيِّف: حين بعث رسول الله -صلى الله عليه و سلم- وذكَّرهم ما أُخذ عليهم من الميثاق، وما عُهد إليهم في محمد -صلى الله عليه وسلم-: والله ما عهد إلينا في محمد ولا أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله{ :أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ .}
و عن ابن عباس{ :وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}، يقول :فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به، غدوة وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أمّيّ لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.
وعن قتادة{ :نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ}، أي: نقضه فريق منهم.
وعن ابن جريج، في قوله{ :نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ}، قال: لم يكن في الأرض عهد يعاهدون إليه إلاّ نقضوه، ويعاهدون اليوم وينقضون غداً. قال: وفي قراءة عبد الله: "نقضه فريق منهم ."
وقال الحسن البصري، في قوله{ :بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}، قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلاّ نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم، وينقضون غداً .
وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم.-

أقوال المفسّرين.

قال ابن جرير: أجمع أهل العلْم بالتأويل جميعاً: أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدوّ لهم، وأن ميكائل وليّ لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك؛ فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أمر نبوّته.

وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك مِن أجل مناظرة جرتْ بين عمر بن الخطاب وبينهم في أمر النبي –صلى الله عليه وسلم .–

وأما تفسير الآية، فقوله تعالى{ :قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}، أي: مَن عادى جبريل فلْيعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم، على قلبك من الله بإذنه له في ذلك. فهو رسول من رسُل الله ملَكيّ، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أنّ مَن كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى{ :إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً}، فحَكم عليهم بالكفر المحقّق إذا آمنوا ببعض الرُّسل وكفروا ببعضهم. وكذلك مَن عادى جبريل، فإنه عدوّ لله، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال{ :وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً}، وقال تعالى{ :وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ } عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ .}

وقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :–))مَن عادى لي ولياًّ، فقد بارزني بالحرب .((

ولهذا غضب الله لجبريل على مَن عاداه، فقال{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، أي: مِن الكتب المتقدّمة،{ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، أي: هدًى لقلوبهم، وبشرى لهم بالجنة؛ وليس ذلك إلاّ للمؤمنين، كما قال تعالى{ :قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ

مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}، وقال تعالى{ :وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً .}

وقوله{ :فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ}، الضمير الأول البارز لجبريل، والثاني للقرآن. وقيل: الأول لله تعالى، والثاني لجبريل، أي: فإن الله نزّل جبريل بالقرآن على قلبك. وفي كلّ من الوجهيْن إضمار يعود على ما يدل عليه السياق؛ وفي ذلك من فخامة الشأن ما لا يخفى .

ثم قال تعالى{ :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}، يقول تعالى :من عاداني وملائكتي ورسُلي –ورسُله تشمل رسُله من الملائكة والبشَر، كما قال تعالى{ :اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ{ –}وَجِبْرِيل وَمِيكَال}؛ وهذا من باب عطف الخاصّ على العامّ، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خصّصا بالذِّكْر، لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن (معه){ مِيكَالَ }في اللفظ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوّهم، وميكائل وليّهم، فأعلَمَهم (تعالى) أنّ مَن عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضاً، ولأنه أيضاً ينزل على الأنبياء بعض الأحيان.

كما قُرِن إسرافيل برسول الله– صلى الله عليه وسلم –في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكال موكل بالنبات والقطر، هذاك بالهدى، وهذا بالرزق،كما أن إسرافيل موكل بالصُّور للنفخ للبعث يوم القيامة؛ ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان إذا قام من الليل يقول)) :اللهم رب جبرائل وميكائل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .((

وعداوة الكافر لله –عز وجل– هنا مجاز، إمّا عن مخالفته تعالى وعدم القيام بطاعته لِما أنّ ذلك لازم للعداوة، وإمّا عن عداوة أوليائه. وصدر الكلام بذكْره تعالى، لتفخيم شأن أولئك الأولياء، حيث جعل عداوتهم عداوته تعالى.

وقوله تعالى{ :فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ }فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين، بل قال{ :فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}، كما قال الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيءٌ	سبق الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وقال الآخر:

ليت الغراب غَداة ينعَب دائباً	كان الغراب مُقَطَّع الأوداجِ

وإنما أظهر الاسم ها هنا لتقرير هذا المعنى، وإظهاره، وإعلامهم أنّ مَن عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومَن عادى الله فإن الله عدو له؛ ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدّم الحديث)) :مَن عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب .((

وفي الحديث الآخر)) :إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحَرِب .((

وفي (الحديث) الصحيح)) :ومَن كنتُ خصمَه خصمْتُه.((

وقال ابن جرير في قوله تعالى{ :وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}، أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دالات على نبوّتك. وتلك الآيات هي (ما حواه كتاب الله) تعالى مِن خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبإ عمّا تضمّنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلاّ أحبارهم وعلماؤهم، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم، وبدّلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد –صلى الله عليه وسلم–؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمِن أنصف نفسه، ولم يدْعُه إلى هلاكها الحسدُ والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديقُ من أتى بمثل ما جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم– من الآيات البينات التي وصف، من غير تعلّم تعلّمه من بشريّ، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي.

قوله{ :وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ}، أي: إلاّ المتمرِّدون من الكفَرة.

قال الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي، وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفْر أو غيره. فإذا قيل: هو فاسق في الشرب، فمعناه: هو أكثر ارتكاباً له. وإذا قيل: هو فاسق في الزنى، يكون معناه: هو أشد ارتكاباً له.

واللام في{ :الفَاسِقُون }للجنس، والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب .

قوله{ : أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً.}...

نزلت في مالك بن الصَّيِّف كما سبق في: الآثار. وقيل: في اليهود، عاهدوا إن خرج لنؤمننّ به ولنكوننّ معه على مشركي العرب. فلما بُعث كفروا به. وقال عطاء: في اليهود، عاهدوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعهود، فنقضوها كفعْل قريظة والنضير.

واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا! وكم

عاهدهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فلم يفوا! قال تعالى{ :الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ.}

والهمزة للإنكار، بمعنى: ما كان ينبغي. وفيه إعظام ما يُقدمون عليه مِن تكرّر عهودهم ونقْضها، حتى صار سجيّة لهم وعادة؛ وفي ذلك تسلية له -صلى الله عليه وسلم-، وإشارة إلى أنه ينبغي أن لا يكترث بأمرهم، وأن لا يصعب عليه مخالفتهم .

والواو للعطف على محذوف، أي: أكفروا بالآيات وكلّما عاهدوا؟

وضُمِّن{ عَاهَدُوا }معنى" :أعطوا"، ولذا قال{ :نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ .}

وقيل: نسبة النّبذ إلى العهد مجاز، لأنه إنما هو في المتجسّدات، نحو{ :فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .}

ومعنى{ :نَبَذَهُ }هنا، أي: نقضه وترَك العمل به.

وقال{ :فَرِيقٌ مِنْهُمْ }لأن منهم من لم يَنقض .

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُون }بالتوراة، وليسوا مِن الدِّين في شيء، فلا يَعدّون نقض المواثيق ذنباً ولا يُبالون به.

ويحتمل أن يراد بالأكثر: النّابذون، وأن يراد مَن عداهم .فعلى الأول، يكون ذلك رداً لِما يُتوهّم أنّ الفريق هم الأقلون، بناءً على أن المتبادر منه القليل. وعلى الثاني، ردّ لِما يُتوهّم أنّ مَن لم ينبذ جهاراً يؤمنون به سراً.

فالقوم ذمّهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعْته وصفته وأخباره، وقد أُمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته، كما قال{ :الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ }...الآية.

المعنى الإجمالي.

يأمر تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يردّ على يهود في موقفهم معه، عندما سألوه عن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي، فأخبرهم أنه جبريل -عليه السلام-، فزعموا أنه عدوّهم لأنه ينزل بالعذاب، أمره الله تعالى أن يقول لهم إن جبريل -عليه السلام- لا يأتي

بشيء من قِبَل نفسه، وإنما ينزل بالوحي الكريم من الله تعالى، فيحفظه النبي –صلى الله عليه وسلم– في قلبه ويعيه كما أداه جبريل –عليه السلام– بأمر الله تعالى، وبتصديق ما سبقه من الكتب السماوية الأخرى، ليكون هداية للمؤمنين وبشارة لهم بالأجر الجزيل يوم القيامة. ثم يخبر تعالى أنّ من كان عدواً لأولياء الله تعالى من الملائكة أو الرسل الكرام منهم أو من البشر، وخاصة جبريل –عليه السلام– الذي يزعم اليهود أنه عدو لهم، وميكائيل –عليه السلام– الذي يزعمون أنه سِلم لهم، فهو كافر بالله تعالى، والله عدو لهؤلاء الكافرين وأمثالهم. ثم يذكر تعالى –رداً على زعْم ابن صُوريا الفِطيَوني وقوله لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيّنة، فنتبعك–، أنه قد أنزل إلى النبي– صلى الله عليه وسلم– آيات بيّنات ودلائل واضحات على صدْقه، ولا يكفر بها إلاّ المبالغون في الخروج على أمر الله، الذين بلغوا الدرجة العالية في الفسوق؛ وهم اليهود أمثاله –عليهم لعنة الله المتتابعة–. كما نعى الله عليهم– رداً على مالك بن الضَيّف وأمثاله، حيث قالوا: والله ما عهد الله إلينا في محمد ولا أخذ علينا ميثاقاً– أن ذلك ليس بغريب عليهم؛ فهم قد اشتُهروا بنقض العهود والمواثيق، وكلما عاهدوا عهداً مع الله أو مع أنبيائه أو مع الناس، نقض هذا العهد جلُّهم، لأنهم لا يؤمنون حقيقة، ودعواهم الإيمان كاذبة.

مسائل الآيات.

الأولى:

تعلّقت الباطنية بهذه الآية{ :عَلَى قَلْبِكَ}، وقالوا: إن القرآن: إلهام، والحروف: عبارة الرسول –صلى الله عليه وسلم–. ورُدّ عليهم في إيجاز: بأنه معجزة ظاهرة وباطنة، وأن الله تعالى سمّاه : قرآناً، وكتاباً، وعربياً، وأن جبريل نزل به؛ والملْهَم لا يحتاج إلى مَن ينزل به .

الثانية:

دلّت الآية على تعظيم جبريل والتنويه بقدْره، حيث جعله الله الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلْقه، والمنزل بالكتاب الجامع للأوصاف المذكورة. ودلت على ذمّ اليهود، حيث أبغضوا مَن كان بهذه المنزلة العظيمة الرفيعة عند الله تعالى.

وأُفرِد الملكان بالذِّكر تشريفاً لهما وتفضيلاً، كأنهما من جنس آخر؛ وهو ممّا ذكر أن التغاير في الوصف يُنزل منزلة التغاير في الذات. وقيل: لأن اليهود ذكروهما ونزلت الآية بسببهما. وقيل: للتنبيه على أنّ معاداة الواحد والكلّ سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى. واستدلّ بعضهم بتقديم جبريل على ميكائيل على أنه أفضل منه، وهو المشهور، واستدلوا عليه أيضاً بأنه ينزل بالوحي والعلْم وهو مادة الأرواح، وميكائيل بالخصب والأمطار وهي مادة الأبدان؛ وغذاء الأرواح أفضل من غذاء الأشباح .واعترض بأن التقديم في الذِّكر لا يدل على التفضيل، إذ يحتمل أن يكون ذلك للترّقي أو لنكتة أخرى، كما قُدِّمت الملائكة على الرسل، وليسوا أفضل منهم عند كثير من أهل العلْم، وكذا نزوله بالوحي ليس قطعياً بالأفضلية إذ قد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل؛ فلا بد في التفضيل من نص جليّ واضح.
قال الآلوسي: وأنا أقول بالأفضلية، وليس عندي أقوى دليلاً عليها من مزيد صحبته لحبيب الحق بالاتفاق وسيد الخلق على الإطلاق -صلى الله عليه وسلم-، وكثرة نصرته وحبه له ولأمّته، ولا أرى شيئاً يقابل ذلك. وقد أثنى الله تعالى عليه -عليه السلام- بما لم يُثْن به على ميكائيل، بل ولا على إسرافيل وعزرائيل وسائر الملائكة أجمعين. وأخرج الطبراني، لكن بسند ضعيف، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-ألاَ أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبرائيل .((وأخرج أبو الشيخ عن موسى بن عائشة، قال: بلغني أن جبريل إمام أهل السماء.

الأسئلة :

١. ذكر ابن كثير أن إيل في مثل جبريل وميكائيل معناه (عبد) والكلمة الأخرى اسم الله ، مثل عبد الرحمن ، وعبد الله ، وعبد الملك وهكذا ، وفي كلامِ غير العربِ يقدمون المضاف إليه على المضاف (صح) .
٢. الصحيح أن إيل في مثل جبريل وميكائيل معناه (الله) (صح) .
٣. جبريل علم على ملك كان ينزل على النبي ﷺ بالقرآن وهو اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعجمة والعلمية (صح) .

٤. قوله (نبذه فريق منهم) أي : طرحه وألقاه لعدمِ الاهتمام به (صح) .

٥. في القراءة المتواترة عن عبد الله بن مسعود : (نقضه فريق منهم) (خطأ) .

٦. في أسباب نزول هذه الآية ضمن حديث طويل أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : لو كان وليك من الملائكة غير جبريل لتبعناك فإنه عدونا من الملائكة فنزلت هذه الآيات (صح) .

٧. في أسباب نزول هذه الآيات أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن أمور منها : كيف يأتي الولد ذكراً وكيف يأتي أنثى فأخبرهم أنه إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أذكر بإذن الله وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أنث بإذن الله (خطأ) .

٨. في أسباب النزول أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن الطعام الذي حرمه إسرائيل على نفسه فأخبرهم أنه حرم علة نفسه لحوم البقر (خطأ) .

٩. في أسباب نزول هذه الآيات أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن الرعد ما هو فأخبرهم أنه اسم ملك من الملائكة موكل بالسحاب وأن بيده مخراق من نار يسوق به السحاب وأن ما يسمع من الصوت هو صوت المخراق (صح) .

١٠. ورد في بعض الروايات أن عمر بن الخطاب نطق بهذه الآية في معرض جوابه لليهود فنزلت الآية على لسانه ، والصحيح أنه حديث ضعيف كما ذكر الألوسي (خطأ) .

١١. قوله (فإنه نزله على قلبك بإذن الله) أي : نزل جبريل بإذن الله ليشدد به قلبك ويربط به فؤادك (صح) .

١٢. قوله (ولقد أنزلنا عليك آيات بينات) أي : واضحات ، وأنت تتلوها عليهم ليلاً ونهاراً وأنت أمي ومع ذلك لا يؤمنون (صح) .

١٣. قوله (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) المقصود بهذا العهد ما كانوا عاهدوا النبي ﷺ عليه ثم نقضوه مراراً وتكراراً (خطأ) .

١٤. في الآيات دلالة على أن من كفر برسول الله كفر بالله وأن من عادى أولياء الله فقد عادى الله (صح) .

١٥. نزول هذه الآيات رداً على اليهود فيها دلالة على أن الله غضب لقولهم في جبريل ما قالوا (صح) .

١٦. تخصيص جبريل وميكال بالذكر في الآيات بعد ذكر الملائكة عموماً فيه دلالة على شرف هذين الملكين الكريمين وفضلهما على سائر الملائكة (صح) .

١٧. قرن ميكال مع جبريل بالذكر فيه تنبيه على أن من عادى واحداً فقد عادى الآخر وليس كما قال اليهود أن ميكال وليهم دون جبريل (صح) .

١٨. في الآيات مثل لعطف العام على الخاص وذلك بعطف جبريل وميكال على الرسل (خطأ) .

١٩. صدر الكلام بذكر الله تعالى لتفخيم شأن أولئك الأولياء (صح) .

٢٠. قال (فإن الله عدو للكافرين) ولم يقل (فإنه عدو) لتقرير وتأكيد عداوته تعالى لمن عادى أولياءه (صح) .

٢١. في الحديث الصحيح (إني لأثأر لأوليائي كما يثار الليث الحرب) (صح) .

٢٢. اللام في قوله تعالى (الفاسقون) إشارة إلى اليهود (صح) .

٢٣. قال الحسن : إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره (صح) .

٢٤. الهمزة في قوله (أوكلما عاهدوا عهداً) للتقرير ، لبيان أن هذا دأبهم وحالهم مع العهود (خطأ) .

٢٥. التعقيب بقوله (بل أكثرهم لا يؤمنون) إشارة إلى أن الفريق الذي ينبذ العهد هو الأكثر دائماً (صح) .

٢٦. قوله (بل أكثرهم لا يؤمنون) تنبيه على أن نبذهم للعهد كان عن كفر (صح) .

٢٧. استدل بعض أهل البدع بهذه الآية على أن القرآن إلهام في قلب النبي ﷺ وأن الحروف عبارة الرسول ﷺ ولا حجة لهم بذلك (صح) .

٢٨. في تقديم جبريل على ميكال بالذكر إشارة إلى أن جبريل أفضل من ميكال وهو المشهور عند الجمهور (صح) .

٢٩. ليس في تقديم جبريل على ميكال دليل على أنه أفضل منه (صح) .

٣٠. في الطبراني بسند صحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم بأفضل الملائكة ؟ جبريل» (خطأ) .